

السيرة النبوية

محمد رسول الله  
والذي معه

---

عامة الخزن

عبد محمد جوزه البخار



## بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَوْمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون \* وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله الله يعلم حيث يجعل رسالته سبحانه الذين أخرجوا من ديارهم وهم آلاف من المجرمين نريد أن نجعلهم آيات للذين آمنوا ويذكروا أن الله يهديهم بشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون \* وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴿ .

( قرآن كريم )

كانت الجزيرة العربية غارقة في الظلمات قد ران عليها عقم روحى ،  
 فأغلب القبائل تتعبد لآلهة نحتت من حجارة أو حفرت من خشب أو  
 صنعت من نحاس . تعدد فيها الأرباب وقام بعض الكهنة ورجال الدين  
 لحماية المصالح الموروثة وبث روح التعصب للدين في نفوس المؤمنين  
 بالأصنام والأوثان . حفظا لمكانتهم وتوطيدا لسلطانهم وعملا على تغفل  
 نفوذهم إلى سويداء القلوب .

ومارس رجال الدين رياء كريات الفريسيين اليهود . تركوا جوهر  
 الدين وتشبثوا بالقشور ، فما أفزعهم الوثنية التي كانوا يمارسونها في  
 عباداتهم ولكن كان يثير حنقهم أن يدخل الحجاج البيوت من أبوابها أو أن  
 يأكل اللحم في مواسم الحج شيئا من الدهن أو أن يطوف الناس بالبيت  
 الحرام يثياب اقترفوا فيها المعاصي والآثام !

وكان سكان الجزيرة العربية متخلفين عن سير الزمن يمارسون كل  
 ألوان الحرية المدمرة ، حرية جنسية لا ضابط لها ، حتى إن إلصاق ولد  
 بوالده كان يترك أمره للبغايا أنفسهن أو إلى القافة إذا ما ادعى أكثر من رجل  
 نسبة المولود إليه ، أو إغارة قبيلة على قبيلة وانتزاع الزوجات من أحضان  
 الأزواج أو الفتيات من دور السادات الذين يكرهونهن على البغاء أو البنات  
 من كنف الآباء . ثم فخر بما حاق السبايا من عار يمشى به الشعراء في  
 القبائل والأمصار . وكان للرجل أن يتزوج من النساء ما يشاء دون تحديد  
 ما دام قادرا على الإنفاق عليهن ، وكان الابن الأكبر يرث نساء أبيه يحتفظ

لنفسه بمن يشتهى منهم ويخلع بعضهن على الراغبين فيهن لقاء مبلغ من المال ويبيع بعضهن في الأسواق بيع العبيد دون أن يكون لمن أى حق في الاعتراض ، فما كانت المرأة إلا لعبة الرجل إذا أرادها ، أو سلعته التي تجلب له المال إذا ما احتاج إلى الأموال .

وحرية في سلب أرواح الأغيار دون ذنب أو جريمة ، فقد كانت الثارات بين القبائل والبطون والأحياء مشتعلة لا يخمدها أوار ، إذا قتل سفيه رجلا في مشادة أو في مجال فخر أو بسبب تافه من الأسباب فأهل المقتول لا يترصون بالقاتل بل يضعون أعينهم على ذوى المكانة والشرف في أهله ، حتى إذا ما عمروا على أحدهم في غفلة من قومه اغتالوه بدم قتيلهم ، فيصبح ساداتهم مطلوبين بعد أن كانوا طالبين ، وتسيل الدماء البريئة على الرمال لتكون وقودا لقتل نفس بغير نفس وسيطرة الظلم على الناس .

وكانت الغارات تشن على القوافل للسلب والنهب . فقطع الطرق مهنة لا يزدريها المجتمع ، وقد زهقت في تلك الغارات أرواح وسلبت أموال وفقدت أنفس حريتها في لحظة عين . وطالما تغنى الشعراء بشجاعة قطاع الطرق وشبهوهم بالأسود إذا ما انفضت على فرستها وأنشبت فيها مخالبها ! ولم تكن هناك حكومة القوى عندها ضعيف حتى تأخذ الحق منه والضعيف عندها قوى حتى تأخذ الحق له ، بل قبائل تنصر كل فرد فيها ظالما أو مظلوما ، فمن لم تكن له قبيلة تمنعه التمس الجوار من قبيلة قوية خشية أن يتخطفه الناس في ذلك المجتمع الذي لا يحترم العدل لذاته ، بل يحترم كل ما تسانده قوة أو يستتر بالغدر :

وكان الناس على الرغم من تعصبهم لأهلهم يفتقرون إلى دين صحيح

يقوم اعوجاج نفوسهم ، تعبدوا ذواتهم ولم يحترموا إلا قوتهم وسلطان أموالهم وبطش عشيرتهم ، وكانت حاجتهم إلى دين قويم تدفعهم إلى حالة من اليأس الروحي تضطرهم إلى التماس فتات العزاء الديني على موائد الكهنة والصوفة الذين وهبهم آباؤهم لخدمة المعابد ، والحمس من أهل مكة الذين تنطعوا في أمر الدين فأحالوا جوهره إلى نواهي ما أنزل الله بها من سلطان ، وإلى أوامر في المأكل والملبس والمظهر لم تعرف طريقها إلى القلوب .

ونزل اليهود في يرب و كانوا أهل كتاب ولكنهم كانوا يعيشون في مجتمع مغلق بعد أن قر في نفوسهم أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم ، كلاب البشرية ، وأنهم وحدهم الموعودون بحضن إبراهيم عليه السلام بعد الممات . فكانوا يضمنون بدينهم . ولم يحاولوا أن يشركوا جيرانهم العرب في النعمة التي أنعم الله عليهم بها ولا أن يرفعوهم إلى النبع الروحي الذي يزداد ثراء كلما ازداد أخذ الناس منه ، أنانية منهم واستجابة لفرورهم الذي وسوس لهم أنهم شعب الله المختار .

ولم يكن اليهود في مجتمعهم المغلق جميعا بل كانت قلوبهم شتى بعد أن انقسموا إلى طوائف متناحرة عقب أن حملهم بختنصر إلى بابل أسرى وأخذوا من أساطير البابليين ما دسوه في دينهم ، فإذا بإلههم الرحيم يتقلب إلى إله غيور ، متعطل للدماء ، وإذا بالخلافات تنشب بين السامريين وبين العائدين من المنفى حول التوراة التي جاءوا بها وقد أضافوا إليها تاريخ اليهود من بعد موسى ، حتى استر التي لعبت برأس إمبراطور الفرس وجعلته يصدر أمرا بالعفو عن بني إسرائيل بعد أن كان قد أصدر أمرا بقتل كل من كان منهم في إمبراطوريته .

وعرفت اليمن اليهودية بكل ما فيها من خلافات ، ودخل بعض الحميريين في دين النصرى واشتركوا في العداوة التى كانت بين النسطوريين واليعقوبيين ، وتحيرت عقولهم لما فكروا في مئات المذاهب التى تفرعت عن المسيحية السمحة ، والنظريات الفلسفية التى أثرت لإثبات لاهوت المسيح وناسوته ، أو وحدة طبيعة المسيح ، أو الأقاليم الثلاثة ، وكان الشئ الوحيد الذى أدخلوه عن الكنيسة دون احتدام جدال أو مناقشة شرب الخمر ، فقد قيل لهم إن السيد المسيح كان شرب خمر .

واعتنقت قبيلة غيم المجوسية ، فكانت تعبد النار وتصلي لأهورا مزدا وتستعيز من أهريمان ، وأخذت عن الفرس الزواج من المحارم فكان الأب يتزوج ابنته والأخ يتزوج أخته والرجل يبنى بعمته أو خالته . ولم يكذب يربط بين هؤلاء العرب المختلفين في الديانات والمذاهب والأهواء غيريت أبيهم إبراهيم يحجون إليه في الموسم سواء أكانوا وثنيين أم على دين اليهود أم النصرى أم المجوس أم الصابئة أم الخنفاء .

وكان لقريش شرف الولاية على الحرم ، فكان منهم صاحب الرفادة والسقاية ، وصاحب السدانة والحجابة ، وصاحب الأزلام ، والعبد الذى يكسو الكعبة سنة وتكسوها قريش كلها سنة . وقد ذهب صيت ساداتهم في القبائل فالشعراء يحتكمون إليهم تداعبهم أعذب الآمال بأن يرضى أشراف قريش عن شعرهم وأن يعلقوه بهبل إله الشعر في جوف الكعبة ، وذلك غاية التكريم الذى يطمح إليه فحول شعراء العرب .

وكان فريق من قريش يؤمن بالله في السماء وآلهة في الأرض ، وفريق آخر لا يؤمن بأية آلهة ويقول : لا يهلكنا إلا الدهر ، بينا فريق يعبد

الكواكب والنجوم ، وفريق يؤمن بالبعث بعد الموت ، وآخر يسخر من فكرة القيامة . وكانت الصفة التي رآنت على الجميع الجهل والخرافات ، قد خبت فيهم الاستنارة الدينية وإن تعصبوا لآلهة آبائهم وما كانوا يعبدون .

كانت بلاد العرب أرض الضياع ووادي الدموع ، أهدرت فيها كرامة الإنسان بعد أن ظهر الفساد في جنباتها ، وكانت تندفع إلى الهاوية فما كان لها ماض مشرق يلمح على المصلحين أن يعملوا على بعثه ، أو إمبراطورية دارسة يدعون الناس إلى إحيائها ، وما كانت هناك آمال عريضة تثير حماس الراغبين في تأليف القلوب المتنافرة لتحقيقها ، فقد كان كل عرني سعيدا بالحرية المدمرة التي ينعم بها ، حرية الشهوات وفوضى المعتقدات وتحصيل كل لذة قبل القوات :

وفي ذلك الظلام الدامس كان الله يرعى عبده محمد بن عبد الله ليصنعه على عينه ، فحجب إليه العزلة وألقى من فيض كرمه في قلبه الأنوار وآتاه الحكمة ، فعرف السعادة في القرب من الله ، ففتح الله عليه من مزايا لطفه ورحمته فإذا بشرف المعلومات تحصل لقلبه بإلهام من ربه فتكشف له الحقائق بكشف إلهي ، وإذا بالحجب التي كانت بينه وبين ملكوت السموات ترتفع وإذا هو على نور من ربه .

وفي غار حراء أقبل بكنهه الهمة على الله ، فإذا بأنوار ربانية تغشى المكان ، وإذا برحمة إلهية تنتزل على من اصطفاه ربه ليكون رسوله إلى الناس ، وإذا بالروح الأمين يكلفه برسالة تنوء بحملها الجبال ، رسالة هداية البشرية جمعاء ودعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

كان وحده لا سيف في يده ولا أنصار يتصرونه من دون الله ، قد بعث



إلى أقوام شداد غلاظ الأكباد يقدسون دين الآباء ولا يحتملون أن يمس إنسان بسوء ما كان آباؤهم يعدون ، لا وزن لحياة الأغيار عندهم فيسفكون الدماء لأتفه الأسباب ، لكلمة عابرة يظن أنها حطت من شأنهم أو غدشت كرامتهم ، أو لغمزة أو لمزة أو فعلة عارضة أسيء فهمها . أفيرضون أن يأتي يتيم قريش لينفى الألوهية عن الآلهة جميعا ويثبتها لله وحده لا شريك له ١٢ أو يصدقون أنه يكلم من السماء ١٣

انقلب محمد — ﷺ — إلى أهله ليس له عون إلا عون ربه وإيمان بإلهه ، ترجف بوادره من هول ما كان بينه وبين رسول ربه في غار حراء ، وقد أشفق على نفسه من ضخامة المسئولية التي وضعت على كاهله ، فقد أمر وهو الأعزل من كل سلاح أن يقف في وجه الفساد الذي استشرى في الأرض ، وأن يتحدى الجبابرة والعتاة والمفسدين حتى يتم الله نوره . ولم يخفف من حدة الهلع الذي نزل بقلبه إلا أنه وعد بنصر من عند الله .

كان محمد — عليه السلام — طوال حياته التي انقضت قبل الرسالة يعيش مع الله وبالله وفي الله ، وكان سعيدا غاية السعادة بالأنس بربه والحياة في رحابه ، حتى إذا ما نزل عليه الوحي وكلف بإنذار الناس انتابه خوف شديد . فلم تعد الأسباب التي تربط بينه وبين دنياه تلك الصلة المباركة التي كانت بينه وبين ربه الرحمن الرحيم ، والمحبة التي كانت ترفرف على بيته السعيد ، ولا السلام الذي كان بينه وبين صفوة صحبه وجيرانه وعشيرته ، بل أصبح عليه أن يواجه العالمين ، وأن يقول في وجوه المشركين : الله ربكم ورب آبائكم الأولين .

وكان على يقين من أنه مع الله وأن الله معه ، ولكنه كان متلهفا على رؤية بزوغ شمس رسالته . فلو استجاب أحد من البشر إلى دعوته لألقى بنور

الأمل في نفسه ، فلما قص على زوجه الحبيبة ما جاء به الروح الأمين إذا  
بمخدجة التي اصطفاها الله لرسوله توأسيه وتذهب عنه روعه وتؤمن به ، بل  
وتحضه على الثبات ثم نبىء له سبل تبليغ رسالات ربه ، مضحية بأموالها ،  
مستهينة بكل الصعاب ، متحملة كل شدة وهي راضية النفس في سبيل  
الحق وإعلاء كلمته ، ولم تكتف بأن تكون أول المسلمين بل كانت سيدة  
نساء قريش راعية الرسول الكريم وحاضنة الدين القويم .

وراح محمد ﷺ — يدعو إلى دين الله سرا ، فاستجاب إلى دعوته  
أناس كانت عقولهم تواقفة إلى المعرفة . فما إن قال لهم إنهم يعبدون لأصنام  
ينحتونها بأيديهم لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا حتى انزاحت الغشاوة عن  
أفئدتهم ، وما أن دعاهم إلى عبادة الله الواحد القهار حتى أشرقت قلوبهم  
بالأنوار واستشعروا عزة وحرية مطلقة بعد أن تحرروا من كل شر ومن  
عبودية الأهواء والغرائز والجهل والنزوات ، وسموا بأنفسهم فوق كل  
رغبة حسية رخيصة .

واكتشف المؤمنون جوهر نفوسهم التقية في نور الله ، واهتلوا إلى أن  
الحياة دون الله لا معنى لها فاجتهدوا في نشدان الاتحاد مع الطاقة الروحية  
التي تعلن عن الكون وتحكمه ، وجاهلوا في تحطيم الحواجز النفسية بينهم  
وبين ربهم فإذا بهم يذوقون لذة روحية سرمدية ، لذة الأُنس بالله ، فهانت  
الدنيا في أعينهم وصغرت شوائدها ، وصارت لهم رسالة في الدنيا يعملون  
على تحقيقها ويحتملون المكاره في سبيلها ، فأصبحت نبضات قلوبهم  
المشرقة بالضياء الرباني رحلة أنفسهم في طريق الهداية إلى محبة الجنس  
البشرى .

وراح رسول الله ﷺ — والفئة القليلة المؤمنة يصلون لله خفية في

شعاب مكة ، حتى إذا ما أمر عليه السلام بإبذار عشيرته الأقربين صدع بما أمر به ، فكان لا بد من صدام بين الإرادة المؤمنة والإرادة المشبهة بدين الآباء ، بين الفكر الجديد والمعتقدات البالية ، بين النور والظلام ، بين الراعنين في الحقيقة المطلقة والخائفين من زوال كل نفوذ وسلطان .

ومشى سادات قريش إلى أبي طالب يؤذنون له بحرب إذا لم يكف ابن أخيه عن دعونه وسب آلهتهم وتسفيه أحلام آبائهم ، وأبى أبو طالب أن يسلم ابن أخيه لشانقيهم وإن لم يؤمن برسائله . بل جمع بني هاشم ودعاهم لحماية الأمين ، فهو منهم وله عليهم حقوق وإن خرج عن دين قومه ، فاستجابوا له جميعاً إلا عمه أبا لهب الذي انصم صراحة إلى معسكر أعداء دين الله .

وأصبح محمد — ﷺ — هدف سخرية الساخرين من الذي يُكلم من السماء ! وقطعت العدو شوط أبعد من الجزء واهجاء بعد أن امتدت الأيدي بالأذى إلى رسول الله ، فربما فيض حنان حديجة عليه لمسه عنه ما قاساه ، واجتهد في الابتغال إلى الله فكان الروح الأمين يشب قلبه بما ينزل به من القرآن .

وأمس عمه حمزة بدين ابن أخيه ، وقد شرح الله قلبه للإسلام ليعز به دينه وكان أعز حتى في فريش ، فلما علم المشركون من سادات قريش بإسلامه الذي أعلنه على الملأ هابوا إيقاع الأذى برسول الله ؛ حشية سيف حمزة البتار ، وحولوا عصيهم إلى المستضعفين من المؤمنين الذين ليس لهم من يجمعهم ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين لتتحد فيهم مفسدا لمرض القلوب وحقد الأحقاد !

وكان المستضعفون قد دخلوا في دين الله بعد نظر وتدبر وروية

وانشراح صدورهم لليقين وإشراق قلوبهم بالنور ، وكانت هموسهم حرة لما اختاروا الإسلام وإرادتهم مطلقة لما فضلوه على دين الآباء ، فكانوا يشعرون بحرية حقة وإن كانوا مكبلين بالأغلال وإن كانت أجسادهم ترق بالسياط أو تكوى بالنار ، فقد أشرق وجودهم بالاندماج في الوجود بمحض حريتهم ، والاتصال بمن فوق الوجود بانجذاب أنوار أرواحهم إلى نور السموات والأرض ، فعمهم وهم في محنتهم الأرضية نور على نور

كانوا على يقين من أنهم على الصراط المستقيم ، يسا كان جلادوهم متعصبين لعقائد بالية ورثوها عن الآباء فلم يكرنوا على مثل يقين ضحاياهم الذي لا يقبل جدالا ولا نقاشا ، فكان الاضطهاد معركة بين اليقين المبصر والتعصب الأعمى ، بين النور والظلام ، بين الذين ينشدون حرية الفكر والعقيدة والذين يريدون الحجر على العقول والقوامة على ميدان نشاط الفكر بأسره وإهاضة جناح كل الراغبين في التحليق إلى الملكوت السماوى والارتفاع إلى النبع الروحى ليكتسبوا حرية الكمال ، حرية التحرر من الشرور والآثام والزوات والبرء من أمراض القواد .

ولم يكونوا على درجة واحدة من اليقين والصلابة والاحتمال ، ولم يكن نزوعهم الوجدانى لنشدان الحرية الأخلاقية في مرتبة واحدة من القوة ، ولما كان الإنسان يملك من الحرية على قدر ما يستحق فقد اختلفوا في الاحتمال وثبات الجنان .

كان أناس منهم أكثر حرية ممن قيدوهم بالقيود وصبوا عليهم سوط عذاب ، وكانت الأرض تحنهم أثبت منها تحت أقدام العناة ، بل كان بعضهم يتهيج بوجوده ويتهلل بالفرح الروحى لقوة الإرادة التى أمدده الله بها فجعلته يستخف بالعذاب ويستهزئ بالمعتهمين على مماع كلمة سوء تحرج

من بين شفتيه ولو قهرا تصيب الدين الحديد ومن جاء يفرق بين الأهل والخلل. وقد كان بلال صابرا على ما نزل به من اضطهاد، وما كان يجرى على لسانه إلا ذكر ربه . طسوه أنه يذكر محمداً ﷺ — بسوء فأتى ، فطلبوا منه أن يذكر آلتهم بحير وأن يقول كما يقولون ليشتري نفسه التي كانت هدفا لأقصى ألوان الاضطهاد بكلمات طيبة في حق اللات ولعري فأبى ، واستمر يردد : أحد .. أحد ، فكان نشيده مسجما مع شعوره بحرية إرادته ، فكان بحق إمام المعذبين الصابرين الذين أشرقت قلوبهم بأنوار اليقين .

وعجرت أبدان عن احتمال آلام العذاب الرهيب ، فالروح قوى والجسد ضعيف ، فارتفعت أصوات أصحابها بالأبى ، ولم يستطيعوا الصبر على البلاء العظيم فأعصوا المشركين بلسانهم ما يرفع عنهم العذاب الأليم وإن كانت قلوبهم عامرة باليقين ، واضطروا لتحريك اللسان بما يكرهون للفرار مما نزل بهم من آلام يشيب من هولها الوليد ، فلما أطلق الكافرون سراحهم تقاصرت نفوسهم واستشعروا هوان موقفهم فأنقلبوا إلى رسول الله ﷺ — يعتدرون وهم يذرفون الدموع .

رأى عمار أمه وقد ربطت بين بعيرين ، وقد صوب أبو جهل حربة إلى ثبها ففاضت روحها . ورأى أباه وهو يحود بأنفاسه في أثناء العذاب ، فأعطى معذبة ما أرادوا بلسانه مكرها ، فهرع استسمون إلى رسول الله ﷺ — فقالوا :

— كفر عمار .

فقال رسول الله ﷺ — :

— كلا . إن عمارا مليء إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه

ودمه .

فأتى عمار رسول الله ﷺ — وهو يركى ، فجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يمسح عينيه وقال :  
إن عادوا لك فعد لهم بما قلت .

فهدأت نفوس من أعطوا معذبهم بالسنتهم ما أرادوا مكرهين .  
وفزع أناس من العذاب ولم تكن ذواتهم قد تحررت من روااسب  
معتقدات الآباء ، فما شعروا بحريتهم الحقة وما كانوا يعرفون في وضوح ما  
يريدون ولماذا هجروا دين آباء ودخلوا في الدين الجديد . فلما رأوا سوط  
العذاب في أيدي ساداتهم انخلعت أفئدتهم رعبا وارتدوا مهرولين إلى الكفر  
بعد الإيمان ، فأنزل الله ﷻ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه  
مطمئن بالإيمان \* ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم  
عذاب عظيم \* ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا  
يهدى لقوم الكافرين \* أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم  
وأبصارهم وأولئك هم العاقلون \* لا حرم أنهم في الآخرة هم  
الخاسرون (١) .

عرف محمد — ﷺ — ربه قبل أن يبعث ، وأشرق قلبه بأبوار يسرته له مشاهدة ما وراء حواسه ، فاستوى بصره وبصيرته وأرشد إلى طريق الحق ، حتى إذا ما أتم الله تدريبه وإعداده لتحمل نزول الوحي عليه كلف بالرسالة ، فكان عليه وحده بتأييد من ربه أن يخلع الشرك وعبادة الأوثان من رقاب الناس .

كان دين زرادشت قد فسد في فارس وطمرته الأساطير وعبد الناس هناك النار بعد أن أقنعوا أنفسهم بأنها من نفس طبيعة أهورامزدا إله النور . وتفتت الدين الزرادشتي تحت تأثير الأفكار الجديدة التي وردت إليه من الهند بل ومن الدولة الرومانية التي كانت العدو اللدود لإمبراطورية الساسانيين ، فعادت فارس إلى الوثنية البغيضة بعد أن طال على الناس الأمد وقست قلوبهم .

وكانت الدولة الرومانية نعتنق المسيحية ولكن رعاياها انقسموا فيما بينهم في طبيعة المسيح ، طائفة تقول بوحدة طبيعة المسيح وطائفة تقول بالأقانيم الثلاثة . وتآرجح الناس بين لاهوت المسيح وناسوته ، وقامت العداوات بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة الإسكندرية ، والكنائس الأخرى التي كانت ترحو أن تتحرر من سيطرة الكنيسة التي كانت تؤيد الأباطرة في نظراتهم الدنيوية وتقرضهم الأموال بالربا لاستمرار الحرب بين فارس والدولة البيزنطية .

كانت المسيحية قد انقسمت إلى مئات المذاهب ، وكانت الصور

والتماثيل منتشرة في كل الكنائس . وكانت الجماع الدينية التي كانت تجتمع لتقرر هوى الإمبراطور في مسألة من مسائل اللاهوت قد أفسدت دين المسيح بما أدخلته فيه من قسفات وأساطير ، وقد طهر بين رجال الدين المسيحي الحسد والغرور والخسة وبيع الأشياء وشراؤها ، وأصبح الدين مطية لتحقيق المعام وإشباع الشهوات المادية .

كانت المسيحية السمحة قد تلاشت من الأرض ، وقد ارتدت الوثنية رداءها بعد أن أدخل فيها بولص أساطير بعل والعسعات الوثنية القديمة ، واستصاع حماسته أن يصبح العرب بأفكار وثنيه شرقيه ، أو كاقيل يجعل نهر العاص يصب في نهر التيبر .

وكانت الجزيرة العربية عارقة في الشرك حتى الآذان ، تسيطر عليها الخرافات ويحقق في حبستها الفساد ، ونهب الأموال فضيلة يتعسى بها الشعراء ، والسادات يكرهون فتياهم على البقاء ، والقائل ترى في سفك الدماء الرقعة للأخذ بالثأر عملا من أعمال الرهو والشموخ بالأبوف ورفع الجباه . قد شاع فيهم الجهل وقضى فيهم المنكر وكثرت فيهم البدع والأهواء ، وقد تكدر في الحرم مباراة التوحيد ثلاثمائة وثلاثون من الأصنام والأوثان !

كان الفساد يعمر وجه الأرض قد راعت قلوب الناس عن الحق ونزل فيها الشرك بخالق السموات والأرض ، رب اساس إله الناس رب العالمين وكانت الحضارة البشرية تنزلق إلى الهاوية حتى أشرفت على شفا جرف هار ، فأراد الله بفيض كرمه ورحمته أن ينتشل البشر من الهوان وأن يعيد للناس كرامتهم وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، فجعل يصنع محمد بن عبد الله على عينه ، فاستودع قلبه الإخلاص وفجر فؤاده بما يبيع الحكمة



ورفع الحجاب بين بصيرته والملكوت ، فصار الله هو المتولى لقبه والتكفل له بتوحيده بأنوار اليقين .

وعرف محمد عادة الله حق عبادته وصار أنقى رجل على وجه الأرض على نور من ربه ، حتى إذا ما كان الله خفق قلبه وقرّة عينه وروح روحه اصطفاه ربه لرسالته وأمره أن يدبر الناس ، فإذا به وحده أمام العالم كله بلا سلاح إلا سلاح الإيمان ، وبلا قوة إلا ما يمدّه بهاربه ، وبلا ناصر غير الله . وشرح الله قلوب فئة من المستضعفين في الأرض للإسلام ، أمدّهم بقوة من عنده فإذا بهم يشتون للاضطهاد ويستهرثون بالعداوت وقام في مكة صراع حول الحقيقة أمى وحى السماء أم أساطير النضر بن الحارث وأجزاء الحكمة التي استوردها من فارس وقصر الخورنق بالحيرة ؟ أمى الآلهة المخسدة المسحوتة من الحجارة أو المنقورة في الخشب أو المصوبة من الذهب والبرونز والنحاس ، أم الحقيقة المتعالية ؟ الله الذى لا إله إلا هو له ما فى السموات والأرض وله غيب السموات والأرض ؟

ونشب الصراع بين أناس على ربهم يتوكلون بحسونه التعامل مع الله ومع دوائهم ومع الأغيار ، وأناس يحسون الظن بأنفسهم وإن كانوا فى الضلال يعمهون ، ويعتمدون على أنسابهم وشعرائهم وسفهاهم فى إطفاء نور الله .

كان الشعراء يطمون القريص فى هجو محمد — ﷺ ، وكان الله يوحى إليه بقرآن يقص عليهم ما كان بينه وبينهم وما كان يحرق فى نجاوهم ويلزمهم الحجة ، فيشرح بعض الصدور للإسلام ويزيد الكافرين كفرا على كفرهم .

كانوا فى حيرة من أمره وأمر قرآنه ، فما يقول ليس بشعر ولا سجع ( عام الحزن )

يُكْفَهُنَّ وَإِنْ لَهُ الْحِلَازَةُ وَإِنَّهُمْ لِيُخْشَوْنَ أَثَرَهُ فِي نَفُوسِ أَنْاسٍ تَسْتَهْوِيهِمُ  
الْبِلَاعَةُ وَالْبَيَانُ ، فَلَا بَدَّ مِنَ الْإِصَاقِ نَقِيصَةٍ بِهِ تَنْفِرُ النَّاسُ مِنْهُ وَتَجْهَرُ بِهِمْ  
يَعْرِضُونَ عَنْهُ ، فَقَالُوا : سَاحِرٌ كَذَّابٌ .

وَنَزَلَ الْقُرْآنُ يَفْنِدُ مَزَاجَهُمْ : ﴿ مِنْ وَالْقُرْآنِ دَى الذِّكْرِ ﴾ \* بَلِ الدِّينُ  
كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ \* كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحِثُّ  
مِنْهُمْ \* وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ  
\* أَجْعَلِ الْآلِهَةَ آلِهَةً لَهَا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ \* وَانْطَلِقِ الْمُلَا مِنْهُمْ أَنْ  
امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ \* مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ  
الْأُولَى إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ \* أَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ  
ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ \* أَمْ عَنْدهُمْ حِزَانٌ رَحِمَةً رَبِّكَ الْعَزِيزُ الْوَهَّابُ  
\* أَمْ لَهُمْ مَلِكٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ \* حَتَّىٰ مَا  
هَالِكٌ مُهْزَمٌ مِنَ الْأَحْرَابِ \* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَهَرَعُونَ ذُرِّ  
الْأَرْتَادِ \* وَثَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ \* إِنْ كُلُّ إِلَّا  
كَذَّبَ الرِّسْلَ فَمَنْعُ عِقَابٍ \* وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ  
فَوَاقٍ \* وَقَالُوا رَبَّنَا عَمَلْنَا غَلًا قَلِيلًا يَوْمَ الْحِسَابِ \* أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ  
وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ \* إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ  
بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ \* وَالطُّيُورُ مَحْشُورَةٌ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ \* وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ  
الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿١﴾ .

وَكَانُوا فِي عَجَبٍ مِنْ أَمْرِ يَتِيمٍ قَرِيشٍ ، وَكَانُوا يَتَسَاءَلُونَ مِنْ أَيْنَ جَاءَ ابْنُ  
عَبْدِ اللَّهِ هَذَا الْعِلْمُ وَتِلْكَ الْحِكْمَةُ ؟ لَوْ سَكَنُوا عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ

لشرحت الصلور للدعوة الجديدة ولوجدت طريقها إلى المتطلعين إلى النزاهة المطلقة ولاستحاب السادة والعبيد إلى صوت العقل ، فراح النصر ابن الحارث يجلس إلى القوم يروي الأساطير ويسحر بما يقصه محمد عليه السلام عن عاد وثمود ، ثم يقول : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (٢) .

كان الضر بن الحارث أكثر المستهزئين بابن خالته محمد عليه السلام ، وكانت عداوته تزداد اشتعالا كلما نزل القرآن آيات تلزمه الحجة . ولولا العناد والحسد لأسلس لابن الحالة القياد يأخذ بيده إلى يتابع الحكمة الحقة .

كان يقول سادات قريش كلما أظهروا ميلا للقرآن .

— لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين \* وإذا قلوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم \* وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستعفرون \* وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصعدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون \* وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون \* إن الذين كفروا يفتقون أموالهم ليصلدو عن سبيل الله فسينعقوها ثم تكون حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ (٢) .

كانت حلود سادات قريش تقشعر من الرهبة كلما نزل القرآن بالوعيد ، فكان النصر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأبو سفيان بن حرب وعقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف يسحرون في ضراوة من يتيم قريش ويقولون للتهوين من شأنه :

— الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد .

فإذا بالقرآن يمرل مقوضا هذه الحجة : ﴿ أَكُنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أُنَوحِيًا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أُنَبِّئُ النَّاسَ وَبَشَرِ الدِّينِ آمَنُوا أَنْ هُمْ قَدِمَ صَدَقَ عَدُوَّهُمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مِينٌ \* إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ هُتِفَ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ \* إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ عَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (١) .

واستمر الكافرون في التهوين من شأن محمد عليه السلام ، فالمعركة يسه ويبيهم مستمرة ، فإن وهوا كان ذلك نهاية نفوذهم والقضاء على سلطانهم وسيطرة الدين الحديد على المسجد الحرام ، فقالوا مستمرين في هزتهم :

— ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟

— لولا أرسل إليه ملك فيكون معه نذيرا !

— إن هذا إلا إلهك افتراه .

— إنما يعلمه بشر ، إنه يمر بالصرايين يسار وخير ، ويسمع قراءتهما ويتعلم منهما .

— بل يجلس إلى جبر يتعلم منه .

— لو كان رسول الله حقاً لألقى الله إليه كنزاً أو تكون له جنة يأكل منها .

فتزل القرآن يفد مراعمهم . ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ بالبيات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴿ (١) .

﴿ ولقد علم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ (٢) .

﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاء ظلماً وزوراً ﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان عموماً رحيماً ﴾ وقالوا ما هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ أو يلقى إليه كنزاً أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً ﴾ بل كذبوا

بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً\* إذا رأيتم من مكان بعيد سمعوا لها تغيصاً وزفيراً\* وإذا ألقوا منها مكانا ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثوراً\* لا تدعوا اليوم ثوراً واحداً وادعوا ثوراً كثيراً ﴿١﴾ .

واجتمع سادات قریش فی ناديتهم وقد انتابهم خوف من وعيد القرآن ومن أن أتباع محمد — ﷺ — يزدون ولا يقصون ، واستولت عليهم أمية مصالحة سليل هاشم فقالوا :

— ابعثوا إلى محمد حتى تعلموا فيه .

وكان محمد — ﷺ — جالسا في المسجد وحده ، فامتدت إليه أبصارهم ثم قالوا :

— انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليات هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فنيكلمه ولينظر ماذا يريد .  
— لا نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة .

فقال عتبة :

— أنا أقوم لمحمد وأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا .

فقالوا مستبشرين :

— يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه .

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يابن أخني إنك ما حيث قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم وديهم وكفرت به من

مصى من آبائهم .

وصمت رسول الله ﷺ — ليعطى المميد المطاع في قريش فرصة  
إنهاء حديثه ، فقال عتبة :

— أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ إن كنت تزعم  
أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير  
منهم فقل يسمع لقولك . لقد أفضحتنا في العرب حتى طار فيهم أن في  
قريش ساحرا وأن في قريش كاهنا ، ما تريد إلا أن يقوم بعضا لبعض  
بالسيوف حتى نتفانى ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك  
تقبل منها بعضها .

— قل يا أبا الوليد أسمع .

— يابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا  
من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا  
حتى لا نقطع أمرادنا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان  
هذا الذي يأتيناك رثيا من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك  
الطب وبدلنا فيه أموالنا حتى ببرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل  
حتى يداوى .

كان عتبة بن ربيعة ملتصقا بالأرض محصورا في دياره لما كان يحدث  
رئيس السماء ، إنه يعرض على رسول الله ﷺ عرض الدنيا الزائلة ،  
يعرض عليه الأموال دون أن يدري أن محمدا عليه السلام قد زهد في  
الثروة ، فهو يرى أن الكور مثقلة بدموع العبيد ، وأن الثروات التي تجمع  
عن طريق استغلال الناس تناقض روح الإنسانية الخيرة التي يدعو إليها ،  
إنه يعرض عليه الملك ! إنه يفتح أمامه أبواب الدوة لا ليكون سيدا من

ساداتها بل ليكون صاحب رأى الأخير فيما يقرروه . إن مقاييس عتة بن ربيعة الذى ينف على المائة عام مقاييس هائلة لا تتجاوز ديباه المادبة التى لا تعرف من اللذات إلا اللذائذ الحسية ، ولم يستطع أن يفهم أن دعوة رسول الله ﷺ إنما تستهدف أول ما تستهدف أن ترفع الإنسان من الأرض إلى عالم الميكوت ، وأن تعيد إليه كرامته بانتشاله من الحيوانية التى تردى فيها ، وأن كنوز الأرض وملك الدنيا العانية لا يساوى لحظة أس بره أو النظر إلى وجهه الكريم .

ما قدر الشيخ عتبة رسول الله — صوات الله عليه وسلامه — حق قدره لما قال له : أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فما خطر له على قلب أنه جالس إلى خير خلق الله .

انتظر — عتبة — حتى مرع عتبة فقال :

— لقد فرغت يا أبا الوليد ؟

— نعم .

— فاسمع منى :

— فاعمل .

— ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم \* حم \* تنزيل من الرحمن الرحيم \* ﴾ كتاب فصلت آياته قرأنا عربيا لقوم يعلمون \* بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون \* وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إنا عامون \* قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما ألهكم إله واحد فاستقيموا إليه وستعفروا وويل للمشركين \* الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون \* إن الدين آموا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون \* قل أنكم لتكفرون بالذى



خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين \* وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين \* ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين \* فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم \* فإن أعرضوا قل أنذرتمكم صاعقه مثل صاعقة عاد وثمود ﴿١﴾ .

أنصت عتبة وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ، فدما انتهى رسول الله ﷺ إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادِ وَثَمُودَ ﴾ فأمسك عتبة على فيه ﷺ وباشده الرحم أن يكف عن ذلك وهو يرتجف من الرأس إلى القدم ، ولكنه عليه الصلاة والسلام استمر في القراءة : ﴿ إِذْ جَاءَهُمُ الرِّسْلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مِنْ سَمَاءٍ مَاءً مَلْآنًا فَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ كَافِرُونَ \* فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّْا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ \* فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْثَرُ وَهُمْ لَا يُصْصِرُونَ \* وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذْنَاهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ عَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ \* وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا رَكَانُوا يَتَّقُونَ \* وَيَوْمَ نُحْشِرُ أَعْدَاءَ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ \* حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* وَقَالُوا لَوْلَا دُعَاهُمْ لَمْ شَهِدْهُمْ عَلَيْنَا

قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون \* وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون \* وذلكم ظلمكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين \* فإن يصبروا بالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين \* وقيصنا لهم قرناء عزيزوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين \* وقال الدين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغفلون \* فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون \* ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء عما كانوا بآياتنا يمحذون \* وقال الدين كفروا ربنا أربا للذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين \* إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون \* نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهون أنفسكم ولكم فيها ما تدعون \* نزلا من غفور رحيم \* ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين \* ولا تستوي الخسرة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم \* وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم \* وإما ينزغلكم الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه هو السميع العليم \* ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴿١﴾ .

فسجد رسول الله ﷺ — ثم قال :

— قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة بن ربيعة مأخوذاً بما سمع ، إنه يبغى على المائة ، وقد سمع أشعار فحول الشعراء واشترك في بشريف بعض روائع الأشعار وسمح بتعليقها في الكعبة ، ولكن ما سمعه من الأمين يفوق كل ما سمع طوال حياته من نشيد ، وإنه قد جاب الأسواق وألقى سمعه إلى كل حكماء العرب في عكاظ ومجنة وذى محاز وفي أسواق الشام واليمن فما بلغ أحدهم ما بلغه قرآن ابن عبد الله ، وقد سمع قصص الضر بن الحارث وأمّية بن أبي الصلت وأحاديث الكهان فما بلغ قصص ولا أحاديث روعة ما شنف به محمد — عليه السلام — أذنيه ؛ فرقة القرآن تسرى في روحه فتملؤه نشوة على الرغم مما استبهد به من خوف .

ودنا عتبة من أصحابه فرأوا في وجهه شروداً وحيرة ، فقال بعضهم

لبعض :

— واللات والعزى لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فجلس إليهم فقالوا له :

— ما وراءك يا أبا الوليد ؟

— ورأى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعوا فاجعلوها إني . خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكون لقوله الذى سمعت منه بياً ، فإن تصبى العرب فقد كفتوه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا :

— سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

— هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم

### ٣

راح الملا من قريش يذكرون فيما قال عتبة بن ربيعة . إنه يصحهم بأن يحلوا بين محمد — ﷺ — وبين الناس فإما أن يقتله العرب ويربحوهم منه ومن ثار بني هاشم ، وإما أن يطهر على العرب فيصبح ملكه ملكهم وعره عزهم ، فلم يصحهم ذلك المنطق فقد كانوا جميعا إما حاسدين أو خائفين على ما في أيديهم من نفوذ .

وكان حديث عتبة نذير اشتداد خطر الدين الجديد ، فإن كان قرآن محمد قد سحر ببيانه شيحا من فرسان البيان فإنه سيلعب بألباب الناس إذ أنقوا إليه سمعهم ، فقامت القنائل نعدب من أسلم فيها لعل المؤمنين بدعوة ابن عبد الله يعودون إلى دين الآباء ، ولعل الأصوات التي ترتل ما أتى به محمد نصمت قبل أن تشتد الفتنة وتعمر كل الدور .

كان العذاب يزل بالمسممين ، وكان الحوار دائرا بين رسول الله عليه السلام وبين سادات قريش . وذات يوم اجتمع على ظهر الكعبة شبيبة بن ربيعة وأبو سفيان والضرب بن الحارث وأبو المحترى وأوليد بن المعيرة وأبو جهل وعبد الله بن أبي أمية وأممية بن حنظل ورؤساء قريش ، فقال بعضهم لبعض :

— انصتوا إلى محمد وكنموه وخصموه حتى تعدروا به .

فصتوا إليه :

— إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك .

فجاءهم سريعا وهو يظن أن الله قد شرح صدورهم للإسلام وكان عليهم حريصا بحث رشدهم ويعز عليه تعنتهم ، حتى جلس إليهم فقالوا .  
— يا محمد ، إنا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك . لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفّهت الأحلام وشتمت الآلهة وغرقت الجماعة ، وما بقي من أمر قبيح إلا وقد جثته فيما يبسا ويبسك ، فإن كنت إنما جثت به لتطلب به مالا جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فيما سوداك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكاك علينا ، وإن كان هذا الرقي الذي بأنتك تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب لك حتى يرثك منه أو نعذر فيك .  
إما نفس مقالة عتبة ما زادوا عليها شيئا ، أفصيص رسول الله — عليه السلام — بهم فيقول . أف لكم ، ثم يوليهم طهره ؟ ما كان صلوات الله عليه ليصيص بذلك الحوار بل كان يجد فيه حير فرصة لشر دعوته بين الناس ، فقال :

— ما بي ما تقولون . ما جئتمكم بما جئتمكم به لطلب أموالكم ولا للشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله عز وجل بعثني إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونبيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عن أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم .  
— يا محمد فإن كنت غير قابل من ما عرضنا فقد علمت أنه ليس من الناس أحد أصبى بلادا ولا أقل مالا ولا أشد عيشا منا ، سل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك فليسير عنا هذه الحال التي صيقت علينا ، ويسقط لنا

بلادنا ، ويجرى فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وأن يبعث لنا من مضي من آبائنا ، وليكن ممن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيحا صدوقا ، فتسألهم عما تقول حق هو ؟ فإن صنعت ما سألتك صدقتك وعرفنا به منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولا كما تقول :

— ما بهذا بعثت إنما جئكم من عند الله سبحانه بما بعثني به ، فقد بلغتكم ما أرسلت به فإن تقبلوا فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه أصبر لأمر الله .

— فإن لم تفعل هذا فسل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك ، وسله فيجعل لك جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك ، فإنك تقوم في الأسواق وتلتبس المعاش .

— ما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله تعالى بعثني بشيرا ونذيرا .

— فأسقط علينا كسفا من السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل .

— ذلك إلى الله إن شاء فعل .

فقال قائل منهم :

— لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا .

وقال عبد الله بن أمية المخرومي ابن عاتكة بنت عبد المطلب عمته — عليه السلام — :

— لا أؤمن بك أبدا حتى تتحد إلى السماء سلما وترقي فيه وأنا أنظر حتى تأتينا ، وتأتي بنسحة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك أدلك كما تقول .

فانصرف رسول الله — عليه السلام — إلى أهله حزينا ، فابن حالته المصر بن

الحارث يسخر منه ، وها هو ذا ابن عمته يناصبه العدا ، وعمه أبو لهب قد انضم إلى الكافرين برسائله ، ويأليه نصره كعمه أي طالب دون أن يدخل في دين الله . بل إنه يسير حنيفة حتى إذا ما وقف يدر الناس بصحهم عمه بأن ينفصوا من حوله لأنه مجنون !

إن من اتبعوه يعدون ليفتوا عن دينهم ، وهو يرى ما ينزل بهم من اضطهاد فيعتصر قلبه حزنا عليهم دون أن يستطيع أن يرفع عنهم آلام العذاب . إنه يأمرهم بالصبر حتى يأتي الفرج من عند الله ، وإنه ليصبر على ما يقول قومه وإن كان ليحزنه ما يقول فهم يهتمونه بالسحر والكهانة والحنون بعد أن لبث فيهم سنين وعرف بهم بالأمر .

كان الأسى يلفه ، وكانت خديجة الطاهرة وسيدة ساء قريش تبذل كل ما في طاقتها من حنان لتسح عنه الأحران ، وكانت تواسيه لا تبخل بما لها ولا بعواطفها بل تنفق كل شيء يسحاء لتأيد زوجها الكريم في إندار الناس وتبليغ رسالات ربه ، كانت حديجة النسم لحراح نفسه ، الملاح بعد الله إذا ما ضاقت الدنيا واشتد الكرب وانهمرت الدموع .

وكان دائم الأحران فابنته زينب قد آمت بالله ولكنها تعيش في كنف ابن خالتها هالة بنت حويلد الذي لم يشرح الله قلبه للإسلام ، فلو أن زوجها أبا العاص بن الربيع يحبب فهي تعيش بين أناس كافرين ما أكثر ما يلمزونها ويحيلون حياتها التي كانت هادئة هانئة إلى عذاب أليم ، وابنتاه العزيزتان رقية وأم كلثوم قد طردتا من بيت عمه أي لهب بعد أن نزل القرآن بهجاء عمه وأمراته أم جميل . ولو أن عثمان بن عفان قد تروح رقية وحقق حلمه الذي كان يهوى إليه إلا أنهما لم ينعمما بما كانا يرجوان من سعادة واستقرار ، فقد صاراهما السخرية بى أمية وتحقيرهم ، وابن عمه

أبو سميان بن الحارث شاعر بني هاشم ، بعد أن مات الربير من عبد المطلب من كان يحبه من كل قلبه ولا يطيق فراقه ، فد وقع الحفاء بينهما ، بل إن ابن عمه لم يكتف بالقطيعة بل أعلن عداوته كما أعلنها من قبل النصر بن حالته وعبد الله بن أبي أمية ابن عمته عاتكة .

وراح يعكر فيما نزل بأتباعه من ألوان الاصطهاد . فاضت روح ياسر وروحته سمية ، وعذب حباب بالنار ، وعذب الربير بن العوام بالدخان ، وقرن أبو بكر وطلحة وصرى بضرباً مبرحاً ، وداق بلال الأهوال ، واضطر عمر بن ياسر أن يعطى معديه ما يريدون بلسانه وقلبه عامر بالإيمان ، ولم يحتمل صعاف النفوس العذاب فارتدوا إلى الكفر بعد الإيمان .

إنه رأى في منامه أنه سيهاجر إلى أرض ذات محل ولا يحسبها إلا يثرب ، وقد قص على أتباعه رؤياه فكانوا يهرعون إليه بعد ما ينزل بهم من عذاب ويقولون متى نخرج ؟ فيقول لهم في أسى وصدق إنها رؤيا رآها وأنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه .

إن سادات قريش قاسية قلوبهم ، وإنهم ليتفمنون كل يوم في ألوان الاصطهاد الذي يبرلونه بمن شقوا عصا الطاعة وخرجوا على الجماعة ، وقد صارت العداوة صارية بينهم وبين المسلمين في مكة حشية أن تتقل دعوة أبي القاسم إلى القبائل فيصعب عليهم إخمادها ، فكانوا ينتشرون في مكة كلها ليشوهوا دعوته ، وإنهم ليطمون هجاءه ويحفظونه للصبية لينشدوه خلفه أيها سار .

وعكر في عمه حمزة بعد أن شرح الله قلبه للإسلام ، إنه فتى قريش وأعز فرسانها ، وقد امتنعت قريش عن إنزال الأذى به بعد أن أعلن عمه على الملأ أنه على دية . ولكن ماداً يستطیع حمزة أن يفعل وحده ليرغم القبائل على



أن تكف عن إنزال العذاب بالمستضعفين من المسلمين ، وطاف بدمه عمر بن الخطاب ، إنه قوى وهو عدو لدود للإسلام ولكن معدنه طيب .  
فلو شرح الله قلبه للإسلام لكان ذلك نصرا لدين الله ، فراح عليه السلام ينهل إلى الله في حرارة أن يؤيد الإسلام بعمر .

ورن في أذنيه بعض ما قال له الكافرون : سل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك ... سل ربك فيجعل لك جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة .. ﴿ لن يؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ فأطرق عليه السلام أسيفا ، وإذا بالروح الأمين ينزل عليه بآيات من ربه : ﴿ وقالوا لن يؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا \* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالثقة قيلا \* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن يؤمن لربك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا \* وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا \* قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا \* قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خيرا بصيرا ﴿ (١)

وغسل الوحي ما كان في نفس رسول الله ﷺ — من أحزان ، وربما

و قلبه إشراق الأنوار وزاده إيمانا على إيمان ، فخرج إلى قومه يدعوهم إلى الهدى بعزم جديد فأداهم لا يتمكنون عن ترديد ما قالوه كلما أنذرهم :  
— يا محمد ، والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنتك رسوله .

وإذا بالقرآن ينزل على رسول الله عليه السلام ليدحض حججهم : ﴿ ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لنقضى الأمر ثم لا ينظرون \* ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسا عليهم ما يلبسون \* ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون \* قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين \* قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ (١) .

وكانوا يصعدون إلى القرآن وهم في عجب من أمره ، وكانوا يستشعرون نفس ما أحسه عتبة بن ربيعة لما ألقى سمعه إلى رسول الله عليه السلام ، ولكهم كانوا يستكبرون ويرتحقون فرقا من ظهور الإسلام تخشية زوال سلطانهم على الأرض وشفقة من أن تذهب مكانة مكة الدينية فيذهب ريحهم ويذوب شرفهم ، فمجددهم كله مستمد من أنهم حدام بيت الله ، فلا جرم أنهم طلبوا ألد الخصام لرسول الله وإن سحرهم بيان الذكر العظيم .

ولم يتركوا أى مظهر من مظاهر ما حيل لإداهم أنه ضعف دوا

يسددوا إليه سهامهم . كان محمد عليه السلام قد هجر التجارة وأعرض عن جمع المال لما سلك سبل ربه ، وكانت خديجة قد أنفقت أموالها حيا لله ، وقد زهد في كنوز الأرض من اصطفاه ربه لرسالته وروحه الطاهرة سيدة نساء قريش بعد أن عرفا كنوز السماء وذاقا لذة الهل من حرائس الملكوت ، ولم يهتد كفار قريش المشدودون إلى الأرض الذين يعبدون الذهب والفضة إلى تلك الرفعة التي سما إليها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، فجاءوا إليه فقالوا :

— يا محمد ، إنا قد علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعو إليه الحاجة ، فحس نجعل لك نصيبا في أموالنا حتى تكون أعمام رجلا وترجع عما أنت عليه .

كانوا لا يرون إلا ملكوت الأرض وكانوا يعيدون كل البعد عن ملكوت السماء ، فكانوا يحسبون أن النفس لا تهتل إلا للقوة والمال واللذة الحسدية ، فكانوا يحاولون أن يغروه بالملك والسيادة والسلطان والأموال الممدودة . وقد عرضوا عليه أن يزوجه ما يشاء من النساء وكانوا يعجبون لرفعه كل ما قدموه إليه من مغريات ولا يفقهون سبب إصراره على أن يسير في دعوة لن تجلب له إلا المتاعب والعداوات .

في سبيل أي شيء يضحي بهاء الدنيا ؟ إنهم لا يرون ما يستحق كل هذه التضحيات لأن قلوبهم التي في الصدور قد عميت ، أعمأها الحسد والاستكبار . وقد نزل القرآن يوضح الأمر لقوم يعقلون : ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾ قل أغير الله أتحد وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكون من المشركين \* قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم

عظيم \* من يُصرف عنه يومئذ فقد رجمه وذلك القور الميئس \* وإن يمسسك الله بصر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بحجر فهو على كل شيء قدير \* وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴿١﴾

ودخل رسول الله ﷺ — لحرم فرأى خمسة نفر من سادات قريش جالسين ؛ كانوا عبد الله بن أبي أمية المخزومي ابن عمته والوليد بن المعيرة ومكرز بن حفص وعمر بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر ، فذهب إليهم يدعهم إلى الهدى وقد شجعه أنه كان يطمع في إسلام الوليد بعد أن جلس إليه كثيرا واستمع منه كثيرا ورق للقرآن قلبه حتى قال كفار قريش : قد صبا الوليد .

وجلس عليه السلام يحدّثهم ويعرض عليهم الإسلام ثم قرأ عليهم القرآن فإذا هم يختشعون ، وكانما حشوا الاستسلام لذلك السحر فقالوا مستهزئين :

— أت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى .

فقام عنهم رسول الله ﷺ — وقد أحزنه الذي يقولون ، فحتى متى يقول لهم إلههم يعبدون من دون الله ما لا يصبرهم ولا ينفعهم وحتى متى يقولون له عن اللات والعزى ومناة وأصنامهم : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » . إنهم لم يكتفوا بذلك اللغو بل إنهم يطلبون منه في سحرية أن يأتي بقرآن فيه ما يسألونه كأنما القرآن من عنده وليس من عند العليم الخبير .

ولم يطل أساء فقد نزلت آيات في المستهزئين تقرأ في المحاليس ﴿٢﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا أت بقرآن غير هذا أو

بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسه إن أتبع إلا ما يوحى إلى أبى  
أحاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم \* قل لو شاء الله ما تلوثه عليكم ولا  
أدراككم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون \* فمن أظلم ممن افترى  
على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفتح المحرمون \* ويعبدون من دون الله ما  
لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا  
يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿١﴾ .

#### ٤

المسئون تمر ورسول الله ﷺ — يدور على مجالس قريش يدعوهم  
إلى الإسلام فيلقون إليه أسماهم مرة ويعرضون عنه مستهزئين مرات ،  
والرسول صلات الله وسلامه عليه صابر يصدع لأمر الله ويلقى من  
عطف حديجة ورعايتها وتشجيعها ما يسسه قسوة ما يتحمل من آلام .

كان المسلمون يزدون بيد أنهم يريدون بالآحاد ، لم يدخل الناس في  
دين الله أهواجا . وكان المستضعفون منهم يقاسون الاضطهاد ويذلهم  
العذاب ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم  
عن دينهم . ومع الله رسوله معهم بعمه أبى طالب ، وقد قام أبو طالب حين  
رأى قريش يصنعون ما يصنعون في بنى هاشم وبني المطلب مدعاهم إلى ما  
هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه وقاموا معه  
وأجابه إلى ما دعاهم إليه إلا ما كان من أبى لهب فقد انصم إلى بنى أمية

رهنه زوجته أم جميل في عداوتهم لابن أخيه .  
فلما رأى أبو طالب من قومه مأسره في جهدهم معه وحدهم عليه ،  
جعل يمدحهم ويذكر قديهم ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم ومكانه  
منهم ليشد لهم رأيهم وليحدبوا معه على أمره ، فقال :

إذا اجتمعت يوما قریش لمفخر  
فعبد مناف سرها وصميها  
وإن حصلت أشراف عند منافها  
ففى هاشم أشرافها وقديها  
وإن فخرت يوما فإن عمدا  
هو المصطفى من سرها وكرميها  
تساعت قریش غنها وسميها  
علينا فلم نظفر وطاشت حلومها  
وكننا قديما لا نقر ظلامه  
إذا ما أنوا صفر الحدود نقيمها  
ونحى حماها كل يوم كريمة  
ونضرب من أبحارها من يرومها (١)  
بنا انتعش العود البداء وإما  
باكتاف تدي ونحى أرومها (٢)

وراح رسول الله ﷺ — يدعو قومه وهو في منعة من بني هاشم  
وبني المطلب وإن لم يتبعوه على دينه ، فقد كان له على عشيرته حق الحماية

(٢) أصوها العريقة .

(١) بقصد : من يريد بها بشر

وإن سغه الأحلام وخالف دين الآباء .

وكان أعداؤه في حيرة من أمره ، وأمر ذلك القرآن الذي ينزل عليه من السماء فما كانوا بقادرين على أن يهتموه بالكذب بعد أن مكث فيهم عمرا من قبل وعرفوه بالصادق والأمين ، مكابوا يقولون مرة إنه شاعر على الرغم من علمهم بأن ما أوحى إليه ليس بالشعر ، ويقولون تارة أخرى كاهن وإن لم يكن في القرآن سجع الكهان . ويقولون أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليهم بكرة وأصيلا . فكان القرآن الكريم يرد كيدهم إلى محورهم : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون \* وما لا تبصرون ﴾ إله لقول رسول كريم \* وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون \* ولا بقول كاهن قليلا ما تدكرون \* تنزيل من رب العالمين \* ولو تقول علينا بعض الأقاويل \* لأخذنا منه باليمين \* ثم لقطعنا منه الوتين \* فما منكم من أحد عنه حاجزين \* وإنه لتذكرة للمتعقين \* وإنا لنعلم أن منكم مكذبين \* وإنه لحسرة على الكافرين \* وإنه لحق اليقين \* فسيح باسم ربك العظيم ﴾ (١) .

وامتدح رسول الله يدور على نوادي قومه . برتل آيات ربه : ﴿ ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير \* ألا تعبدوا إلا الله إني لكم منه نذير وبشير \* وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير \* إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴾ (٢)

وفيما هو في عدوه ورواحه في الحرم رأى الأحنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المظر ، فجلس إليه عليه السلام وجعل يعظه

والأحنس يصعق في اهتمام ويظهر لرسول الله ﷺ — ما يسره وإن كان يضمير في قلبه خلاف ما يظهر ، فما قام عليه السلام عنه نزل عليه الوحي يفضح أمر الأحنس : ﴿ ألا إني يشون صدورهم ليستحموا به ألا حين يستمشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه علم بذات الصدور ﴾ (١) .

وكان عذاب المستضعفين لا يحبو له أوار ، وكان الحدل شديدا بين الرسول صلوات الله عليه وبين الكافرين ، فما من آية من آيات القرآن تنزل عليه إلا ويجادلونه فيها محاولين أن يجدوا ثغرة ينفذون منها للطعن في ذلك الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .  
جاءوا إليه يقولون :

— تزعم أنك نبي يوحى إليك وأن سليمان سخر له الريح وأن موسى سخر له البحر وأن عيسى كان يحيى الموتى ، فادع الله تعالى أن يسير عنا هذه الجبال ويمجر لنا الأرض أنهدا فتتخذها محارث ومرارح ونأكل ، وإلا فادع الله تعالى أن يحيى لنا موتنا فكلهمم ويكلموننا ، وإلا فادع الله تعالى أن يصير هذه الصحرة التي تحتك دهباً فسحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف ، فإنك تزعم أنك كهيتهم .

فيا هم حوله والمسلمون يرمقونه في ثقة إذ نزل عليه الوحي فتهللت وجوههم باليشر ، فقد كانوا على يقين من أن رهم يوحى إلى رسوله الكريم فصل الخطاب ، فما سرى عنه راح يتلو : ﴿ ولو أن قرآنا سیرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل الله جميعاً أعلم بئاس



الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دراهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد \* وقد استهزئ برسول من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴿١﴾ .

كان الوحى ينزل عليه وهو بين الناس وهو على راحلته وهو فى بيته ، فما كان ينطق عن الهوى ، فبينا كان رسول الله ﷺ — بفناء بيته بمكة جالسا إذ مر به عثمان بن مظعون فرج إلى البى — ﷺ — فقال له : — ألا تجلس ؟ —

— بلى . —

فجلس عثمان بن مظعون إليه مستقبلة ، فبينما هو يحدثه إذ شخص بصره إلى السماء فظفر ساعة وأخذ يضع بصره حتى وصح على عتبة فى الأرض ، ثم تحرف عن جلسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينفض رأسه كأنه يستنقه ما يقال له ، ثم شخص بصره إلى السماء كما شخص أول مرة فأتبعه بصره حتى توارى فى السماء ، وأقبل على عثمان كجلسته الأولى فقال عثمان :

— يا محمد ، فيما كنت أجالسك وآتيك ما رأيته تفعل فعلتك العداة .

— ما رأيته فعلت ؟

— رأيته شخص بصره إلى السماء ثم وصعته حتى وضعته على يمينك ، فتحرفت إليه وتركتنى فأخذت تمض رأسك كأنك تستنقه شيئا

يقال لك .

— أو فطنت إلى ذلك ؟

— نعم .

— أتاني رسول الله جبريل عليه السلام آنفا وأنت جالس .

فماذا قال لك ؟

— قال لي : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ <sup>(١)</sup> .

فأحس عثمان بن مظعون الإيمان يستقر في قلبه ، وحب محمد ﷺ يملأ أقطار نفسه .

كان إسلام فرد يدحس السرور على قلبه عليه السلام ، وكان يفرح لخروج إنسان من الظلمات إلى النور ويرجو من كل قلبه أن ينتشل قومه من الجهالة التي يضربون فيها وأن يقودهم إلى الصراط المستقيم . وكان يحزن أشد الحزن لإعراض الناس عنه حتى إن الله أنزل عليه : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وكانت المناقشات محذمة بين الرسول عليه السلام وسادات قريش . كان يطمح في أن يشرح الله قلوبهم للإسلام وكانوا يطمعون في أن يشتوه عن دعوته التي سفهت أحلامهم وغابت دينهم وكادت أن تطوى الأرض من تحت أقدامهم ، وكانوا مناهيين للتنازل عن غلوائهم وأن يسيروا معه شوطا على أن يسير معهم شوطا ويكف عن صلابته في دعوته ويجعل لآلتهم نصيبا مع إلهه ، فكانوا يلبثون له لعله يركن إليهم ويجنح للمهادنة

والسلام .

و ذات يوم جلس مجلسا فيه ناس من وجوه قريش منهم أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خنief والوليد بن المعيرة ، وجعل يقرأ عليهم القرآن ويعرض عليهم الإسلام ثم يقول لهم :

— هل ترون بما أقول بأس ؟

فقالوا :

— لا .

ورأى منهم مؤانسة وطمع في إسلامهم فراح يحدثهم ، فجاء عبد الله ابن أم مكتوم ابن حالة خديجة سيدة نساء قريش يقوده غلام ، فقد كان أعمى ، فصار يقول :

— يا رسول الله علمني مما علمك الله .

فشق عليه — ﷺ — ذلك وأشار إلى قائد ابن أم مكتوم بأن يكلمه عنه حتى يفرغ من كلامه ، فكفه القائد ، فدفعه ابن أم مكتوم وقال :

— استدني يا محمد — أرشدني يا محمد .

فعبس — ﷺ — وأعرض عنه مقبلا على وجوه قريش ، فعاتبه الله تعالى في ذلك : ﴿ عبس وتولى \* أن جاءه الأعمى \* وما يدريك لعله يركى \* أو يدكر فسمعه الذكرى \* أم من استغنى \* فأنت له تصدى \* وما عليك ألا يركى \* وأما من جاءك يسعى \* وهو يحشى \* فأنت عنه تنهى ﴾ (١) .

وهرع رسول الله — ﷺ — إلى من عاتبه فيه ربه وأقبل عليه يعلمه مما

علمه الله ، ويرشده إلى الحق حتى أصابت بالأنوار بصيرته : وأسلم ابن حالة حديجة ، وقد فرحت الظاهرة لإسلامه وإن كانت تسمى أن يشرح الله إلى الإسلام صدر ابن أخيها حكيم بن حزم .

كانت دار الندوة بيد حكيم وكان يفعل المعروف ويصل الرحم ويتصدق ويعالج البر ، وكان رجلاً تاجراً يخرج إلى اليمن وإلى الشام في الرحلتين فكان يربح أرباحاً كثيرة فيعود على فقراء قومه ، وما كان يعبد شيئاً ، يريد بذلك شراء الأموال والمحبة في العشيرة . وكان يحضر الأسواق ، وكان محدوداً في التجارة ما باع شيئاً قط إلا ربح فيه ، وكان من المطعمين وكان راجع العقل فدخل دار الندوة وهو ابن خمس عشرة سنة ، ولم يدخل دار الندوة للرأى أحد حتى يبلغ أربعين سنة ، فلو أن حكيم بن حزام قد دخل في دين الله لتبعه ناس كثيرون ولخضد<sup>(١)</sup> ذلك من شوكة سادات قريش الخائفين على الدعوة الجديدة .

كانت حديجة ترجو إسلام حكيم ابن أخيها فهي تحبه حباً صادقاً وتتمنى أن تخرجه عن النار ، وكان رسول الله ﷺ — يرجو إسلام عمر ابن الخطاب فهو وإن كان يبدو قاسياً في اصطهاد المسلمين فما ذلك إلا لانه قوى جبار معتد بشخصيته مؤمن بدينه ، فلو أن الله شرح صدره للإسلام لساند دين الله بشجاعة المؤمنين ، فالؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف .

كان عمر بن الخطاب وشباب بيوت شرف قريش يزلون صنوف العذاب بالمسلمين ، وكان الحوار حاراً بين رسول الله ﷺ وبين

(١) مخضد الشجر : قطع شوكه .

وجوه قريش ، فكثيرا ما كانوا يجتمعون به في الحرم يصفون إلى القران ويسخرون منه ويستهزئون به ، حتى إذا نزل الوحي بالحجج الدامعة وضيق عليهم الخناق كانوا يهرعون إلى دار أبي طالب يسألونه أن يحضر لهم ابن أخيه ، حتى إذا ما حصر شكوه إليه وسألوه أن يجيبهم إلى أمر فيه الألفة والإصلاح .

وكانوا يعاتبون الرسول ( صلوات الله وسلامه عليه ) على تسفيه أحلامهم وأحلام آبائهم وعيب آهنتهم ويعرضون عليه المال والشرف والملك والطب ، فما كان ذلك كله ليعرى رسول الله — ﷺ — فقد أمر أن يكون لهم بشيرا ونذيرا .

إنه صامد صابر لا يتزحرح عن دعوته لا يثنيه عنها وعيد ولا يفلح فيه تهديد ولا يسيل لعابه للأموال ولا للملك والسلطان ، فأيس أشراف قريش من أن يردوه إلى ديبهم فرأوا أن يدخلوا معه في مساومة ، أن يقبل أن يتقى بهم في منتصف الطريق . فانطلق الأسود بن رمعة والوليد بن المعيرة وأمية بن حلف والعاص بن وائل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبو جهل إلى منزل أبي طالب وسألوه أن يحضرهم ابن أخيه ، فأرسل إليه فجاء عليه الصلاة والسلام مسرعا طمعا في هدايتهم ، حتى جلس إليهم فعادوا يعرضون عليه الأموال والشرف والملك فقال :

— ما حجت بما جئتمكم به أطلب أموالكم ولا الشرف بكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا .

فقال عتبة بن ربيعة :

— إن كان ما بك الباه فاختترأى نساء قريش فنزولك عشرا .  
— ارجع إلى ديننا واعد آلهتنا واترك ما أنت عليه ونحن نتكفل بكل ما  
تحتاج إليه في دنياك وآخرتك .

كمار قريش يتكفلون لرسول رب العالمين بكل ما يحتاج إليه في  
آخرته ، لم تكن لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإياها لا تعمى  
الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، فقال رسول الله عليه  
السلام :

— بلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، وإن تقبلوا مني ما جئتكم به  
فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى حتى  
يحكم الله بيني وبينكم .

رفض الأموال والملك ولذات الأرض ، رفض أن يعود إلى الظلمات  
بعد أن أشرق قلبه بنور ربه ، فقالوا له :

— إن لم تفعل فإننا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح .  
— وما هي ؟

— تعبد آلهتنا اللات والعزى سنة ونعبد إلهك سنة ، فنشترك نحن وأنت  
في الأمر ، فإن كان الذي تعبده خيرا مما تعبده كنت قد أحدثت معه  
محظك ، وإن كان الذي نعبد خيرا مما تعبد كنا قد أخذنا منه بحظنا .

وأصبح محمد — ﷺ — سيد الموقف ، صارت له الكلمة العليا ،  
فقد قبلوا أن يشركوا الله مع آلهتهم ولكنه لم يقبل أن يشرك آلهتهم مع الله ،  
ارتضوا المساومة فكان ذلك بداية الانهيار وإن ركبوا رعو سهم وحاربوا  
الإسلام في صراوة ، وقد تهادوا في التنازل فقلوا :

— اعد معنا آلهتنا يوما نعبد معك إلهك عشرة ، واعد معنا آلهنا شهرا

لعبد معك إلهك سنة .

وأنى رسول الله ﷺ — أن يقبل ذلك الشرك وقد جاء لمحق  
الشرك . وغادر دار عمه أبى طالب وهو الأعلى م يتزحزح عن دعوة ربه  
قيد شعرة ، فهو على هدى من ربه وعلى يقين من أن حزب الله هم  
العالمون .

وانطلق سادات قريش يرهق وجوههم قتر وذلة كأنما أغشيت  
وجوههم قطعا من الليل مظلماً وضل عنهم ما كانوا يفتنون ، جاءوا  
يلتمسون من يتيم قريش أن يكف عن عيب آلهم لقاء الأموال والملك  
والنساء وليعود إلى ملة آبائه ، فلما أعرض عنهم عرضوا عليه أن يعبدوا إلهه  
شهرأعلى أن يعبد آلهم يوماً وكانوا يحسبون أن سيشكرهم ذلك الكرم ،  
فإذا به يذلهم بالرفض بعد أن أذلوا آلهم وأنفسهم بالعرض المهين .

وعادوا إلى مجالسهم في الحرم وقد أطرقوا برعوسهم يفكرون فيما قرأ  
عليهم سليل بنى هاشم : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك  
السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن  
يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ فذلكم الله ربكم الحق فماداً بعد  
الحق إلا الضلال فأئني تصرفون ﴾ كذلك حقت كلمة ربك على الذين  
فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله  
يبدأ الخلق ثم يعيده فأئني توفكون ﴾ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق  
قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم لا يهدي إلا أن يهدي  
فما لكم كيف تحكمون ﴾ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى عن  
الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون ﴾ وما كان هذا القرآن أن يعترى من دون  
الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب

العالمين \* أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين \* بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين \* ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين \* وإن كذبوك فعلى عملى ولکم عسکم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون \* ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون \* ومنهم من يطرر إليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون \* إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿١﴾ .

كان القرآن يرن في أغوارهم رهسا يحرك لعجب في نفوسهم ، وكانوا يستشعرون ضآلة شأنهم كلما ألقوا سمعهم إلى آى الذكر الحكيم . ولكن سرعان ما يثور حقدهم وتتحرك كبرياؤهم ويستولى عليهم غرورهم فيلجأوا في النكران البغيض .

ودخل رسول الله ﷺ — الحرم ثابت الخطو مرفوع الرأس وحلس يقرأ في شجاعة منقطعة النظير : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم \* قل يأيتها الكافرون \* لا أعد ما تعبدون \* ولا أنتم عابدون ما أعبد \* ولا أنا عابد ما عبدتم \* ولا أنتم عابدون ما أعد \* لكم دينكم ولى دينى ﴾ ﴿٢﴾ .

واربدت وحوه الكافرين وانتقع لونهم وهم يتميزون غيظا من ذلك الأعزل من كل سلاح الذى يلقى لى وحوههم بذلك القول العليظ . ولم يعطنو إلى سر تلك القوة فما كانوا يتصورون أن فردا واحدا مهما منعتة عشيرته مستطيع أن يقف فى وحه قومه ، إنه أهلها حربا لا هوادة فيها فى



سبيل الله حتى يحكم الله بينه وبينهم وهو خير الحاكمين .  
 إنه لم يكنف بأن يقول : لا أعيد ما تعيدون . بل راح يكرر في توكيد  
 أهم لم يعيدوا ما يعيد لأنه لم يعيد أبداً لهم لا شهراً ولا يوماً ولا صرفة  
 عين . إنه تحداهم على الملأ من تكوب مهادة بعد اليوم ، ولن يرحموه ولن  
 تأخذهم رأفة في أصحابه بل غلظة وقسوة وعذاب وإسراف في الطعنان  
 والتكليل حتى يعود الصائون إلى دين الآباء صاعرين . ومكروا ومكر الله  
 والله خير الماكرين .

٥

كان القمر في السماء هلالاً والمشاعل تنير طرقات مكة فتحيل الليل  
 مهراً ، والناس في عدو ورواح بين الدور والحرم حيث أناحت الروح  
 فقد وافى الموسم وراح المكبون يتأهبون للخروج إلى الأسواق .  
 كان العيد يحملون التحارة من محازن التحار إلى ظهور الحمال ،  
 والرجال والنساء والصبيان يتدفعون كالروافد من شعاب أم القرى  
 وفجاجها ليصبوا في البيت العتيق حيث اجتمع لناس ، وراح بعضهم  
 بموح في بعض حادين وعابئين قد انعكس في الأعين قبض القلوب ، وراح  
 أناس يتدافعون بالمناكب لدخلوا إلى حوف الكعبة ليصربو بالقداح عند  
 هبل لاستشدرته في الخروج ، وراح آخرون يتمسحون بأصنام الآهة ،  
 بينا الأيسار الذين تأهبوا تقصية النيل في لعب القمار كانوا يدبحون الحرور  
 بين إساف ونائلة .

وحارح الحرم بائعات الله ، وكن فتيات سادات هريش يجمع  
 ( عام الحرن )

الأموال من البغاء ثم يحملنه إلى صناديق الرحال المتعطشين إلى الأموال  
الدير ما كانوا يجمعون من أين جاء الذهب والفضة والورق ما دامت  
الثروات تتدفق إلى خزائهم .

وفي خيام البغايا قدمت الخمر التي جلبت من الشام ، ومنها حلجنت  
صحكات الماخنين حتى عطت على أيمن الأرقاء الذين كانوا عادين راتحين  
كالذباب يحملون تحارة السادة والسياط تلهب ظهورهم ، وأصوات  
الرجح تمرق آذانهم وتنزل الرهبة في قلوبهم :

ويم وجوه قريش إلى حى بى مخزوم وقد لاح الهم في العيون ، فقد  
تواعدوا على أن يجتمعوا إلى الوليد بن المعيرة ليتشاوروا فيما يفعلونه في  
الموسم ، ولم يكن ذلك الموسم كغيره من المواسم بل كان ذا شأن جليل ،  
فمحمد بن عبد الله سيعرض ما جاء به على القبائل فإن حلوا بينه وبين  
العرب فقد يسحر الناس بقرانه فيؤمنوا به ويحذ بيهم أنصارا ينصرونه  
فيخرج الأمر من بين أيديهم وفي ذلك خطر عليهم عظيم .

واكتمل عندهم فقام الوليد فقال :

— يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستفد  
عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا  
تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا .

قالوا :

— فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به .

— بل أنتم بقولوا أسمع .

— نقول كاهن .

— لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمرة الكاهن ولا

سجعه .

— فنقول مجنون .

— ما هو مجنون ، لقد رأينا الخيون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تحالجه ولا وسوته .

— فنقول شاعر .

— ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهرجه وقريضه ومقبوضه وميسوطه فما هو بالشعر .

— فنقول ساحر .

— ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فلا هو بفثته ولا عقده .

— فما تقول يا أبا عبد شمس ؟

— والله إن لقوله للحلاوة وإن أصله لعدق<sup>(١)</sup> وإن فرعه لجناه ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته .

ودهب أبو بكر وعثمان وطلحة وعمار بن ياسر وبلال وسعد بن أبي وقاص والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان بن مطعون وعبد الله بن مسعود والمسلمون إلى دار نخبجة وقد عزموا على أن يحرسوا رسول الله ﷺ — خشية أن يعتاله أعداؤه في الموسم في سوق من الأسواق ، فقد بدت العداوة من أفواههم وما تخفى صدورهم أعظم .

(١) العدق : الحلة ، يشبه بالحلة التي ثبت أصلها وقوى وطاب فرعها إذا

وحرحت قريش إلى سوق حجة وكانت قرية من مكة وأشياحها  
يختلسون النظر إلى محمد عليه السلام وصحبه كأنما يعدون عليه أنفاسه ،  
وكان عمه أبو لهب أكثرهم مراقبة له فهو قد بيت العرم على أن يفض الناس  
عنه إذا ما اتفوا حوله وتأهوا بالإصغاء إليه . واطلقت القافلة تحمل  
الكافرين الذين اتفقوا على أن يرموا رسول الله — ﷺ — بالسحر والدين  
أنزل الله فيهم . ﴿ كما أنزلنا على المفتسمين ﴾ الذين جعلوا القرآن عصين \*  
فوربك لسنألهم أجمعين \* عما كانوا يعملون ﴿ (١) . وتحمل فئة قليلة  
مؤمنة برها وصعت كل آماها في رسوله الذي أخرجهم من الظلمات إلى  
النور :

كانت قريش عية بأموالها عية برحالها معتررة بمكاتها في العرب ، يبا  
كان محمد — ﷺ — وصحبه فقراء في المال أعياء يور الله الذي أشرق في  
قلوبهم أقوياء بالله رب العالمين ، فكان أشراف قريش شامحين بأبوفهم شأ  
أخاهلين ، وكان عليه السلام وصحبه من المؤمنين متواضعين لله شأ  
المتقين .

وبرلت قريش في حجة وقد أقيمت الخيام وراح الناس يردون الماء تأهبا  
لأيام السوق العشرة ، ودخل رسول الله — ﷺ — القفة وقد أحاط بها  
صحبه يجرسوها فقد كانوا يحشون قريش وما أكثر من اعتناهم العذر في  
الأشهر الحرم .

وأمتت السوق عاصة بأهل العداوة والمبادأة لرسول الله — ﷺ ،

---

(١) الحجر ٩٠ — ٩٣ عصير أحرأ ، فقالوا بعصه حق دوافقه لتورة  
والإعجين . وبعصه باطل .

وأصحابه الذين يطلبون الخذل والخصومة ، هراح أبو جهل بن هشام وأبو  
 لهب والأسود بن عبد يعوث والحارث بن قيس بن عدى والوليد بن المعيرة  
 وأمية وأبى ابا حلف وأبو قيس بن النفاكه بن المعيرة والعاص بن وائل  
 والضمر بن الحارث ومنه بن الحجاج وزهير بن أبى أمية وعقبة ابن أبى معيط  
 والحكم بن العاص يرصدون قبة أبى القاسم ، حتى إذا ما حرح منها ليدعو  
 الناس إلى ما جاء به حموا إليهم ليفروهم عنه .

كان رسول الله ﷺ — يفكر فيما يسفى عليه أن يفعله من أحل  
 الدعوة في المرسوم ، فالقائل مستعد من الشمال ومن الجنوب ومن الشرق  
 ومن العرب إلى الأسواق ثم تتدفق إلى البيت العتيق لتأدية مراسك الحج ،  
 وإها لفرصة طيبة أن يعرض بعنه ودين الله على القائل لعل الله يجعل أخذه  
 من الناس تشرق بأنوار الإسلام فيأتى البصر المبين .

إنه ليحس أن في هذه الأسواق ستتألق دعوته ، وأن فيها ستهو قلوب  
 إلى الحق وتؤم بالله وحده وتعز الدين ، ولكنه تذكر أنه وحده ليس معه  
 إلا فئة قليلة من المؤمنين ، وأن أعداءه يتربصون به فمادا يستطيع هو  
 والمستضعفون الذين معه أن يفعلوا أمام ذلك البحر الزاخر من العرب  
 المشركين ؟!

أشفق على نفسه وعلى المستضعفين الذين داقوا صنوف العذب  
 صابرين في سبيل بصرة دين الله . وفيما هو في تدبره وتقديره إذ نزل عليه  
 الوحي : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا  
 بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
 الْكَافِرِينَ ﴾ (١) فأحرح رسول الله ﷺ — رأسه من القبة فقال

لصحبته الذين كانوا يحرسونه :

— أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله .

ثم خرج من القبة مطمئن الفؤاد لا يخشى غدرا ولا غيلة بل يستشعر  
سكينة بعد أن أوحى إليه أن الله كتب على نفسه أن يحفظه ، ووقف ليدعو  
الملا في السوق إلى الإسلام ويتلو عليهم آيات الله البينات ، وإذا بشياطين  
قريش يهرعون إلى من تجمعوا حوله ليفصوهم عنه . فقال أبو لهب :

— هذا ابن أخي .. إنه ساحر كذاب .

فقال عليه السلام :

— ما أنا إلا نذير مبين .

فقال أبو جهل :

— إنه لمجنون .

— إن أتبع إلا ما يوحى إلى .

— بل شاعر شريص بهريب المنون .

وارتفع صوت الرسول عليه صلوات الله وسلامه ببعض أى الذكر  
الحكيم فارتفعت أصوات الكافرين من قريش حتى عطت على صوته :

— هذا سحر مبين

— افتراه .

— إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه ،  
وكفى به شهيدا بيبى وبيكم وهو العصور الرحيم .

وحاول المؤمنون أن يوضحوا للناس حقيقة الدين القويم فإذا بالملا  
الذين استكبروا من قريش يقولون :

— لو كان خيرا ما سبقونا إليه . هذا إلهك قديم

فقال رسول الله ﷺ :

— ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا .

وارتفعت أصوات المكذبين :

— لو شاء ربنا لأرسل ملائكة .

واستمر أعداء رسول الله ﷺ يجاهدون في فض النّس من حوله حتى نَحْجُوا في إعراض الدين جاءوا إلى سوق مجنة عن الهادي الراشد بعد أن رموه بالحنون والسحر والكهانة والكذب وبكل بهتان وزور . ولم يستطيعوا أن يثبتوا على رميه بالسحر وحده كما اتفقوا مع الوليد بن المعيرة مما كان وصفه بالساحر ليحس الناس يعرضون عن سماع قوله الذي يسحر الأبواب ويأخذ بمجامع القلوب .

وانقصت أيام حجة العشرة ولم يخل كفار قريش بين رسول الله ﷺ وبين الملائكة ليلغ رسالات ربه ، فقد استطاعوا بباطلهم أن يقنعوا الناس يكذب أصدق الشر أصدق البشر أجمعين .

وحملت قريش خيامها وتجارها واطلقت إلى سوق عكاظ لتجتمع مع القبائل هناك ، وسار عليه السلام وصحبه وقد صاق صدره عما قال الكافرون وحزن حزنا شديدا لعدم استجابة أحد من الناس لدعوته الصادقة ، وراح يمني النفس بأن تتاح له فرصة مخاطبة القبائل في حرية في عكاظ ثم لهم بعد ذلك أن يقللوا ما جاءهم به أو يرفصوه .

كان كل ما يريده أن يخلي قومه بينه وبين الناس وأن يمنحوه نفس الحق الذي يمح لدى الرأي والشعراء الخاديين والماجيين ورواة الأخبار . فحرية القول مكفولة في أشهر سوق عرفها العرب .

وفي صبح هلال ذي القعدة كان الناس على مراعيهم وراياتهم متحارين

في أسارل يصبط كل قبيلة أسرارها وقادتها ، ويحكم بين الناس في انقضايا حكم تقرر سبطانه القبيلة . وكان لكل حي من أحياء قريش حكم ، فأبو طالب في بني هاشم وأبو سفيان في بني أمية والوليد بن المعيرة في بني محروم والعاص بن وائل في بني سهم وعنتبة بن ربيعة في بني عبد شمس وعمر بن الخطاب في بني عدى ، وقد عزل ولا ريب عن الحكومة في بني تيم أبو بكر مما كان الكافرون يرتضون أن يعصل بينهم من عاب الآلهة وسفه الأحلام وسخر من معتقدات الآباء .

وتحت راية قريش كان الانقسام : فئة قليلة مؤمنة قد أسلمت وجهها لله ليس لها مطمع في الحياة إلا أن تخرج البشرية من ظلمات الجهالة إلى نور الله ، وفئة كثيرة كافرة أبت كبريائها أن تلقى السمع إلى بشر يوحى إليه بل أعرض أكرهم وقالوا :

— قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن يساو بسك حجاب فاعمل إننا عاملون .

وذهب الناس إلى العلات يطوفون بها وينحرون عندها يسأراح محمد عليه السلام وصحبه يصلون لله رب العالمين وراء الرابية التي كانت تطل على السهل المبسط المسيح الذي كان يحقق بقبائل العرب .

وماحت السوق بالتحار والشعراء والبصاري واليهود والمجوس والمشركيين وطلاب اللهو وتجار الرقيق وبائعى الخمر وبائعات الهوى من صاحبات الرايات الخمر والحاسين والدلالين ، وصربت في السوق حلقات كل حلقة منها مثابة سوق قائمة بدنها : حلقة لبيع الإماء والعبيد ، وحلقة للعطاريين ، وحلقة لشراريين ، وحلقة للطرف الفارسية والسحاجيد ، وحلقة لحرير الشام ، وأخرى لمسوحات صف ، وما



غابت سلعة عن السوق .

وضربت للباغية الديباني قبة ، إنها حقة الشعر التى يبرع إليها الناس ويصفون إلى النشيد متشبين فالبلاغة تعمل فى نفوسهم عمل السحر المبين ، وجلس سادات قريش الذين يميزون تعليق جيد الشعر بالكعبة فى صدر المكان فقد بيتوا النية على أن يجعلوا من أيام عكاظ مهراجانا للشعر حتى يحولوا به الأنظار عن محمد بن عبد الله وقرآنه .

وقام شعراء القبائل يتسافسون ، يتبادلون بالألقاب ويتفاصلون بالحقائق ويتفاصلون بالأساطير ويتفاحرون ويتعاضمون ، ونقاطر الساس يسمعون فطاحل شعراء القبائل ويرهقون آداهم للاستمتاع بشعر شعراء قريش الرقيق ، فقد حشدت قريش من الشعراء من يستطيعون أن يجذبوا الناس طوال أيام السوق العشرين .

وبينا الكافرون فى قمة الشهوة جلس رسول الله ﷺ — ومن حوله صحبه الأبرار وراح يتلو بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ قال الملأ من قومه إنا لراك فى ضلال مبين \* قال يا قوم ليس فى ضلالة ولكى رسول من رب العالمين \* أبلغكم رسالات ربي وأصبح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون \* أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ليسدركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون \* فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمنين \* وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴿ (١) .

وجاء الناس إليه يستمعون ، ورأى كفار قريش إقبال الملأ من القائل  
عليه فقاموا إليهم مسرعين ليمصوهم من حوله قبل أن يستولى على أئمتهم  
بسحره المبين ، فلما بلغوهم اندسوا بينهم فقال النصر بن الحارث :  
— ما هذا إلا أساطير الأولين .

وقال أبو لهب :

— إن هذا ابن أحي ، إنه مخنون

فقال رسول الله ﷺ :

— إنما أنا نذير والله على كل شيء وكيل .

وتفرق بين الناس الأسود بن عبد يعوث وأمّية بن حلف وأخوه أبي  
والحارث بن قيس والوليد بن المعيرة ومسه بن الحجاج ورهير بن أمّية وأبو  
سفيد بن حرب وعقبة بن أبي معيط وأهل عداوة رسول الله ليحادلوه  
ويخذلوه ، وجلس عتة بن ربيعة بعيدا يصبر وهو يستشعر صيقا فقد سبق  
له أن عرص على قومه أن يخلوا بين أبي القاسم وبين العرب فإن قتموه فقد  
أراحوهم من عداوة بني هاشم وطبهم بثأره لو أن قرشيا قد قتته ، وإن  
ظهر فعزه عزهم ومجده مجدهم ولكنهم رفضوا رأى الأريب

وقال قائل منهم في سخرية :

— ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان بعيدا أو كم

— إنما تعدون من دون الله أو ثانا وتخفون إفكا .

فسرت رحمة بين الحموع ، ورأى كفار قريش أن يوقدوها ناراً  
فقانوا :

— إنه يسب آلهتنا والمنتكم ويسفه أعلامنا وأعلامكم .

— إلهكم إله واحد لا إله إلا هو ، حال كل شيء فاعبدوه

- واللات والعزى ومناة ١٩ —  
 — أتدعون من دون الله مالا يضرنا ولا ينفعنا ولا يضرنا  
 — أبا لتاركو آلهتنا لشاعر محزون !  
 — يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه  
 ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل .  
 فقال النضر بن الحارث :  
 — اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء  
 أو ائتنا بعذاب أليم .  
 — فليأتنا بآية كما أرسل الأولون .  
 — إنما الآيات من عند الله إنما أنا نذير مبين .  
 — لو لا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك .  
 — لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني  
 ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي .  
 وارتفعت الأصوات تطلب آية ، فراح رسول الله عليه الصلاة  
 والسلام يتلو :  
 — ﴿ وأنقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما  
 الآيات عند الله وما يشعركم أسيها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ ونقلب أفئدتهم  
 وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون \* ولو أننا  
 برزنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا  
 ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴿ (١) .

وأصغى الناس وخشى كفار قريش أن يسحرهم القرآن بحلواته  
فراحوا يتصايحون :

— إن هذا إلا إهلك افتراه .

— إنما أنذركم بالوحي .

— افتراه .. إنما أنت مفتر .

— قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله  
إن كنتم صادقين .

— لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا !

— إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبك الله ويعمر لكم دينكم والله  
غفور رحيم .

— أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذا لفي ضلال وسعر .

— يأيها الناس إن كنتم في شك من دىي فلا أعبد الذين تعبدون من دون  
الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين .

وتولوا وهو يظفر إليهم وقد صاق صدره عما يقولون ، وما لبث أن همس  
في جوفه هامس يتلو آيات ربه : ﴿ ولقد نعم أنك يضيق صدرك عما  
يقولون ﴾ فسيح بحمد ربك وكن من الساجدين \* وعبد ربك حتى يأتيتك  
اليقين ﴿ (١) ، فقال :

حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

وجاء الليل ومدت الموائد في السوق بعد أن طهيت الحورور ودار  
الشراب ، وراحت الفتيات يورعن على الرجال الصحكاب وكشفت

أضواء المشاعل حائلة الأعير ، ثم استحباب الناس إلى نفوسهم الأمانة  
بانسوء فإذا بسوق عكاظ تنقلب إلى مديح للشهوات تقدم إليه الأجساد  
لبصة دون حياة وترافق الفضيلة على أعير الناس ، وقد ذهب السوء إلى  
أحداهم في خطأ ثالثة فالأرواح كانوا على عدم بالعلاقات المقيمة التي كانت  
بين أرواحهم وبين رفقاتهم وما كان هم أن يرفعوا صوت الاعتراض ،  
هذلك شيء تفره تقاليد الجاهلية !

ودهب بسوء للاستبصاع من شاعر نابه أو شريف ذي رأى أو فارس لا  
يشق له عبار أو حكيم من حكماء القبائل ، استحابة لأرواح يحسون أن يتوا  
بدرية نابه لها شأن ! وراح محمد — ﷺ — يظن وهو حرير ، فقومه  
يتحبطون في الظلمات ويرقصون يده التي يمددها إليهم ليحرجهم إلى  
النور ، وفاص أساه حتى بليت عيبه السموع ، ثم راح يتلو قول الله  
تعالى : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾  
وراح يذكر ربه في نفسه تصرعا وحيعة ودون الخهر من القول في  
العدو والآصال حتى لا يكون من العافير

انتهت أيام عكاظ وما حلّى المشركون من قريش بين رسول الله ﷺ  
وبين القبائل ، إذا قام ليعط الناس ويدعوهم إلى الإسلام أسرع أبو هب  
ليقول لئلا الذين تأهبوا لسماعه : « هذا ابن أخي انفضوا عنه إسه  
محون » . واندس أبو جهل والنصر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وأمية  
ابن حلف وأخوه أبي وشياطين قريش بين الناس يعرفهم على ألا يصبتوا إلى

من سب الآلهة وسفه عقول العرب أجمعين ، ويؤلبوهم على من جمع السعهاء حوله والعبيد يقوض سلطان دوى المكانة والشرف يعد أن يرعرع عقائد المؤمنين نأهتهم اندى وجدوا آباءهم ها عابدين .

وانطبق القواهل من سوق عكاظ إلى سوق دى انجار وقد سار رسول الله ﷺ — وصحبه تحت راية قريش ، وكان رسول الله عليه السلام حزينا ، فهو يريد لقومه الهداية فأبوا إلا كهورا ، وعصوه واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وهو يرجو أن يبلغ رسالات ربه حتى يشرق الكون ب نور اليقين ، فكان يصيق صدره بما يقولون ويكتشفه أسى عميق لإعراض الكافرين عن مابغ النور .

كان الدين معه فئة قليلة ولكنها فئة من صموة أحياء قريش ، فمن بنى هاشم جعفر وعلى ، ومن بنى أمية عثمان بن عمان وأم حبيبة بنت أبى سفيان روحة أبى سلمى المخرومى ، ومن بنى تيم أبو بكر وطلحة ومن بنى أسد الربير بن العوام ، ومن البطون الأخرى فتية أموا برهم وادادوا هدى . ولكنه يريد أن يتشغل عمه الحبيب أباطالب من أن يتردى فى نار جهنم وأن يشرح الله قلب عمه أبى لهب للإسلام وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، فهو لا يستطيع أن يسي أن أباطالب قد أعتق جاريته ثوية لما بشرته بمولده .

وابن عمه أبو سفيان بن الحارث تربه وشبيهه ومن كان يألهه إلها شديدا عاداه وهجره وهجا أصحابه وقام فى الأسواق يلقي أشعاره مستهزئا بما جاء به ، إنه يحب ابن عمه من كل قببه ، يحب أن يبقى الله أنوار اليقين فى قواده ليسلك سبل ربه ويفور باهداية والعمور العظيم

وعتية بن ربيعة ، والوليد بن المعيرة ، وأبو سفيان بن حرب ، وابن حالته النصر بن الحارث ، وابن عمته المخرومى وروح ابنته ريب ، وابن

أخت حديجة حكيم بن حرام ، والرحل القوي عمر بن الخطاب ، وفارس  
بني مخزوم خالد بن الوليد ، والشاعر الذي يلقي الصبيان أناشيد هجوه  
عمرو بن العاص ، وطاعية بني مخزوم أبو جهل ، وأميه وأبي ابا حنف ،  
وأبو قيس بن العاكه بن المعيرة ، وانعاص بن وائل ، والأسود بن عبد  
الأسد ، والعاص بن سعيد بن العاص ، والعاص بن هشام ، والحكم بن  
أبي العاص . حيرانه مدني لم يمكنوا عن إيدائه ، ماذا أعلقوا جميعا فلهم  
دون دعوة الحق المبين ؟

إن الصراط مستقيم فلماذا لا يؤمنون ؟ ولماذا يضيق صدورهم حرجا  
بدعوته وما فيها إلا الهدى والرشاد ؟ إنه حزين حتى الموت يحرق في نفسه  
إصرار قومه على أن يتفاحموا في النار وهو بطر لا يملك أن يأخذ بحجرهم ،  
كما حاول أن يحرق بيهم وبين العذاب استهزؤا به ونحوه عن طريقهم  
ليدفعوا في طريق الضلالة في إصرار عجيب !

إنه كلما رأى إعراصهم كان يمتلئ أسفا عليهم ويمزق بقلبه حرد ثقيل  
والمحمص ، حتى أرسل الله عليه : ﴿ طسم ﴾ تلك آيات الكتاب المبين \*  
لعلك باحع نفسك ألا يكونوا مؤمنين \* إن نشأ نزل عليهم من السماء آية  
فقطلت أعناقهم لها حاصعين \* وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا  
كاسوا عنه معرضين \* فقد كذبوا فسيأتتهم أساء ما كاسوا به  
يستهنئون ﴿ ١ ﴾ .

وبلعت قوافل العرب سوق دى الحار فحطت فيها الرحال ، وما وافقت  
مطالع اليوم لأول من دى الحجة حتى التحت السوق بالناس وقامت كل

قبيلة نصلي لإلهها وتدعوه أن يبارك لها في تجارتها ، فما كانت النصة بين الأرباب وعيادها إلا صنة ممعة عاجلة : إطالة الأعمار وبسط الرزق وملء خرائث السادة الذين نصبوا من أنفسهم حماة للأوثان والأصنام .  
 رأى رسول الله — ﷺ — الناس يسجدون لما لا يفعمهم ولا يضرهم وما لا يملكون لأنفسهم شيئا فلم يستطيع أن يسكت على ذلك الصلال ، فقام في السوق فقال :

— يا قوم اعدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تعقلون !

فذهب إليه ناس وقالوا :

— ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله رلفى .

— إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم .

فارتفعت أصوات تعترض :

— لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء .. أتأبنا أن نعبد ما يعد

آبائنا ؟! لو ما أتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين .

— إنما مدر وما من إله إلا الله الواحد القهار ، إن الذين يعبدون من

دون الله لا يملكون لكم رزقا .

وهرع أبو لهب وشياطين قريش إلى حيث التف لاس بالرسول عليه

السلام وراحوا يتصايحون :

— يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك محنون .

— إنما أنا بشر مثكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد .

ثم راح يرتل : ﴿ اقرب لاس حساهم وهم فى عقلة معرضون ﴾ ما

يأتهم من ذكر من رهم محدث إلا استمعوه وهم يعبون ﴾ لاهية قلوبهم

وأسروا الحوى الذين صموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم



تصرون \* قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم \* بل قالوا أصعنا أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون \* ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون \* وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴿١﴾ .  
وأنصتوا حتى كمار قريش ألقوا إليه سمعهم وما لبثوا أن أفاقوا لأنفسهم ، فذلك الإصغاء قد يجعل قلوب العرب تتعاطف مع أي القاسم فقال قائل منهم :

— افتريته .

فقال رسول الله ﷺ في هدوء :

— إن لدين يفترون على الله الكذب لا يفلحون .

— بل افتري على الله الكذب .

— إن افتريته فعلى إجرامي وأنا برىء مما تجرمون .

والتف وجوه الكفار حوله وقالوا :

— يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يعلو فتشتري

هريج ؟ وبالأرض التي يريد أن تجذب فترحل عنها إلى ما قد أخصب ؟

أف لهم ! أيقول لهم إن الذهب وتراب الأرض قد تساويا عنده !

أيقول لهم ما عند الله خير وأبقى وأن نظرة إلى وجه ربه الكريم بالدنيا وما

فيها ؟ أو يفقه المتكالبون على الأموال واللذات المادية أنه زهد في الحياة

الدنيا وزينتها وأنه ما جاء إلا ليعيد للبشرية كرامتها وأن ليس بالخيز وحده

يحيا الإنسان ؟ وفيما هو يفكر إذ نزل عليه الوحي فراح يقرأ على الملأ :

﴿ قل لا أملك لنفسي نقما ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ (١).

وأعرضوا عنه ، وطلبوا منه آية فقال : إنما الآيات عند الله ، وطلبوا منه أن يأتيهم بالملائكة ليشهدوا له فقال لهم : كفى بالله شهيدا بيني وبينكم . ﴿ وقلوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا \* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تصحيرا \* أو تنسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالملائكة قبلا \* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ (٢).

كانوا يعجبون أن جعل الآلهة إلهها واحدا وأن الله بعث بشرا رسولا ، وكانوا ينتظرون أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربهم وما قدروا الله حق قدره وقد عجزوا عن أن يحجروا ذواتهم من ماديته الطاغية وأن يزعموا بوحدهم إلى منابع النور .

وتقضت أيام ذى الحجار الثمانية كما تقضت من قبل أيام محنة وأيام عكاظ . رسول الله يعرض نفسه على القبائل ويتلو عليهم بعض آي الذكر الحكيم وشياطين قريش يحادلوهم ويؤكدون للناس أنه ساحر ومجنون ، ويتحدونه أن يأتي بآية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله .

وانقلب الناس إلى الحرم ليؤدوا مناسك الحج فإذا بالعباس بن عبد المطلب قد وصح أحواض من الأدم فيها ماء قد بث فيه الربيب تشبها بعبد

المطلب ، وإذا بالدقيق واللحوم تورع على فقراء الحجاج ، وإذا بقريش قد  
صبروا في الحرم أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعدوا في آدابها  
الشوف وراحوا يسجدون لها ، فوقف النبي صلوات الله وسلامه عليه  
وقال :

— يا معشر قريش لقد حالتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل ولقد كانا على  
الإسلام .

فقال قريش :

— يا محمد إنما نعبد هذه حبا لله ليقربونا إلى الله زلفى .

ودار الحوار بين رسول الله عليه اسلام وقريش ، ورأى سيد مهم  
الحارث بن عبد العزى زوج حليلة السعدية وكان يعلم مقدار حب ابن  
عبد الله لأمه حليمة وأبيه الحارث وأخواته الشيماء ونفيسة وعبد الله ، فهو  
لا يفتأ يذكرهم بالخير ولا ينسى أيام رصاعته التي أمضاها في بي بي سعد ،  
فحظر له أن يستعين به في إقناع أبي القاسم بالكف عما هو فيه ويقبل ما  
عرصه عليه قومه من أموال وبساء وسيطان ، فذهب إليه وقال له :

— أو تسمع يا حارث ما يقول ابك ؟

— وما يقول ؟

— يرغم أن الله يبعث من في القبور ، وأن الله دارين يعذب فيهما من  
عصاه ويكرم فيهما من أطاعه ، فقد شئت أمرنا وفرق جماعتنا .

فانطلق الحارث إلى رسول الله ﷺ — ، فلما رآه استقبله بالبشر  
والترحاب ودعاه أن يجلس وراح يسأله عن أمه حليمة وعن الشيماء  
ونفيسة وعبد الله بل وعن الجيران ، ويعد أن انتهيا من حديث بي بي سعد قال  
الحارث :

— أى بنى ، مالك ولقومك يشكوكك ويرعمونك تقول إن الناس  
يعثون بعد الموت ثم يصيرون إلى حة وبار ؟  
فقال رسول الله — ﷺ — في رقة :  
— نعم أنا أقول ذلك . ولو كان ذلك اليوم يا أبت فلا أحد بيدك حتى  
أعرفك حديثك اليوم .

واستمر الحارث يصمى إلى رسول الله — ﷺ — وهو يعرض عليه  
القرآن ، ولكن الله لم يشرح قلبه للإسلام فقام وهو يربو إلى ابنه في إشفاق  
ومحمد عليه السلام يستشعر أعماق الأسى لأن الحارث لم يصدقه  
وكان الخمس من أهل مكة يقيمون في قباب من آدم وقد صاموا عن  
أكل الدسم إحلالا للشهر الحرام ، فراح المسلمون يرقوهم وهم بهم  
معجبون ، ثم قالوا لرسول الله عليه السلام .  
— نحن أحق بذلك منهم .

وم يمس عليه السلام برأى بل انتظر وحى الله فما يطق عن الهوى .  
وراح الخمس يكررون للأغنياء الثياب الطاهرة فقد أداعوا بين الناس أن  
الطواف بالحرم لا يجوز في ثياب اقترعوا فيها الآثام ، فكان الأغنياء يلقون  
ثيابهم ويلبسون ثياب الخمس ، وكان الفقراء من رجال ونساء يطوفون  
عراة حتى إن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهى عريانة فتعلق على سفلاها  
سيورا مثل السيور التى تكون على رحوه الخمر من الذباب .

ونزل عليه الوحى فراح يقرأ على المسلمين . وكتاب الوحى على بن أبى  
طالب وأبو بكر وعثمان والريز بن العوام يكتشون : ﴿ يا بنى آدم حدوا  
ريبتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين \*  
قل من حرم ربة الله التى أحرح لعباده والطيبات من الرزق قل هى لىدى

آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون  
 \* قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق  
 وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا  
 تعلمون ﴿١﴾ .

وتدفقت جموع الناس إلى عرفة ، وبقي أهل مكة فيها لا يغادرونها  
 بحجة أنهم أهل الحرم ولا ينبغي لهم أن يتركوا الحرم إلى الحل ، بيد أن  
 رسول الله — عليه صلوات الله وسلامه — والذين معه من المسلمين  
 انطلقوا إلى عرفة فقد ألقى في روع الرسول حتى قبل أن يبعث أن الحج  
 عرفة ، وارتفعت أصوات المشركين بالتلبية :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ،  
 تملكه وما ملك .

وراح رسول الله يسي والفئة القليلة من المسلمين يرددون تلبية التوحيد  
 خلفه :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إن انعمة والحمد  
 لك والملك . لا شريك لك .

وضاعت تلبية التوحيد في تلبية الإشراك التي تجاوزت بها حجابات  
 عرفات ، ورسول الله — عليه الصلاة والسلام — ضيق الصدر بذلك  
 الظلم العظيم . فكيف قبلت عمول البشر تلك العكرة الطاملة التي جعلت  
 مع الله لها آخر ؟ وكيف تحرك السنة الناس بذلك البهتان والزور ؟ وراح  
 يقلب وجهه في السماء كأنما يتطلع إلى ذلك اليوم الذي ترداد فيه تلبية

التوحيد وحدها خالصة لوجه الله الكريم فتجاوب لها الجبال والوديان  
والصحارى والسهول . وإذا بآيات الله البينات تسرى في ضميره . ﴿ قل  
لو كان معه آلهة كما يقولون إدا لا بتفوا إلى دى العرش سبيلا ﴾ سبحانه  
وتعالى عما يقولون عدوا كبيرا \* تسبح له السموات السبع والأرض ومن  
فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان  
حليما عفورا ﴿ ١ ﴾ .

و غابت شمس يوم عرفة في الأفق الغربى فراح كرب بن صفوان يدع  
بالناس من عرفة . فقد ورث آل صفوان الإجازة بالناس في الحج من  
صوفة . وجاء يوم الفرفأى الناس لرمى الحمار وما كانوا يرمون قبل أن  
يرمى كرب بن صفوان ، فجاء دوو الحاجات المتعجلون وقالوا له :

— قم فارم حتى نرمى معك .

— لا والله حتى تميل الشمس .

فراح دوو الحاجات الذين يحبون التعجل يرمونه بالحجارة  
ويستعجلونه بذلك ويقولون له :

— ويلك ! قم فارم .

فأتى عليهم ، حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه .

وفرغوا من رمى الحمار وأرادوا البصر من مى ، فأخذ آل صفوان  
بجانبى العقبة حبسوا الناس وقالوا :

— أجزوا آل صفوان .

فسم يجوز أحد من الناس حتى يمروا ، فلما نفر آل صفوان ومضوا خلئ

سبيل الناس فاسطلقوا بعدهم .

وانتهت أيام الموسم وقد حاول رسول الله ﷺ — أن يعرض نفسه على القبائل وأن يشرح لهم ما جاء به في هدوء ، ولكن عمه أبا لهب وكفار قريش بذلوا كل جهد ليفصوا الناس عنه ، وقد هرعهم الفرخ لما انحسروا في صد القبائل عن دعوة الرسول عليه السلام ، ولم يحظر لهم على قلب أن ذكر النذير الذي يوحى إليه من السماء قد انتشر في القبائل ، وأن أمره قد داع بين الناس ، فإن كانوا أفلحوا في حصر الإسلام في الدائرة الضيقة التي انتشر فيها طوال السنوات الطويلة التي مرت منذ نزل الوحي على محمد — عليه صلوات الله وسلامه ، فإن الفرصة أمام انتشار الإسلام لا تزال قائمة مادام محمد — عليه الصلاة والسلام — ، والذين معه مؤمنين بما أنزل إليهم من ربه ، صابرين حتى يحكم الله بينهم وبين الكافرين ، معتصمين بحبل الله ، واثقين بتحقيق ما وعد الله المتقين

وعاد رسول الله ﷺ — إلى حديجة وهو حزين ، فما أمن رجل واحد طوال الموسم برسالاته ، فراحت حصاة الإسلام تمسح عن قلبه لوعة الأمل ، وتنمط فيه من روحها القوية ما يزيده إيمانا على إيمان ونهون عليه ما قاساه من عذاب واضطهاد ، وتزوده بثقة في نفسه ، وتؤيده بكل ما تملك من قوة مادية وروحية ، فما يزال الطريق أمامه طويلا .. وما أكثر العقبات التي عليه أن يجتارها حتى يأخذ بيد البشرية إلى يابغ النور .

كانت منازل أهل مكة تحيط بالكعبة تقرب منها أو تبتعد عنها تبعاً لما لكل أسرة وفخذ من أهمية ومقام ، فكان القرشيون أقرب أهل مكة إلى الكعبة وكان كل سبط يقيم في أحد الأحياء : بنو هاشم في حبيهم وبو أمية في حبيهم وبنو مخزوم وبنو تيم وبنو سهم وبنو عدي وبنو عبد الدار وباقي بيوتات شرف قريش العشرة في أحيائهم . وكانت دار الندوة تجمع صفوة هذه الأحياء للتشاور فيما يهمهم من أمر الدنيا والدين ، أما الحرم فقد كان مكان عبادتهم ومجمع نواديهم .

وكان التنافس على السيادة شديداً بين بنى هاشم وبنى أمية وبنى مخزوم ، وكان بنو هاشم أصحاب الكلمة في قريش منذ استطاع هاشم بكرمه أن يأسر قومه وبعد أن وفق الله عبد المطلب إلى إعادة حفر بئر زمزم وجعله يحرص على حل كل مشاكل أهل مكة بالطرق السلمية ؛ طريق الحكيم طريق السلام .

وبعد موت عبد المطلب بدا لكل ذي عيين أن نفوذ بنى هاشم أو شك أن يأفل ، فأبى طالب سيد بنى هاشم كان جواداً وكان كثير العيال وقد ذابت جل أمواله في الكرم وإعالة أهله . ولما كان المال هو صاحب الكلمة العليا في مكة فلم يعد لأبى طالب إلا أمجاد آبائه وكلمته المسموعة في آل عبد المطلب ، وفقد الهاشميون حجر الزاوية الذي قامت عليه قوتهم بموت الزبير ابن عبد المطلب فقد كان الزبير شاعراً هجاءاً تخشى القبائل لسانه . فإن كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد حمل لواء شعراء بنى هاشم



بعدها فما كان شعره ينزل الرعب في قلوب منافسى بنى هاشم على السيادة كما كان يفعل شعر الزبير وهماؤه .

وأثرى العباس بن عبد المطلب من التجارة ودخل دار الندوة ، ولكن العباس انطوى تحت ذراع أنى سفيان بن حرب فقد كان نديمه وقلما يفترق الرجلان ، وكان انضواء العباس تحت سلطان سيد بنى أمية تقوية للأمويين وتدعيما لسلطانهم .

وكان أبو هب ألعبوبة في يد روجه أم جميل ، ولما كانت أخت أنى سفيان ابن حرب فقد كان في عواطفه مع بنى أمية يميل معهم حيث يميلون ، وقد نفرغ للشراب ولعب الميسر ولا تغماس في اللذات .

وكان حمزة بن عبد المطلب فارسا بمضى أوقاته في القصر والإصغاء إلى جيد الشعر والشراب ونجدة كل مدهوف يقصده ، وما كان يتطلع إلى سيادة قومه أو أن يكون من سدات دار الندوة .

وعرف بنو أمية وبنو مخزوم هذه الحقيقة فطمعوا في أن تتحول إليهم سيادة مكة ، ولا غرو فأبو سفيان سيد بنى أمية يذهب إلى الحيرة ويدخل على ملوكها ، وينطلق إلى فارس ويعقد محادثات مع أباطرتها ، ويرحس في رحلة الصيف إلى الشام ويوطد الصداقات مع الغساسنة ، ويسير على رأس قوافل قریش في رحلة الشتاء إلى اليمن فيرحب به الحميريون وساداتهم ووالى اليمن من قبل كسرى ؛ والوليد بن المغيرة كان يضرب بعزه المثل ؛ وعبد الله ابن أنى ربيعة المخزومي كانت قریش تلقبه « العدل » لأن قریشا كانت تكسو الكعبة في الحمية بأجمعها من أموالها سنة ويكسوها هو من ماله سنة ، فأرادوا بذلك أنه وحده عدل لهم جميعا ، وكان لعبد الله بن أنى ربيعة عبيد من الحشدة يتصرفون في جميع المهس .

كان بنو أمية وبنو محروم يافسون بنى هاشم على الرعامة فلما أوشكت أن تحقق آمالهم بأقول نعم الهاشميين قام لي بنى هاشم محمد بن عبد الله — عليه الصلاة والسلام — يعلن على الملأ أنه رسول الله وأنه بشير وبنير وأن الوحي يرسل عليه من السماء ، فغاط ذلك الأمويين والمحروميين عيظا شديدا ، فقد أطعم الهاشميون فأطعموا وتصدق الهاشميون فتصدقوا وها هو ذا ابن عبد الله يرغم أنه رسول رب العالمين ، فمتى يكون لهم مثل هذا الشرف وهذا المقام ؟

وحارب الرجال والنساء في مكة دعوة الإسلام والسلام ، وكان رجال بنى أمية ونسأؤهم ورجال بنى محروم ونسأؤهم أكثر الناس عداوة لأنى القاسم فما كانوا يرون في دعوته إلا توطيد سلطان بنى هاشم في الحرم ، وجعل السلطة في أيديهم إلى الأبد

كانت أم جميل روجة أبى لهب أخت أبى سفيان بن حرب من الد أعداء بنى الإسلام ، فهي وإن كانت قد تزوجت في بنى هاشم إلا أن أمنيته العالية كانت أن يسود أحوها قومه ، وقد سحرت روحها بألهب لتحقيق مآربها . وكانت أسماء بنت محربة سيدة بنى محروم تمقت الدعوة الحديد أشد المقت فهي تقف حائلا منعا دون تحقيق أحلامها .

كانت أسماء عطارة بأيتها العطر من اليمن تزوجت أبا ربيعة المحرومي فأنجبت منه عبد الله بن أبى ربيعة وعياش ، وقد تزوجها هشام بن المعيرة من بعده فولدت له أبا جهل والحارث ، فكانت تعيش على أمل أن يكون أحد أسائها عبد الله أو عياش أو أبو جهل أو الحارث سيدا القومه ، وقد أحرجت الحارث من دائرة أمانيتها بعد أن عكف على الشراب والقمار وباع حرته لأنى لهب أثناء لعبهما الميسر فصار له عبدا .

وراحت أسماء بنت محربة تحرض بني محروم على رسول الله — ﷺ — حتى لا يزع نجمه فتقوض كل آمالها ، فكان ابنها أبو جهل بن هشام ألد خصومه . وكانت أسماء ترقب الأحداث الدائرة في مكة بين الفئة اقليلة المؤمنة وبين الكافرين وهي ترجو أن يتمكن كهار قريش من إخماد ما كانت تحسبه فتنة عارصة ولكن محارفها رادت لما تسربت بعض آيات الذكر الحكيم إلى دارها ، فقد وحمّت وحشيت أن يستولى ذلك السحر على أفئدة من ليست لهم أطماع في السيادة ومن لا يخشون على روال ما في أيديهم واستولى عليها حتى شديدا لما أكثر الوليد بن المغيرة شيخ بني مخزوم من الخلوس إلى أبي القاسم والإصعاء إليه ، وربما حنقها لما ذاع في مكة أن الوليد قد صبأ . فلو أن الوليد قد دخل في الدين الجديد لكان ذلك إيذانا بزوال آمال بني مخزوم في السيادة ، ولكن عصيا لم يدم طويلا فقد عاتب أشياء قريش شيخ بني مخزوم على أن ألقى سمعه إلى من حاء يسفه أحلامهم وبسب آهتهم ويفرق جماعتهم ، وقد أنكر الوليد إشراق قلبه بأنوار اليقين وإن أهدى إعجابه محلاوة ما جاء به أبو القاسم .

وهدأت نفس أسماء بعد أن بلعها ثبات الوليد بن المغيرة على دينه ، وراحت تؤكد أن ما من عاقل رشيد في بني مخزوم يرضى أن يدخل فيما يدعو إليه محمد ، فدخوله في ذلك الدين إقرار منه بزعامة بني هاشم ، وما من محرومى عنده بعض الوفاء لعشيرته يقبل ذلك الهوان .

كانت أسماء بنت محربة تنظر إلى الإسلام الذي يدعو إليه رسول الله — ﷺ — نظرة كلها عصبية وجاهلية ، وقد عبر أبو جهل عن وجهة نظر أمه حير تعبير لما قال للأحس بن شريق : تنارعتا نحن وبو عبد مناف الشرف . أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا

ما تحاديا على اركب وكنا كهرسى رهان قالوا : مناسي يأتبه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمى به أبدا ولا نصدق .

وحزت أسماء لما أعلن أبو سلمة المحرومى إسلامه وراحت تعرى نفسها أن أمه برة بنت عبد المطلب هاشمية ، فسواء عليه أكانت الزعامة في بى محروم أم كانت في بى هاشم ، وعجبت في نفسها كيف انتقادت أم حبيبة بنت أفى سفيان بن حرب إلى زوجها وأمت بالدين الذى جاء به ابن عبد الله ليستزع الزعامة من برائن أبيها !

كانت أسماء لا ترى في الإسلام أكثر من أنه وسية لثبت زعامة بنى هاشم على مكة ، وكانت في قرارة نفسها تعجب من الهاشميين والمطلبين الذين يتأوتون أبا القاسم في سبيل آلهتهم أو غضبا لتسميه أحلام آبائهم ، فلو أن الذى نزل عليه الذكر ابن من آبائهم لأيدته في دعوته بكل ما تملك ، ولحملت بنى محروم على تأييده .

وأحست سيدة بنى محروم ، وإن لم تكن محزومية الأصل ، غضبا مزجرا في جوفها يكاد أن يثرها أشلاء لما سمعت أن الوليد بن الوليد وابنها عياش بن أبى ربيعة قد آما بما جاء به محمد ؛ فقد رأت في انضواءتهما تحت لواء سليل بنى هاشم تقويصا لكل آمالها وأحلامها ، بل كانت تعد ما أقدمها عليه حيانة لقضية العشيرة المتطلعة بحق إلى زعامة قريش .

واندلعت نار الثورة في بنى محروم على الصابئين اللذين عذلا قومهما ، فراح خالد بن الوليد يؤنب أحاه أشد تأنيب ويهدده بعداب الهون ، والوليد ثابت الحنان مطمئن البال قد تهلل فؤاده بالمرح بعد أن أشرق بنور ربه وعرف الحرية الحقة ، حرية التحرر من كل شر وحرية التحرر من عبودية الأهواء والغرائز والجهل وحرية السمو فوق الأهواء وحرية عبادة الله وحده بإرادة مطلقة .

واندفعت أسماء بنت محربة في ثورة عارمة نسب ابها عياشا وتدره  
 الوليل والنبور وتهلده أحيانا وتتوسل إليه أحيانا أن يعود إلى دين آبائه وأن  
 يهجر ما حاء به محمد ليفرق بين الأم وابها والمرء وزوجه والصاحب  
 وصاحبه ، فيقول ما عياش إن محمد — عليه صلوات الله وسلامه — قد  
 جاءنا بخير الدنيا وهناء الأبد ، ثم يروح يدعوها إلى الإسلام وهي تحدره  
 غضبها وعداها . فيجلس ويقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ألم \* تلك  
 آيات الكتاب الحكيم \* هدى ورحمة للمحسنين \* الذين يقيمون الصلاة  
 ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون \* أولئك على هدى من ربهم  
 وأولئك هم المفلحون \* ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن  
 سبيل الله بغير علم ويتحداها هزوا أولئك لهم عذاب مهين \* وإذا تتلى عليه  
 آياتنا ولئى مستكبرا كأن لم يسمعهما كأن في أدبيه وقرا فأنشره بعداب أليم \* .  
 ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم \* خالدين فيها  
 وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم \* خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى  
 في الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء  
 فأبثنا فيها من كل زوج كريم \* هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من  
 دونه بل الظالمون في ضلال مبين \* .

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه  
 ومن كفر فإن الله غنى حميد \* وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا  
 تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم \* ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهما  
 على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير \* وإن  
 جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في  
 الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأتبعكم بما كنتم

تعملون ﴿١﴾ :

كانت أسماء تعدو وتروح وتصيح فيه أن يكف عن تلاوته وإلا دعت أحابيش أبيه وأمرتهم بتعذيبه عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين . واستمرت تهدده بأنها ستخلى بينه وبين قومه ليقتلوه ، وأن بني مخزوم لن يحموه كما منعت بنو هاشم محمد بن عبد الله هشتان بين من يحاول أن يرفع عشيرته فوق العشائر كلها وبين من جلب لرمطه العار والهوان المبين .

وجاء رجال من بني مخزوم إلى هشام بن الوليد ليأخذوا فتية مهم كانوا قد أسلموا منهم الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة ، فقالوا له :

— إيا قد أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذي أخذوا .

كانوا يرون تعذيبهم ليخوفوا غيرهم ، فإن كان أبناء بني مخزوم يصطهدون للدخول في دين الله فلماذا يزل بعيرهم إذ ما صباؤا ، فأحد هشام بن الوليد أخاه الوليد وقدمه إليهم وهو يقول :

— هذا فعلكم به فعاتبوه وإياكم وبمسه ، وأنشأ يقول :

لَا يُقْتَلَنَّ أَحْيَى غُمَيْسٍ      فَيَبْقَى بَيْنَنَا أَبَدًا تَلَا حَيٍّ

احذروا على نمسه ، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلاً . فقالوا وقد تقاصرت أنفسهم :

— اللهم العنه من يغرر بهذا الحديث ، فوالله لو أصيب في أيدينا لقتل

أشرفنا رجلاً .

فتركوه ونزعوا عنه .

إن الله يدافع عن الذين آمنوا وأسلموا له وجوههم وخرجوا على معتقدات العشرة ، فله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .

## ٨

راح رسول الله ﷺ — يفكر في أمر رسالته بعد أن مصت بضع سين مد نزل عليه لوحى أول مرة في عار حراء ، إنه دعا أهل بيته إلى الإسلام فبوا الدعوة مستبشرين ، واستمر يدعو صحابته سرا إلى أن أمره الله أن يندر عشيرته الأقربين فصعد بما أمر وشبت العداوات بينه وبين سادات قومه المتكبرين . وقد كان أشد الناس عداوة له عمه أبو هب وابن خالته المضر بن الحارث وسادات بني محروم وعقة بن أبي معيط .

ومصت سنود ولم يدخل في الدين القويم أكثر من أربعين من المؤمنين والمؤمنات الذين أضاء الله قلوبهم بأنوار اليقين ، وكان رسول الله ﷺ — ينتظر الموسم بصبر نافذ ليعرض نفسه على القائل الوافدة للتجارة والحج وهو يرجو أن يصغى الناس بدعوته إصغاءهم إلى الشعراء وأصحاب المحون ، ولكن الموسم انقضى وما حل قومه بيه وبين الناس بل بدلوا كل الجهود ليعروا الناس مه ويفضوهم من حوله

وراح الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — يرى بخياله ما كان يفعله عمر بن الخطاب في الأسواق . إنه كان يتيه بقوة الجسمانية ويستعرض بأسه ، فكان يصارع الرجال ويصرع الأبطال وما صرّع مرة واحدة . وكان هدفه من المصارعة أن يلفت أنظار العوانى والنساء وأن يشير

إعجابهم ، وكان دائماً يحقق هدفه فقد كان السوة يهرعن إليه ويستجيب لرغباته ويشترك معه في معاورة الخمر ، وكان يشرب القدح الكبير بينما يشرب سائر السمار بالقدح الصغير .

وكان ينزل ألوان العذاب بالمستضعفين من المسلمين ، وما كان يلقى السمع إلى القرآن كما كان يعمل الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبو سفيان ابن حرب والنصر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط وأبو الحكم بن هشام ، بل كان يصمم أذنيه عما حاء به ابن عبد الله فإنه متعصب لديه على الرغم من حياة المحون التي يجهاها ، وما كان يقادر على السكوت عن أن يسفه فرد أيا كان ذلك الفرد عقائد الآباء التي وقرت في النفوس .

إن عمه زيد بن عمرو بن نفيل عاب دين الآباء فاضطهده الخطاب واصطوره إلى الاتجاء إلى شعاب الحبال ، وقد خاف الخطاب أن يصبأ ابنه ذات يوم كما صبأ عمه من قبل ، فراح يلقه بحبة آفته والتعصب لها ، ويفرس فيه الولاء للأصنام والغضب لها والبطش بكل من يناها بسوء .

وما كان دين قريش يهوى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فكان عمر ككل شباب مكة يعتز بشبابه ويزهو بقوته ويتيه على أقرانه بقدرته على عب قداح الخمر عما واقتان النساء به ، وكان في الحق حيارا يزل الرهبة بقلوب أشد الفتية قوة وجراًة .

وكان عمر يحس أن كل مواهبه في قوته الحسامية الحارقة ، ولكن رسول الله ﷺ — كان يرى بثاقب بصره نفاسة معدنه ويتمى لو أن عمر يجلس إليه كما يجلس وجوه قريش ويعيره سمعه بعض الوقت يعرض عليه الإسلام ويقرأ عليه القرآن . ولكن عمر كان يعرض عن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ويبطش ببطشا شديدا بالصابئين الذين تركوا



دين الآباء وكفروا بالآلهة .

وكان رسول الله عليه السلام على ثقة من أن عمر لو أصعب دونه عصية إلى القرآن فإن الله سيشرح صدره للإسلام ، فهو على الرغم من تعصبه الأعمى لديه يملك نفساً نزاعة إلى جوهر الحقيقة ، ولكن أحداً ما كان بقادر على أن يسمعه ما يكره فإن رؤية مسلم كانت تجعل دماغه تثور في عروقه ويده ترتفع لتلزل بالبطش والأذى .

وراح رسول الله عليه السلام يعجم رجال قريش ، فوجد أن أبا الحكم ابن هشام ( أبا جهل ) أعزهم نفراً ، فلو أن الوليد بن المغيرة كان سيد بني مخزوم ، ولو أن ابنه خالد بن الوليد قائد فرسان قريش ، فإن نفوذ أبي الحكم في بني مخزوم وفي قريش أعظم من نفوذ أي من سادات دار الندوة ، فهو يحارب الإسلام في ضراوة ويؤلب بيوت شرف قريش العشرة على المسلمين ، وما أكثر الراغبين في الدخول في دين الله لولا خشيتهم من بطش أبي الحكم وسطوته ، فلو شرح الله صدره للإسلام لكان في إسلامه عزة للمستضعفين الذين آمنوا بالله وأصبحوا هدفاً للاضطهاد والعدب والتكيل .

كان إسلام عمر أو إسلام أبي الحكم بن هشام أمية تراود نفس الرسول عليه السلام ، فلما أفاق من تفكيره راح يدعو ربه :

— اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك ، بأبي الحكم بن هشام أو

بعمربن الخطاب .

وخرج رسول الله ﷺ — إلى الحرم فطاف به سبعا ، ثم راح يعرض على أهل مكة الإسلام ولم يكونوا على مذهب واحد وإن كان الغالب عليهم الفطرة والطبع ، وعلى الرغم من تشتت معتقداتهم فقد كان ( عام الحزن )

البيت العتيق قببتهم ومستقر آلهتهم وبحور آمالهم وأمانهم .

وكان عباد الكواكب منهم يزعمون أن بت الله الحرام إنما هو بيت زحل بناء الباني الأول على طوابع معلومة واتصالات مقبولة وسماء بيت زحل ، فاقترب الدوام به والتعظيم له لأن زحل يدل على البقاء وطول العمر أكثر مما يدل عليه سائر الكواكب ؛ بينما كان الحنفاء والوثنيون يقولون إنه بيت أبيهم إبراهيم ، وكان الحنفاء يعتقدون أنه بنى على أيدي أصحاب الوحي ، أما الوثنيون فقد طال عليهم العهد وقست قلوبهم ولم يبق للحرم في نفوسهم إلا التوقير والتعظيم .

وكان رسول الله يحاور منهم أصنافا ، والقرآن يدحض معتقداتهم ويرد عليهم ، فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يطنون ﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآياتنا إن كنتم صادقين \* قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون \* والله ملك السماوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ ينسر المبطلون \* وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تحرون ما كنتم تعملون \* هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون \* فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين \* وأما الذين كفروا أفهم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين \* وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقين \* وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون \* وقيل اليوم نسأكم كما سيئتم لقاء يومكم هذا ومآواكم النار

ومالككم من باصرين \* ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وعزتمكم الحياة الدنيا فالיום لا يخرجون منها وهم لا يستعتون ﴿١﴾ .  
وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكروا النعت والإعادة : ﴿٢﴾ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين \* وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم \* قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم \* الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون \* أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم \* إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون \* فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴿٣﴾ .

وصف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة .  
وحجوا إليها ومحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمساسك والمشاعر وأحلوا وحرموا ، وهم الدهماء من العرب : ﴿٤﴾ وقالوا ما هذا الرسول بأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴿٥﴾ .

﴿٦﴾ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴿٧﴾ .  
ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة ويعندهم : ﴿٨﴾ وجعلوا الملائكة الذين

(٢) يس ٧٨ — ٨٣ .

(١) الجاثية ٢٤ — ٣٥ .

(٤) الفرقان ٢٠ .

(٣) الفرقان ٧ .

هم عباد الرحمن إنا أنشأناهم خلقهم سنكتب شهادتهم ويسألون \* وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا بخرصون \* أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون \* بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون \* وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إن وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون \* قل أولر جنتكم بأهذى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إيا بما أرسلتم به كافرون ﴿١﴾ .

ومهم من كان يصبو إلى الكواكب ويعبدها . ﴿١﴾ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهم إن كنتم إياه تعبدون \* فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴿٢﴾ .

وكانت عبادة كوكب الشعرى قد انتشرت في بعض قبائل العرب بعد أن دعا أبو كبشة أحد أجداد الرسول عليه السلام من جهة أمه إلى الأسلاح عن عبادة الأصنام وعبادة الكواكب . فكان محمد — صلوات الله وسلامه عليه — ينهى قومه عن هذه العبادة ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار ﴿٣﴾ وأنه هو رب الشعرى ﴿٣﴾ .

ومهم من كان يصبو إلى الجن فيعبدهم ، ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله : ﴿٤﴾ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بيّن وبنات بعير علم سبحانه وتعالى عما يصفون \* بديع السماوات والأرض أئى يكون له ولد

(٢) وصلت ٣٧—٣٨ .

(١) الرحرف ٢٠—٢٤ .

(٣) الحجم ٤٩ .

ولم تكن له صاحبه وحلق كل شيء وهو بكل شيء عليم \* دلکم الله ربکم  
لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل \* لا تدركه  
الأنصار وهو يدرك الأنصار وهو اللطيف الخبير ﴿١﴾ .

ومنهم من كان يميل إلى اليهودية ومنهم من كان يميل إلى النصرانية ،  
ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ويعتقد في الأنواء اعتقاد المنجمين في  
السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بسوء من  
الأنواء ، وكان رسول الله ﷺ — يناقش كل هؤلاء الذين تبايت  
مذاهبهم ويلزمهم الحجة ويدعوهم إلى الله وحده ويتلو عليهم : ﴿ قد  
جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم  
بحفيظ ﴾ وكذلك نصراف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون \*  
اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين \* ولو شاء  
الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل \* ولا تسوا  
الذين يدعون من دون الله فيسوا الله عدوا بغير علم كذلك رينا لكل أمة  
عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينشقهم بما كانوا يعملون ﴿٢﴾ .

#### ٩

كانوا في عجب من أمره ، إنه يقص عليهم نبأ نوح وإبراهيم وإسماعيل  
ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ويحدثهم عن عاد وثمود ، فإن كان  
النضر بن الحارث يزعم أن ما يرويه إن هو إلا أساطير الأولين كأحاديث

رستم واسعديار التي يفصها عليهم فقد كانوا في حيرة من آيات قرآنه  
البيات وراحوا يتساءلون من أين جاءت ابن عبد الله هذه الحكمة وقد  
مكث فيهم من قبل عمرا وما عرف عنه الاكتاب على تحصيل المعارف أو  
مجاورة حلقات الدارسين للديانات والتاريخ ، وما كان في مكة كلها من  
يعرف عن التاريخ أكثر من تلك القشور التي يحصلها تحار قريش في أثناء  
تجواهرهم في أرض فارس أو أرض الروم .

كان النضر بن الحارث ووالده الحارث بن كلدة طبيب قريش يتبعان  
على رجال عصرهما غرورا الأسماء قد عرفا أجزاء الحكمة وما كان ما يعرفانه  
يريد على بعض أساطير فارس وعلومها . وكان أمية بن أبى الصلت يقرأ في  
الكتب وكان يحسب أن اطلاعه على التوراة والإنجيل وديانات الأقدمين  
يؤهله للرسالة التي أرهصت بها البشارات قبل مبعث النبي الأمي الذي  
بشر به الأنبياء فليس مسوح الرهبان ترصدنا للسوة المرتقة ، فلو أن النضر  
قد رعم أنه رسول رب العالمين فما أيسر أن تدحض دعوته وأن يقال إنه  
تلقى في بلاط الحيرة ما يقصه ، ولو أن الحارث بن كلدة قال إنه بشير ونذير  
لقيل إنه قد أتى إليهم بما القطة من بلاط فارس ، ولو أن أمية بن أبى الصلت  
ادعى أنه يكلم من السماء لكذب بحجة أنه قد أخذ عن التوراة والإنجيل  
وتعلم من رهبان الصوامع الذين ينزل بهم ويحاط بهم النبأ والأيام ، أما  
محمد بن عبد الله فمن أين جاءه هذا العلم وهذه الحكمة ؟

كانوا في حيرة من أمره فهو يحاور عدة الأصنام وعبدية الكواكب  
والنجوم وعبدية الملائكة وعبدية الجن ومنكرى الخالق ومنكرى البعث  
والحساب فيلزمهم جميعا الحجة الدامغة ، وكانت حجج الشعراء والدين  
يحاذيونه من أصحاب الآراء داحضة أمام بيانه ، فمن أين خليف الوحدة

ذلك البيان المبين ؟ واستمروا في حيرة من أمره . ولو شاء الله لهم اهداية لجعلهم يلقون أسماعهم إلى قوله الكريم ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا هدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴿ (١) . إلا أن الله ختم على قلوبهم فهم لا يفقهون .

أمت بما جاءهم به من عند الله فئة قليلة مستضعفة ، بينا كان أشراف قومه يصدون الناس عنه في الأسواق وهم يحسبون أنهم بذم القائل عن الإصغاء إليه يخنقون دعوته في مهدها ، وما دار بخلدهم أن حجاج البيت سيروون بعد عودتهم ما كان من أمر أبي القاسم وأهله وأن ذكره سينتشر في القبائل .

وانتشر أمر رسول الله ﷺ — في الأوس والخزرج وراح الناس يتحدثون بما بين ابن عبد الله وقريش من اختلاف ، وبلغ أبا قيس بن الأسلت ما فعلت قريش برسول الله ﷺ — وكان أبو قيس يحب قريشا وكان لهم صهرا ، كانت عمه أرنب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي وكان يقيم عندهم السنين بامرأته ، فخشى أن تقع العداوة بين المؤمنين والكافرين وأن تنقلب مكة إلى مسرح للمقاتل كما هو الحال في يثرب ، فبعث إلى قريش بقصيدة يعلم فيها الحرمه وينهى قريشا فيها عن الحرب ويأمرهم بالكف بعصمهم عن بعض ويذكر فضيلتهم وأحلامهم ، ويأمرهم بالكف عن رسول الله ﷺ — ويذكرهم بلاء الله عندهم ودفعه عنهم أهيل

وكيده فقال :

يا راكبا إما عرضت هلفن  
مغلغلة عني لؤى بن غالب  
رسول امرئ قد راعه دات بينكم  
على النأى محزون بذلك ناصب<sup>(١)</sup>  
وقد كان عندي للهموم معرّس<sup>(٢)</sup>  
فلم أقض منها حاجتى ومبارى  
نيتكم شرجين<sup>(٣)</sup> كل قبيلة  
ها أرمل من بين مدك وحاطب  
أعذكم بالله من شر صنعمكم  
وشرّ تبايعكم ودرس العقارب  
وأطهار أخلاق ونحوى سقيمة  
كؤخر الأشفى<sup>(٤)</sup> وقعها حق صائب  
فذكرهم بالله أول وهلة  
وأحلال أحرام الظباء الشواذب<sup>(٥)</sup>

(١) الناصب : المعنى التعب .

(٢) معرّس : المكان ينزل فيه المسافرون في آخر الليل يقعون فيه وقعة الاستراحة

ثم يرجعون .

(٣) شرجين :- نوعين . أرمل : الصوت المختلط .

(٤) الأشفى : جمع أشفى وهى التى يخرز بها .

(٥) الشواذب : الضامرة البطون .



متى تبعثوها تبعثوها ذميمة  
 هي القول للأقربين أو للأقارب  
 تقطع أرحاما وتهلك أمة  
 وتبى السديف من سنام وغارب  
 وتستدلوها بالأتحمية بعدها  
 شللا وأصداء<sup>(١)</sup> ثياب المحارب  
 وبالمسك والكافور غيرا سوابغا  
 كأن قتيروها<sup>(٢)</sup> عيون الحناب  
 فإياكم والحرب لا تعلقكم  
 وحسوسا وخيم الماء مرّ المشارب  
 تزيى للأقوام ثم يرونها  
 بعاقبة إذ بيست ، أم صاحب<sup>(٣)</sup>  
 تحرق لا تُشوى ضعيفا وتتحمى  
 ذوى العز منكم بالحنوف الصوائب  
 ألم تعلموا ما كان فى حرب داحس  
 ففقتروا أو كان فى حرب حاطب  
 وكم قد أصابت من شريف مسود  
 طويل العماد ضيفه غير خائب

(١) الشليل : درع قصير .

(٢) القتيور : حلق الدرع .

(٣) أى عجز .

عظيم رماد البار محمد أمره  
 ودى شيمة محض كسريم المضارب  
 وماء هريق في الضلال كسأتما  
 أذاعت به ريح الصبا والجنائب  
 يخبركم عنها امرؤ حلق عالم  
 بأيامها والعلم علم التجارب  
 فبيعوا الخراب للمحارب واذكروا  
 حسايكسهم والله خير محاسب  
 ولئى امرئ فاختار دينا فلا يكن  
 عليكم رقيبا غير رب الثواب  
 أقيموا لنا دينا حنينا فأنتم  
 لنا غاية قد يتهدى بالذوائب<sup>(١)</sup>  
 وأنتم لهذا الناس نور وعصمة  
 تؤمّون ، والأحلام غير عواذب  
 وأنتم إذا ما حصل الناس جوهر  
 لكم سرّة البطحاء وشم الأرائب  
 تصونون أجسادا كراما عتيقة  
 مهذبسة الأنساب غير أشائب  
 ترى طالب الحاجات نحو بيوتكم  
 عصائب هلكى تهتدى بعصائب

---

(١) الأعلى .

لقد علم الأقباط أن سراتكم  
 على كل حال خير أهل الحجاب<sup>(١)</sup>  
 وأفضله رأيا وأعلاه سنة  
 وأقوله للحق وسط المواكب  
 فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا  
 بأركان هذا البيت بين الأخشاب<sup>(٢)</sup>  
 فعندكم منه بلاء ومصداق  
 غداة أنى يكسوم هادى الكتائب  
 كتيسته بالسهل تمسى ورّجله  
 على القاذفات<sup>(٣)</sup> فى رعوس المساقب  
 فلما أنكم نصر ذى العرش ردهم  
 جنود المليك بين صاف وحاصب  
 قولسوا سراعا هاربين ولم يؤب  
 إلى أهله ملجئ<sup>(٤)</sup> غير عصائب  
 فإن يهلكوا تهلك ومواسم  
 يعاش بها ، قول امرئ غير كاذب  
 وأطرق وجوه قريش يفكرون ، فأبو قيس بن الأسلت يحذرهم الحرب

(١) الحجاب : المارل .

(٢) أراد الأخشيبين وهما جبال مكة ، فجمعهما مع ما حولهما

(٣) القاذفات . أعالى الجبال . والمقاب : الطرق فى أعالى الجبال .

(٤) من الجيش .

وبخوفهم المرفة التي وقعت بين الأوس والخزرج ويذكرهم بأيام داحس وحرب حاطب ، فداحس كان فرسا لقيس بن رهير أجراء مع فرس الحديفة بن بدر يقال لها العراء ، قدس حديفة قوما وأمرهم أن يصربوا وجه داحس إن رأوه قد جاء سابقا ، فجاء داحس سابقا فصربوا وجهه ، وجاءت العراء ، فلما جاء فارس داحس أحر قيسا الخبر ، فوثب أخوه مالك بن رهير فلطم وجه العراء ، فقام حمل بن بدر فلطم مالكاً ، ثم إن أنا الحديث العسى لقي عوف بن حديفة فقتله ، ثم لقي رجل من بني فرارة مالكاً فقتله ، فكانت حرب داحس بين الحيين .

وتذكروا حرب حاطب فقد قتل حاطب الأوسي يهوديا كان حارا لنحرح ، فحرح إليه ابن فسحجم الخرجي ليلا في نفر من بني الحارث بن الخرج فقتلوه ، فوقع الحرب بين الأوس والخزرج فاقبلوا قتالا شديدا . وإن أبا قيس بن الأسلت يخوفهم أن تغلب عدوتهم لسبيل بني هاشم إلى حروب في الحرم الذي يأمن فيه الطير ، وقد كان لقصيدة من كان لهم صهرا وقع شديد في نفوسهم جعلتهم يديرون قداح الرأي بينهم ويفكرون في هدوء في ابن عبد الله ودعوته .

وقام حكيم بن أمية بن حارثة السلمي حليف بني أمية ، وقد أسلم ، يصرف قومه عما أجمعوا عليه من عداوة رسول الله ﷺ . وكان فيهم شريفا مطاعا :

هل قائل قولا هو الحق قاعد  
عليه وهل غضبان للرشد سامع  
وهل سيد ترجو العشيرة بفعه  
لأقصى الموالي والأقارب جامع



حس الخوار لاستتياب الأمن والسلام لفتح الطرق أمام قوافل التجارة كسلا للأموال ؟ أما سفارتهما فهي بعيدة عن اللهو والتجارة ، إنها تتعلق بعقائدهم مصدر طمأنينة النفوس وراحة القلوب ، وما أهون الماديات إن كان الأمر يتعلق بالدين .

احتارت قريش رحلين من أشد الرجال عداوة لرسول الله ﷺ ، لا لصمان الحيدة مما كانوا في حاجة إلى رسل محابدين . بل كانوا في حاجة إلى رسل معاندين لكيلا يكون هناك ظل من شك في ممالأتهما لأبي القاسم . ترى ماذا يكون موقف كفار قريش المتشدددين في احتيار سفيريهما لو جاء إليهم الرجلان بما لا تهوى أنفسهم ؟

وحطت القافلة في يثرب فهرع شاسها وشيوخها المحان إلى سقيفة العبايا وكان يديرها يهود يثرب أهل العلم والكتاب الأول ، وانطلق الضر وعقبة إلى أحبار اليهود الذين أطلقوا لحاهم البيضاء وعطروا رعوهم بعنائهم السود وحلوا للفتيا ليسألاهم عن محمد بن عبد الله وعما يعرفونه عه إن كانت صفته قد جاءت في التوراة ، ولو كانوا يعلمان العيب أو أراد الله لغومهم الهداية لخلعا صوامع الأحبار وراءهما ووليا وجهيهما شطر الخائط الذي يعمل به عبد من عباد الله الصالحين ، عبد يتلهف على النور الذي سيعمر العالمين ، فقد كان سلمان الفارسي على بعد خطوات منهما يتسم أحبار النبي العربي في أرض هجرته .

كان سلمان قد حرج من أصمها نحا عن الحقيقة ، وجاب الأرض حتى نزل بعمورية من أرض الروم وفيها أرشد إلى أرض العرب مبعث النبي الأمي ، فشد الرحال ليكون في مبعث النور ، ولكن سوء طالع أو وقع في الأسر فبيع بصاعة واشتراه يهودي حمه إلى يثرب وصار من رقيق الأرض ،

وما كان يعيش إلا على أمل واحد أن ينفي رسول رب العالمين وأن يؤمن به ويصدق به وأن يتبعه كقطره حتى يأخذ بيده إلى جنات النعيم ، فلو أن النصر ابن الحارث وعقبة بن أبي معيط جاءا إليه وسألاه عن بن عبد الله الحر ساجدا لله ولضمهما إلى صدره وهو يذرف الدموع ، ولحدثهما عن النبي الذي أنفق زهرة شبابه في البحث عنه حديث صدق ، ولروى لهما حديث الأمل الذي يحيا من أحبه . ولكنهما قصدا من عندهم قشور العلم ولب الغرور .

ودخلا على أحبار اليهود وقد لفتهما رهبة ما أحسا مثلها من قبل وقد دخلا على ملوك الأرض ، فقد أصبح ديهما وما عبد الآباء معلقا بكلمات تخرج من بين شفاه هؤلاء الأحبار . فلو قالوا إن محمد بن عبد الله رسول الله وأن الوحي ينزل عليه من السماء بآيات الله البينات فسيصبح النصر سحرية القوم بعد أن كان من المستهزئين بآمن الخالة وقرآنه ، يبا سيستريح عقبة من ذلك التهديد الذي هدده به محمد عليه السلام يوم أن داس على عنقه لما وجده ساجدا في الحرم ، فتوعده بالقتل إذا ما التقى به خارج مكة .

وقال النصر وهو يقلب بصره في أهل الكتاب الأول :

— أتينا لأمر حدث فينا ، ما غلام يسم يقول قولاً عظيماً يرعم أنه رسول الله .

— صف لنا صفته .

فراح النصر وعقبة يصفان رسول الله عليه السلام ، ولو أراد الله لهما الرشد لجعلهما يطقان نبوة أشعيا : أثر سلطانه على كتفيه ولأسهما في وصف خاتم نبوته ، ولكنهما وصفاه وصفا مجردا وقرأ بعض ما أنزل الله من

القرآن ، فقال جبر من الأحبار :

— فمن ينعه منكم ؟

— سفلتنا .

فراح الأحبار ينظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا :

— سلوه عن ثلاث ، فإن أحبركم من فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل

فالرجل متقول .

— سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه قد كان

هم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض

ومعارها ما كان بثؤه ، وسلوه عن الروح ما هي ، فإذا أحبركم بذلك

فاتبعوه فإنه نبي .

ورجع الضر وعقبة إلى قريش وقالوا لهم :

— لقد جئناكم بمصل ما بينكم وبين محمد .

وأحبرهم الخبر ، فجعاعوا إلى النبي — ﷺ — فقالوا :

— يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة

عجب ، وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومعارها ، وأحبرنا

عن الروح ما هي .

فقال لهم رسول الله — ﷺ — :

— أخبركم بما سألتهم غدا .

ولم يقل « إن شاء الله » ، فانصرفوا عنه ، وراح النبي عليه الصلاة

والسلام يترقب الوحي والله لا يحدث إليه في ذلك وحيا ، ومرت ليلة ثم

ليلة ولم يحبرهم محمد عليه السلام بما سألوا ، فراح الناس يسحرون منه

ويستهزئون بصحابه الذين صدقوه ، وراحت أم حبيب روجة عمه أبي

( علم الحزن )



لهب تدور على البيوت وتقول :

— أبطأ عبه شيطانه .

ولم تكف بذلك بل انطلقت إلى دار السى عبه الصلاة والسلام وقالت

له في سخرية :

— قلاك ربك .

ورمقت حديجة بطرات شماته فشق ذلك على رسول الله — ﷺ ،

فقامت إليه حديجة تواسيه وتشجعه حتى بهض وخرج يتجول في حبال

مكة لعل الوحي يأتيه عما سألوه عنه .

وراحت الأيام تمر وسخرية الكافرين تزداد على الأيام . وأحزان

رسول الله — ﷺ وصحبه مكث الوحي عنه وشق عليه ما يرجف به

أهل مكة ، وفيما هو في قمة حره جاءه جبريل فقال له الرسول

صلوات الله وسلامه عليه :

— لقد احتسست عى يا جبريل حتى سوت طبا

فقال له جبريل :

— ﴿ وما تنتزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك

وما كان ربك نسيا ﴾ <sup>(١)</sup> .

ثم استقبل قصة الخير فيما سألوه عنه من شأن الفتية فقال :

﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا \* إذ

أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهى لنا من أمرنا

رشدا \* فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا \* ثم بعثناهم لنعلم أى

الغزيرين أحصى لما لبثوا أمدا \* نحن نقص عليك نأهم بالخلق إهم فتية آمنوا  
بربهم وزدناهم هدى \* وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب  
السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا \* هؤلاء قومنا  
اتخذوا من دونه آلهة يولوا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على  
الله كذبا \* وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم  
ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا \* وترى الشمس إذا طلعت  
تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في  
فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يصلل فلن تجد له  
وليا مرشدا \* وتحسبهم أيقاظا وهم رقود وقلبهم ذات اليمين وذات الشمال  
وكتبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولمنت  
منهم رعبا \* وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا  
يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحداكم برزقكم هذه إلى  
المدينة فليظفر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليخلطف ولا يشعرن بكم  
أحدا \* إنهم إن يظهروا عليكم يرجوكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تغلحوا إذا  
أبدا \* وكذلك أعتزنا عليهم يعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب  
فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال  
الذين عليوا على أمرهم لننتحذن عليهم مسجدا ﴿١﴾ .

وانطلق رسول الله ﷺ — إلى الحرم ونادى معاشر قريش وجاء  
صحبه ليلقوا أسماهم إلى وحى الله وقد تهلت وجوههم بالبشر ، فلما  
اجتمع الناس راح عليه السلام يتلو ما أوحى إليه :

﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبه ويقولون خمسة سادسهم كلبهم  
رحما بالغيب ويقولون سبعة وثامهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم  
إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾ ولا تقول  
شيء إني فاعل ذلك غدا \* إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا سبت وقل  
عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا \* وليثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين  
وإرجعوا سعا \* قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به  
وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا \* واتل ما أوحى  
إليك من كتاب ربك لا مدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا ﴿<sup>(١)</sup>.

﴿ ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا \* إنا مكنا له  
في الأرض وآتياه من كل شيء سببا \* فأتبع سببا \* حتى إذا بلغ مغرب  
الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عدها قوما قلنا ياذا القرنين إنا  
أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسا \* قال أما من ظلم فسوف نعده ثم يرد  
إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا \* وأما من آمن وعمل صالحا فنه جزاء الحسى  
وسنقول له من أمرنا يسرا \* ثم أتبع سببا \* حتى إذا بلغ مطلع الشمس  
وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا \* كذلك وقد أخطأنا  
لديه خيرا \* ثم أتبع سببا \* حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا  
يكادون يفقهون قولا \* قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون  
في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا \* قال ما  
مكئ فيه ربي خير فأعقبوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما \* أتوفى ربر  
الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال اصبحوا حتى إذا حمله نارا قال

(١) الكهف ٢٢ — ٢٦ متحدا . ملجأ .

أتوني أفرع عليه قطرا \* فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقا \* قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا ﴿١﴾ .

﴿٢﴾ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴿٢﴾ .

وما ج بعضهم في بعض ، قال ناس أحربنا عما سألناه ، وقال آخرون إنه متقول لم يخبرنا عما سألناه ، لم يقل لنا ماهى لروح . وحال الخسد من وحوه قريش له بينهم وبين أتباعه وتصديقه فعتوا على الله وتركوا أمره ولخوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم :

— ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ .

وراح أبو جهل يهزأ برسول الله ﷺ — وما جاء به من الحق فقال : — يا معشر قريش ، يرعم محمد أمما جود الله الدين يعذبونكم في اسار ويحسبونكم فيها سعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عددا وكثرة ، أهيحجر كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟

فأمر الله تعالى على رسوله في ذلك من قوله : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويرداد الدين آموا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا

(١) الكهف ٨٣ — ٩٨ ربر الحديد : قطع الحديد .

(٢) الإسراء ٨٥ .

هو ، وما هي إلا ذكرى للنشر <sup>(١)</sup> .  
وعادت العداوة بين الكافرين والمؤمنين أشد ضراوة مما كانت ،  
وقامت القبائل على من أسلم فيهم يعذبونهم ليمتنوهم عن دينهم .

## ١٠

خمس سنوات انقضت منذ نزل الوحي على رسول الله عليه السلام أول  
مرة في غار حراء ولم تحمد عداوة وجوه قريش لأبي القاسم ومن دخل في  
دين الله ، بل كان الاصطهاد يرداد على مر الأيام ، وكان السى — صلوات  
الله وسلامه عليه — بين شر جارين : أبى لهب وعقبة بن أبى معيط ، فكان  
أبو لهب يطرح القذر على بابه . وذات يوم مر حمزة رضى الله تعالى عنه  
فرأى أباهب يطرح القذر كما اعتاد أن يفعل كل يوم ، فأحذه وطرحه على  
رأس أخيه ، فجعل أبو لهب ينقص رأسه ويقول :  
— صالى .. أحق .

وكان عقبة يشترك مع أبى لهب في إيذاء الرسول عليه السلام ، كانا  
يأتیان بالفروث فيطرحانها على بابه ، وكان إذا خرج بصق عقبة حتفارا ،  
وما كان يكتفى بالبزق بل كان يسمعه ما يكره . وكان رسول الله يصبر  
على إيذائهما وما كان يحزنه إلا أن السنين مصت وهو لا يكل ولا يتعب من  
دعوة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومع ذلك لم يدخل في دين الله إلا قلة  
صابرة على العذاب تنظر نصر الله واليسر بعد العسر .

وحرّح رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يحف به صحابته فانطلقوا إلى الحرم ، فما رآهم الأسود بن عبد يغوث ابن حال النبي قال مستهزئاً :

— قد جاءكم ملوك الأرض الدين يرثون كسرى وقيصر .

كان صحابة الرسول متقشفين ثيابهم رثة وعيشهم خشن ، فكان المستهزئون يسخرون من رقة حالهم ، فراح العاص بن وائل يقول — غر محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحبوا بعد الموت ، والله ما يهلككم إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث .

وتقدم الأسود بن عبد يغوث من ابن عمته وقال ساخراً :

— أما كلمت اليوم من السماء يا محمد ؟

وأراد نبيه ومبه ابنا الحجج أن يشتركا مع الكافرين في سحريتهم فقالا لرسول الله — صلوات الله عليه :

— أما وجد الله من بيعته عيرك ؟ إن ههنا من هو أس منك وأيسر ، فإن كنت صادقاً فأتنا بملك بشهد لك ويكون معك .

وراح الأسود بن عبد المطلب هو وأصحابه يتغامرون بالنبي — ﷺ — وأصحابه ويصفرون ، وسار الحكم بن العاص خلف أبي القاسم يجلج بغمه وأنه يسخر بالنبي — ﷺ — فنزل الوحي على الرسول ، فالتفت عليه السلام إلى الحكم فقرأ :

— ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين \* هـامز مشاء مستميم \* منع للخير معتد أثيم \* عتل بعد ذلك زيم \* أن كان ذا مال وبنين ﴾ <sup>(١)</sup> .

فساد الصمت لحظات ، فقام رسول الله ﷺ — يصلى وخلفه صحابته ، فلما سجد سجدوا . وكان سادات قريش قد ذهب عنهم الروح الذى نزل بهم لما سمعوا ما نزل في الحكم فذهبوا إلى الساحدين ووقفوا على رؤوسهم يصفقون ويصفرون ويسخرون ، حتى إذا ما أتم عليه السلام الصلاة التفّت إليهم وبأن الغضب في وجهه ، فإذا بهم ينسحبون إلى مجالسهم يستشعرون بالرعب في أنفسهم .

وجلس رسول الله ﷺ ومن حوله أبو بكر وعلى وعثمان والريبر وبلال وعبد الله بن مسعود وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبو سلمة المخرومي وعامر بن ربيعة ومن أسلم من المستضعفين ، فراح يفقههم في الدين ، وإذا برجل يقف على نادى قريش فيقول :

— يا معشر قريش ، من يعيننى على أنى الحكم بن هشام ؟

— وماذا فعل أبو الحكم بك ؟

فقال الإراشى :

— اتباع منى جمالا فمطلنى بأثمانها .

والتفت بعضهم إلى بعض وكأنما فهم كل منهم ما يريدون ، فارتفعت

على وجوههم ابتسامات ساخرة فقالوا له :

— أترى ذلك الرجل ؟ اذهب إليه فهو يعبك عليه

وأشاروا إلى حيث جلس رسول الله ﷺ — عليه الصلاة والسلام —

استهزاء برسول الله ، لعدمهم بأنه لا قدرة له على أنى جهل ، فجاء إلى رسول الله ﷺ — فقال :

— يا أبا عبد الله ، إن أبا الحكم بن هشام قد غلبنى على حق لى قبله وأنا

عريب وابن سبيل . وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لى بحق من

فأشاروا إليك ، فخذ حقى مه يرحمك الله .  
فخرج النسي مع الرجل إلى أبي جهل ، وأرسل المستهترون رجلا ممن  
كان معهم خلف النسي — ﷺ — وقالوا له :  
— انظر ماذا يصنع .

وراحوا يرقبون عودة الرجل ليضحكوا ملء الأشداق على ما سيمعه  
أبو جهل بآبن عبد الله ، ومرت الوقت وعاد إليهم الرجل فقالوا له :  
— ماذا رأيت ؟

— رأيت عجباً من العجب ، والله ما هو إلا أن ضرب عليه يابه فخرج  
إليه وما معه روحه . فقال : أعط هذا حقه ، فقال : نعم ، لا تبرح حتى  
أخرج إليه حقه . فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه .

وأقبل الإراشنى حتى وقف على ذلك المجلس ، فقال وهو يطر إلى حيث  
عاد رسول الله — ﷺ — إلى أصحابه .

— جراه الله خيراً ! فقد والله أخذ لي بحقى .

وجاء أبو جهل فقالوا له :

— ويلك ! ما رأينا مثل ما صنعت .

— ويحكم ! والله ما هو إلا أن ضرب على يانى وسمعت صوته فمكنت

رعباً .

قام رسول الله — ﷺ — فقام صحابته ليصبروا إلى دورهم ، وفيما  
كان عامر بن ربيعة مسطلقاً في طرقات مكة الضيقة إذا به يلح شأبا طويلاً  
يعلو فوق رعوس كل الناس ، فحقق قلبه رهبة . إنه عمر بن الخطاب  
صاحب الشراب والساء عنو المسلمين الحبار من يزهو بقوته وبطشه ،  
ولا جرم فقد صارع أبطال القبائل في حنقات المصارعة في أسواق مكة



وعكاظ وذى الحجاز فهزمهم جميعا .

كان عمر يبطش بعامر بن ربيعة وروخته ليلى كلما وقع بصره عليهما ، فهو جارهما وما كان يطيق أن يسمع مهمتهما كلما قاما للصلاة أو راحا يتلوان القرآن . فكان يصرح فيهما أن يكما عن رفع صوتهما قبل أن يكتم أنما سهما . فكانا يحافتان بصلاتهما خوفا من قسوته ، فإذا وقعا في يده بعد ذلك أنزل بهما العذاب ألوانا .

وما كان عامر وزوجته يحسان طمأنينة وأمنا إلا إذا خرج عمر في تجارته ، وكانا يرجوان أن تطول غيبته حتى يستريحا من أذاه وحتى يرحم الله المسلمين من بطشه وقسوته ، فقد كانت فيه غلظة تكونت في نفسه من قسوة أبيه عليه مذ كان يرعى له إبله .

وكان معتدا بنفسه حتى خيل إليه أنه قد وكل إليه أمر المحافظة على وحدة وطنه ، فكان حاقدا على النبي صوات الله وسلامه عليه لأنه فرق الجماعة ، ولولا خشيته من ثورة بنى هاشم لو قُتل أبو القاسم ونشوب القتال بين أحياء قريش لما أحجم لحظة واحدة عن قتله . وقد دفعته ثقته بقضيته أن يصمم أذنيه عن سماع قرآن محمد ، فإن كان الوليد بن المغيرة وأبو الحكم بن هشام وعقبة بن أبي معيط وأمية وأبى خلف وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث والأخنس بن شريق وشيوخ قريش قد استمعوا إلى القرآن وقالوا رأيهم فيه ، فإن عمر قد سد كل المسالك الموصلة إلى عقله وقلبه في وجه ما جاء به من فرق شمل قومه .

وانسل عامر بن ربيعة من جوار عمر وهو يرجو أن يمر بسلام ، ولكن عمر رآه فجذبته من كفه وطفق يسحر منه ويؤذيه بلسانه ويده وعامر يحتمل أذاه في صبق . وما زاد في ألم نفسه أنه أعجز من أن يرد أذى ذلك

الحبار .

والتقى سفهاء بنى أمية بعثان بن عفان وهو في طريقه إلى داره فجمعوا يسحرون منه ويؤذونه ، والتف به الصبيان ينشدون بعض قصائد المهجو التي نظمها عمرو بن العاص وشعراء قريش الهازلين الساحرين بالرسول عليه السلام وصحبه ، فإذا بوجه عثمان الجميل يتتقع ويظهر فيه الأسى والحنن فيدفعهم في صدورهم ليشق نفسه طريقا بينهم ، فيستقبلونه بأقذع الشتائم والسباب والأذى . وسرعان ما خف شيوخ قريش إلى المكان لا ليفضوا عنه أسافلهم بل ليشاركوهم في اصطهادة والنيل منه ومن أبى زوجه رقية ، من سفه أحلام الآباء وسخر من الآلهة على أعين الناس وقال : إن إلهكم لواحد .

وكان رسول الله ﷺ في طريقه إلى داره وفي رفقته بلال وعمار وصهيب وخباب والمستضعفين من المؤمنين ، من كانوا يدؤون بالنسي عليه السلام ، ويمصون الليل والنهار معه في دار حديجة الطاهرة سيدة نساء قريش ، وإذا بقرشي قوى شديد البأس بلغ من شدته أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة ليرعوه من تحت قدمه فيمرق الجلد ولا يتزعزع عنه ، يعترض طريق رسول الله ﷺ — ويقول له : — يا محمد ، إن صرعتني آمنت بك .

إنه يدعو النبي إلى المصارعة كأنما الدعوة قوة بدنية ، وراح المؤمنون ينظر بعضهم إلى بعض في دهش ، ولكن رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — قبل التحدى فهو فارس لا يشق له غبار يجيد الرماية ، وقد دأب على تدريب الفتى على بر أى طالب ليكون فارس الإسلام . وكان على الرغم من وداعته ومسالته بحس المصارعة ويحضر شباب المسلمين على

ممارستها ، فهو يرى أن المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف .  
وانطلق أبو القاسم والرجل إلى حيث يتصارعان ، والتف الناس  
ينظرون ، واحتبست أنفاس المؤمنين وطاف بهم طائف من خوف ، وهجم  
الرسول — عليه السلام — على من غرته قوته فحمله فجلده به الأرض ، وفي  
مثل لمح البصر صرعه النبي فتهللت أسارير المسلمين وانتظروا أن يقوم  
الرجل ليعلى على الملاء إيمانه ، ولكنه قام يتحدى ويصر على أن يصارعه أبو  
القاسم مرة ثانية ، وقبل الرسول — عليه السلام — ذلك التحدى وبدأت  
المصارعة فراح الرجل يدور حول محمد عليه السلام في حذر ، ويكن النبي  
انقض عليه انقضاض النسر وسرعان ما صرعه . وقام الرجل يتحدى مرة  
ثالثة فصرعه الرسول — عليه السلام — مرارا فقال له المسلمون :  
— قل لا إله إلا الله .

فاستكبر وأعرض عنهم ثم انصرف يجر أذيال الهريرة وهو أسف ، فما  
دار بخده أن يصرعه أبو القاسم الذي يبدو في وداعة الحماسة !  
واستمر كفار قريش يحادلون بالباطل ليدحصوا به الحق ، وكانوا  
يستعيون بيهود يثرب وبأشخوس من أهل فارس ، فلما حرم الإسلام أكل  
الميتة بعثوا إلى أوليائهم الفرس يسألونهم في ذلك فكتبوا إليهم : ( إن محمدا  
وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، ثم يزعمون أن ما ذبحوا فهو حلال  
وما ذبح الله فهو حرام ) . فانطلق وجوه قريش إلى محمد عليه السلام  
وكان مع ناس من المسلمين فقالوا :

— يا محمد ، أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها ؟

— الله قتلها .

— فترعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتل الكلب والصقر

حلال وما قتله الله حرام ؟

فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء ، فأُنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (١) .  
وانسل الحارث بن عثمان بن عبد مناف إلى حيث كان الرسول عليه السلام فقال له :

— إنا لتعلم أن الذي تقول حق ، ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تخطفنا من أرضنا ليجامعهم على خلافا ولا طاقة لناهم ، فأمر الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ تُكُنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَرَقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .  
وكان النضر بن الحارث في ضيق من ذلك القرآن الذي يدحض حججهم كلما جادلوا الرسول ، وفي عجب من الرعب الذي ينزل بقلب أبي الحكم بن هشام كلما هم بإيذاء ابن عبد الله ، وفي دهشة من صبرهم ذلك الصبر المبهين على من سخر منهم ومن آلتهم ، وفيما هو في تجواله رأى النبي ﷺ — منهدداً أمملى ثنية الحجون فقال :  
— لا أجده أبداً أحلى منه الساعة فأغثاله .

ومشى النضر وقد وضع يده على مقبض سيفه ، إن هي إلا ضربة واحدة وينتهي ذلك الجدل الذي قصم وحدة الأمة ، ويقتل الخطر الذي يهدد كل سلطان إلا سلطان ابن أبي كبشة بالروال . فدنا إلى رسول الله — ﷺ — ليغثاله ، فإذا برعب شديد يهزه من الرأس إلى القدم ، وإذا به

يستشعر كأنما سيموت من الخوف ، وإذا به يكص على عقيبه مفزوعا ،  
حتى إذا ما أفرح روعه لقي أباه جهل فراح يقص عليه أمر ذلك الذي اعتراه  
وما يدرى له سببا ، فقال أبو جهل :  
— هذا بعض سحره .

وما كان في الأمر سحر ، بل لقد أوقع الله الرعب في أفئدة كل من  
وسوست لهم نفوسهم أن يقتلوا رسول الله عليه السلام ، تحقيقا لوعده كثره  
الله على نفسه لما أنزل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ  
تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

## ١١

كان المسلمون في كرب عظيم ، فكفار قريش لا يمهكون يرلون بهم  
صوف العذاب ، وما كان رسول الله عليه السلام بقادر على إنقاذهم مما  
هم فيه من البلاء الممين . وجاء إليه عثمان بن عفان وروجه رقية يشكوان مما  
يقاسيان من الكافرين ، ويقرران أنهما قد صابقا باضطهاد قومهما وأداهم  
وما يسكبون في آذانهما من قدح السباب ومحقش الأقوال ، فتصير وجه  
الرسول الكريم ، وراح يرنو إلى ابنته وزوجها في إشفاق ورثاء وقلق .  
وسرعان ما جاء عامر بن ربيعة وروحه ليلي يشكوان إلى نبيهما الكريم ما  
يلاقيان من اضطهاد ابن الخطاب وبطشه الشديد . وجاء أبو سلمة

وروجه أم سلمة بنت أبي أمية بن المعيرة وفي أعينهما الدموع مما قاسيا من الكرب العظيم على أيدي بني محزوم . وتوافد المسلمون . أبو حذيفة بن عتبة ومعه مرأته سهلة بنت سهيل ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مطعون ، وأبو سيرة بن أبي رهم بن عبد العزى ، وسهيل بن وهب بن ربيعة ، وراحوا يقصون على الرسول ما نالهم من أذى على أيدي الكافرين ، والرسول عليه السلام يصعى إليهم وقد بان الألم في وجهه ، وحديجة أم المؤمنين ترنو إليه تنتظر أن تتحرك شفاته بما يخفف عن هؤلاء الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ما هم فيه من الكرب والبلاء .

وأطرق النسي عليه السلام هنيئة ، ثم رفع رأسه وقال :  
— من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شيرا من الأرض استوجب له الحلة ، وكان رفيق أبيه إبراهيم خليل الله وبنيه محمد .  
وصمت قليلا ثم قال :

— تفرقوا في الأرض فإن الله تعالى سيجمعكم .

قالوا في حيرة :

— إلى أين نذهب ؟

— اخرجوا إلى جهة أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .

والتفتت حديجة إلى ابنتها رقية وهي تتجلد وإن كانت الدموع تبلل روحها ، لها صحت بأموالها وراحتها في سبيل الله وإعلاء كلمته وهي على استعداد لأن تجود بكل شيء لكي تكون كلمة الله هي العليا ويشرق نوره على الوجود ، ففراق الأحبة يهون مرصاة لوجهه الكريم . وما أحف لوعة

بعاد فلذات الأكباد إذا ما قيست بدة القرب من الحق المتمرد بالملك  
والملكوت والعزة والخبروت الواحد القهار دى الحلال والإكرام .

وراح بصرها ينتقل بين رقية وعثمان لتتروا منهما بآخر النظرات قبل  
الرحيل ، كانت رقية ذات جمال بارع ، وكان عثمان حسن الصورة ، فإذا  
بما كان يتعشى به النساء يهمس في وجدانها

أحسن شيء قد يرى إنسان رقية وبعدها عثمان  
محقق قلبها رهبة : فماذا يستطيع عثمان والفقة القبيلة من المؤمنين الذين  
معه أن يصنعوا في أرض القرية لو أدار حسن رقية البارع رعويس بعض  
الأحباش ؟ واستولى عليها خوف وهمس في جوفها هامس أن تطلب من  
رسول الله عليه السلام أن يشي رقية عن الهجرة ، ولكن متى كان الرسول  
يخص بنفسه أو بأولاده عن التضحية في سبيل ربه وهو أول المعذبين وإمام  
المجاهدين ؟ وقد بلغ ما أنزل إليه من ربه في شجاعة مقطعة النظير دون أن  
يفكر في عواقبه وما قد يباله من أذى ميسر

قال لأبي لهب على الملائكة : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ <sup>(١)</sup> وهو على  
يقين من أن ذلك القول سيدمر زواج ابنته الحبيبتين رقية وأم كلثوم . إنه  
صادق مع ربه ، صادق مع قومه ، صادق مع نفسه ، فلم يحظر له على  
قلب أن يرضى بابتها ويدع بنات المسلمين يهاجرن ، ولن يقبل إلا أن تكون  
ابنته رقية أول المهاجرات إلى رسها في الإسلام ، كما كانت سارة أول  
المهاجرات إلى رسها أيام إبراهيم الخليل .

ورأت خديجة أن تطلق أم أيمن مع الخارجين لترعى رقية العريضة ،

فرحبت السيدة التي كانت تحب أهل البيت بالخروج ، فقد تعمقت في مدرسة الرسول عليه السلام لذة الذل وحلاوة التضحية وبشوة ابتغاء الوسيلة إلى ربها ورجاء رحمته .

وساد كل من في الدار وحوم ، كان على بن أبي طالب باسر الوجه وإن كان على ثقة من أن الله تعالى سيجمع المسلمين تارة أخرى ما دام ابن عمه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — قد قال ما قال . وكان زيد بن حارثة شارد اللب بئاً لم لألم رسول الله ، فهو عليه السلام إن كان يبدو ثابت الجنان إلا أن قلبه الكبير كان يفيض بالأحزان لاضطرار المسلمين لهجرة الأهل والخلان والأوطان .

وكان هند بن أبي هالة ابن الطاهرة سيدة نساء قريش مشنت العواطف ، فدموعه تريد أن تهمر لعراق أخته رقية بيسا كان يغالها حتى لا يحرك أشجان أمه الواهة ، وأحس رغبة عارمة في أن يرغمي في أحضان أبيه العظيم ليطعم النار التي تتلظى في جوفه ولكنه كبح عواطفه حتى لا تمجر المشاعر المكبوتة التي ران عليها وحوم .

أما فاطمة الرهراء فلم تستطع أن تتحكم في عواطفها فانسبت إلى غرفتها فألقت أم كلثوم تبكى في صمت ، فسالت عبراتها ثم أجهشت بالبكاء .

وفي تلك اللحظات المفعممة بالأسى لم يسس عليه السلام سنه ، إنه يقول لصحابته على الدوام إذا خرج ثلاثة فليؤمروا أحدهم . وها هم أولاء صفوة المسلمين الأوائل يأهبون لأول هجرة في تاريخ الإسلام ، فيؤمر عليهم أميرا يرجعون إليه في شئوهم ويكون قومه الفصل إذا ما تحربت الأمور ، فأمر عليهم عثمان بن مظعون .



وراح المسلمون يتأهبون للفرار بدينهم إلى الحبشة خوفاً من الفتنة ، ولم يفكر أبو بكر في الخروج فهو يتحمل الأذى راضياً ما دام يعد بلقاء صاحبه الذي ينزل عليه الوحي من السماء .

وانطلق عثمان بن عفان وعامر بن ربيعة وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة الخزومي والربيع بن العوام ومصعب بن عمير وباقي الرجال الذين عقدوا العزم على الرحيل ليصفوا أعمالهم ، ويعطوا أصحاب الحقوق حقوقهم ، ويسلوا ضمايرهم لتكون هجرتهم خالصة لوجه الله الكريم . وراح النسوة يجمعن ما سيحمله المهاجرون معهم ، وإذا بهمس يسرى في مكة بأن بعض أتباع محمد سيفادرون البلاد إلى الحبشة ، وبلغ الخمس مسامع عمر بن الخطاب فانطلق يوسع من خطوه إلى دار عامر بن ربيعة ، فرأى امرأته ليل على دب الدار وقد تجمعت للرحيل تنتظر أوبة زوجها ، فإذا بعصبة يسكن وإذا بركة تلفه فيقول لها في إشفاق :

— إلى أين يا أم عبد الله ؟

— قد آديتمونا في ديننا ، نذهب في أرض الله حيث لا تؤدى .

فقال عمر وقد أطرقت برأسه :

— صحبكم الله .

ثم ذهب وليلي ترمقه في دهش ، فجاء زوجها عامر فأخبرته بما رأت من رقة عمر فقال :

— ترجين أن يسلم عمر ؟ والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب .

وودع رسول الله عثمان ورقية ، ووقفت حديجة ومن في الدار يظفرون إليهما وهما يركدن بعيرهما وفي العيون دموع وفي القلوب لوعة وفي الصدور حق على غلاط الأكاد الذين اضطروا الأحبة إلى الخروج من

الديار فرارا من الاضطهاد ، وفي سكون الليل انطلق عثمان بن عفان ورقية بنت محمد عليه السلام إلى شاطئ البحر وهما يرجوان أن يصلا إلى مرسى سفن مكة بسلام .

ومن دور بني مخزوم حرج أبو سمية وزوجه وأخوه أبو سيرة فقد كانت أمهما برة بنت عبد المطلب عممة رسول الله عليه السلام ؛ وخرج من بني عبد شمس أبو حذيفة بن عتبة معه امرأته سهلة وحاطب بن عمرو ؛ ومن بني أسد بن عبد العزى الربير بن العوام ؛ ومن بني عبد الدار مصعب ابن عمير بن هاشم ؛ ومن بني زهرة بن كلاب عبد الرحمن بن عوف ؛ ومن بني جمح عثمان بن مظعون ؛ ومن بني الحارث بن فهر سهيل بن وهب ابن ربيعة .

كانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، خرجوا متسللين حتى انتهوا إلى الشعبية مرسى سفن مكة منهم الراكب والماشي ، فألقوا سميتين للتبحار حملوهم فيها بمصيف ديار . وأقنعت السعسيان وكان القمر يدرا فقد كان محرجهم في نصف رجب من السنة الخامسة من حين تنبأ رسول الله ﷺ . وكان الخمس قد بلغ مسامع فريش فخرجوا في آثارهم حتى جاعوا البحر فلم يدر كؤهم .

وذهب عمر بن الخطاب إلى حيث يجتمع برجال من قريش فلم يجد من جلسائه أحدا فقال : لو أني حثت الخمار لعل أجد عنده خمرأ فأشرب منها .

فخرج إليه وهو يفكر في قتل محمد ليقدر أهله منه . فلولاه ما راحل بر قومهم عن وطهم ، وللولاه ما وقعت الفرقة بين الرجل وزوجه والأخ وأخيه والصاحب وصاحته . حتى إذا بلغ الخمار لم يجده فقال . فلو أني حث

الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين ، فجاء المسجد فطاف به ولكن ثورته لم تهدأ ، فتوشح سيفه وذهب يريد رسول الله ورهطا من صحابته وفيما هو في طريقه لقيه نعيم بن عبد الله فقال له :

— أين تريد ؟

— أريد محمدا هذا الصالح الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله .

— والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ! أترى بى عبد مناف تاركك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ! ألا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

— وأى أهل بيتى ؟

— نَحْنُكَ<sup>(١)</sup> وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليت بهما .

فرجع عمر عامدا إلى أخته وخنته وكان عندهما خباب بن الأرت ومعه صحيفة يقرئهما فيها ، فلما سمعوا حس عمر اختفى خباب في مخدع لهم وأحفت فاطمة الصحيفة . ودعا عمر من البيت وقد سمع قراءة خباب فقال حين دخل :

— ما هذه الهيمنة التي سمعت ؟

قالت فاطمة :

— ما سمعت شيئا .

— بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه .

---

(١) المختص : كل ما كان من قبل المرأة .

وبطش بسعيد بن زيد ، فقامت فاطمة لتصكه عن زوجها فصرها  
فشجها . فلما رأت الدم قالت :

— يا بن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل ، فقد أسمت .

فدخل عمر وجلس على السرير ، فنظر فإذا بالصحيفة في ناحية من  
البيت فقال :

— ما هذا الكتاب ؟ أعطيه .

— لا أعطيك . لست من أهله .

فنظر إليها في دهش فقالت في ثبات :

— يا أختي إنك نجس على شركك ، فإنه لا يمسه إلا المطهرون .

فقام عمر واعتسل ثم قال :

— أعطيني الصحيفة .

— إنا نخشاك عليها .

— واللوات والعزى لأردنها إذا قرأتها .

وطمعت في إسلامه فدفعته له ، فراح يقرأ بعينه : ﴿ بسم الله الرحمن  
الرحيم ﴾ فدعر ورمى بالصحيفة من يده ، ثم رجع لنفسه فأخذها فإذا  
فيها : ﴿ طه ﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى \* إلا تذكرة لمن يخشى \*  
ترى لا ممن خلق الأرض والسماوات العلى ﴿ (١) ﴾ . فدعر ورمى بالصحيفة  
من يده ، ثم رجع لنفسه فأخذها وراح يقرأ : ﴿ الرحمن على العرش  
استوى ﴾ له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى \*  
وإن تجهروا بالقول فإنه يعلم السر وأخفى \* الله لا إله إلا هو له الأسماء

الحسنى \* وهل أتاك حديث موسى \* إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إلى  
آنست نارا العلى آتيكم منها بقبس أو أجحد على النار هدى \* فلما أتاها نودى  
يا موسى \* إلى أنا ربك فأخلع بعليك إلك بالواد المقدس طوى \* وأنا  
اخترتك فاستمع لما يوحى \* إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة  
لذكرى \* إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجرى كل نفس بما تسعى \* فلا  
يصدك عنها من لا يؤمن بها واتع هواه فتردى ﴿١﴾ :

واغرورقت عينا عمر بالدموع وطافت به رقة ، وأحس كأن فؤاده قد  
أشرق بنور اليقين فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

فخرج خجابه من مخدعه يكبر ، وكبرت فاطمة ، وكبر سعيد بن زيد  
استبشارا بما سمعوا منه وحمدوا الله وقان حباب :

— يابن الخطاب أشعر ، فإن رسول الله دعا فقال : « اللهم أعز  
لإسلام بأحب هذين الرجلين إلیث : بأبى الحكم عمرو بن هشام وعمر  
ابن الخطاب » .

والتفت عمر إليهم وقال :

— أحبروني بمكان رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وعرفوا منه الصديق فقالوا :

— هو فى بيت بأفضل الصفا .

ووصفوا له دار الأرقم فانطلق إليه ، فلما قرع الباب قال بلال :

— من هذا ؟

— ابن الخطاب .

فما اجتراً أحد أن يفتح له الباب لما عرفوه من شدته على رسول الله ،  
وراح بلال يقول وهو في فرع :

— يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً سيفه يعود بالله من

شره .

فقال حمزة بن عبد المطلب :

— فأذن له فإن كان جاء يريد خيراً بدله له ، وإن كان جاء يريد شراً

قتله بسيفه .

فقال رسول الله عليه السلام :

— ائذن له .

فأذن له بلال ، وهض إليه رسول الله عليه السلام حتى لقيه في صحن  
الدار فأخذ بحجزته وجذبه جذبة شديدة وقال :

— ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك

قارعة .

فقال عمر في رقة :

— يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله  
وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

فكبر رسول الله — ﷺ — تكبيرة سمعها أهل المسجد ، فقد كان  
سروره عظيماً لأن الله استجاب دعوته وأعز الإسلام بعمر بن الخطاب  
أحب الرجلين إليه .

وراح عمر يفكر في أي أهل مكة أشد لرسول الله — ﷺ — عداوة  
حتى يأتيه فيخبره أنه قد أسلم ، فتذكر أبا جهل فانطلق إليه فهدق عليه

الباب ، فقال :

— من بالباب ؟

— عمر بن الخطاب .

فخرج إليه فقال :

— الرّحبا وأهلا بابن أختي ، ما جاء بك ؟

— جئت لأبشرك ببشارة .

— وما هي يا ابن أختي ؟

— إني قد آمنت بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم . وصدقت ما جاء به .

فصرب اباب في وجهه وقال :

— قمحك الله وقبح ما جئت به .

وجاء رجل آخر من عظماء قريش وأعلم ابن الخطاب أنه صبا فلم

يصبه منه شيء ، فقال له رجل :

— تحب أن يعلم إسلامك ؟

— نعم .

— إذا جنس الناس في الحجر واجتمعوا فأت حميل بن معمر فقل له فيما

بيك وبنيه إني قد صبت .

كان حميل لا يكتم السر ، فمما اجتمعت قريش في الحجر جاءه عمر

فدنا منه وأخبره بالإسلامه ، ورفع حميل صوته بأعلاه فقال .

— ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا .

فما زال الناس يصربون عمر ويصرههم ، فقام حاله أبو جهل على

الحجر فأشار بكفه وقال :

— ألا إني أجرت ابن أختي .

فانكشف الناس عنه ومرت الأيام وصار عمر يرى المسلمين يضربون وهو لا يصرب فحز ذلك في نفسه وقال : ما هدايشىء حتى يصيبى ما يصيب المسلمين .

فهرث حتى جلس الناس في الحجر ووصل إلى خاله فقال له :

— جوارك عليك رد .

فقال أبو جهل :

— لا تفعل يا بن أختى .

— بل هو ذاك .

فقام الناس إليه يضربونه ، ووثب عليه عتبة بن ربيعة فألقاه عمر إلى الأرض وبرك عليه وجعل يضربه وأدخل إصبعيه في عيبيه فجعل عنة يصيح ، واستمر القوم يقاتلونه ويقاتلهم حتى أقبل العاص بن وائل عبه حبة حبرة وقميص موشى ووقف عليهم فقال :

— ويلكم ما شأنكم ؟

— صبأ عمر .

— فمه ! رجل اختار لنفسه أمرا عمادا، تريدون ؟ أترون بى عدى بن

كعب مسمين لكم صاحبكم هكذا ؟ حلوا عن الرجل .

فانفرجوا عنه كأنه ثوب كشط عنه .

وضاق الكافرون بإسلامه وبصموده برد عدوان المعتدين فقرروا

قتله ، فندفقوا إلى داره يتصايحون ، فبينما هو في داره خائفا إذ جاءه العاص ابن وائل فقال له :

— مالك ؟

— زعم قومك أنهم سيقتلونى .



— أمنت . لا سبيل إليك .

فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم الوادى فقال :

— أين تريدون ؟

— تريد هذا عمر بن الخطاب الذى صاباً .

— لا سبيل إليه فأنا له جار .

كان المسلمون لا يستطيعون أن يصلوا بالكعبة آمين حتى أسلم عمر ،

فقال لرسول الله ﷺ — :

— يا رسول الله ألسا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟

— بلى والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييم .

— ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق ما بقى مجلس كنت أجلس فيه

بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هائب ولا حائف . والذى بعثك بالحق

لنخرجن . والله لا يعبد الله سرا بعد اليوم .

وخرج المسلمون فى صميم . حمرة فى أحدهما وعمر فى الآخر ، فتار

الغبار من الأرض لشدة وطء أقدام المسلمين ، وقد شهر عمر سيفه وراح

يادى :

— لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

حتى دخل المسجد ، ثم صاح مسمعا قريش :

— كل من تحرك متكم لأمكنن سيفى منه .

ثم تقدم أمام رسول الله ﷺ — وهو يطوف والمسلمون ، فنظرت

قريش إلى عمر وإلى حمزة فأصابتهن كآبة لم يصيبهم مثلها ، وراح المسلمون

يصون مطمئنين . ثم رجع السى عليه السلام ومن معه إلى دار الأرقم ،

فنظر إلى عمر الذى فرق الله به بين الحق والباطل وقال فى رضا واستبشار :

— الفاروق .

كان هوى قريش مع الفرس فالبلاد الفارسي يفتح أبوابه للعرب ، وكانت الحيرة ملتقى شعراء العرب وأشرافهم ، ومن الحيرة كان أصحاب الأطماع يشدون الرحال إلى المدائن ، وقد نجح سادات الحرم في عقد أوامر الصداقة مع الأكاسرة .

ولم تكتف بعض قبائل العرب بصداقة الفرس ، بل دخلت قبيلة تميم في دينها وعبدت النار وقدمت الصلوات لأهورا مزدا إله النار ، وقد بعث كسرى مهديسبه لئلا بعض الحصون في أرض العرب حماية للقبائل التي أظهرت له ولاء ومحبة .

وقد اتفق العرب والفرس في الرمز إلى آلهتهم بأصنام وأوثان ، وكانت الآلهة في الديانتين غالبا من المجموعة الشمسية فقد كانت آلهة الفرس الشمس والقمر والكواكب السيارة بعد أن طال على الناس العهد وفسد دين التوحيد الذي جاءهم به زرادشت ، وكانت آلهة العرب الشمس والكواكب والنجوم : فاللوات الشمس وأم الآلهة ، والعزى كوكب الصباح وقد عبدت بعض القبائل كوكب الشعرى .

وكان العرب يعتقدون في تعدد الآلهة مثلهم في ذلك مثل الفرس ، وكانوا يجذون في عبادة الدولة العظمى للأصنام دليلا على صحة معتقداتهم ، بل كانوا يرون تماثيل السيد المسيح والسيدة العذراء في الدولة الرومانية والدول التي تدور في فلكها فكانوا يزادون يقبا في صدق عبادتهم لآلهتهم ، فالدنيا بأسرها تسجد لأصنام الآلهة . فلما جاء محمد —

ﷺ — ودعاهم إلى عبادة إله واحد قهار قالوا . . . أجعل الآمة إلهاً واحداً ، إن هذا لشيء عجاب ! وقاوموا دعوته واعتبروا التوحيد بدعة يسمى مقاومتها .

وكان هوى النبي — ﷺ — مع الروم فهم أهل كتاب يؤمنون بالله ورسوله وملائكته ، ويعترفون بالوحي وإرسال الله رسلاً من البشر مبشرين ومدرسين يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق . وقد كان رسول الله عليه السلام وصحبه يتحاورون كثيراً فيما يجري بين الروم والفرس من أحداث فكان المسلمون يستبشرون ببصر الروم ، وكان يشق على الكافرين أن ينزل بالفرس أية هزيمة أو تطوف بهم صائقة أو يمتاب سلطانهم وهن أو ضعف ، فقد كان كل فريق منهما يرى صورة مستقبله في واقع حياة الإمبراطورية التي يتحمس لها . فالمسلمون والكافرون كانوا يعتبرون ما بين الروم والفرس مرآة صادقة تشبهاً بما سيتمحض عنه الصراع الدائر في مكة بين الإيمان والكفر ، بين القائلين أن لا إله إلا الله والقائلين بتعدد الأرباب .

\*\*\*

كان كسرى الثاني يسير في قصره العظيم إلى قاعة العرش لاستقبال سفراء الدول الأجنبية ، وكان القصر عارقاً في الصمت وإن كان به ثلاثة آلاف امرأة ، غير ألوف من الخواري اتخذوا للخدمة والعناء . وثلاثة آلاف رجل يقومون بخدمته ، وثمانية آلاف وخمسمائة دابة لمركبه ، وسبعمئة وستين فيلاً واثني عشر ألف بعلاً لقلعه . وكان كسرى قد وضع التاج فوق رأسه ، وهو تاج عال يتدلى منه رباطان من اللؤلؤ ، وفي قمته عمود عليه حياحاسر يحمل هلالاً فوق كرة الشمس .

وكانت ملابس الملك تتكون من ثوب دى أكمام يتدلى إلى ما تحت الركبتين ، وسروال واسع ومثنى ، وكلاهما مرصعان بالجوهر . وأطراف الثوب وحمالة السيف وعمده وكذلك السروال مزينة بصوف كثيرة من اللؤلؤ ومدريين الملك رقبته بعنود من اللؤلؤ ، وقد تهدل شعره من تحت التاج فى أربع ضفائر على صدره وكتفيه .

ودخل كسرى تحت طاق الديس أى التخت الذى يشبه القبة وهو سرير من العاج والساح وصمائه ودرابزياته من الفضة والذهب ، وطوله مائة وثمانون ذراعا وعرضه مائة وثلاثون ذراعا وارتفاعه خمس عشرة ذراعا ، وفى مراقبه سرر من السيز والأبنوس مضببة بالذهب ، وعليه طاق من الذهب واللازورد .

وفى السقف الذى يشبه القبة وصع تمثال كسرى على عرش كأنه فى السماء وحوله الشمس والقمر والنجوم آلهة الفرس ، وقد جلس من حوله رسله وفى أيديهم الصواخه ، وقد وضعت آلات لتنزل الماء ردا كانه المطر وتأتى بصوت كأنه الرعد .

وانحى كسرى إلى عرشه فبدأ برجال الدولة وكبار القواد يخفون له سجدا ، وما استوى الملك على إيواه حتى فتحت الأبواب بيدخل سمراء الدول .

وعلم كسرى أن هوكاس قد قتل موريق إمبراطور الروم فاربذ وجهه ، فالإمبراطور المقتول قد أعماه على استرداد عرش آبائه ، بعث إليه بشيادوس أخيه ومعه سنون ألف مقاتل . ولم يكتف بذلك بل روجه مريم ابنته وحملها إليه ، فلولا معاونة موريق ما دخل المدائن ولما جلس على عرش فارس .

و جمع كسرى بروير ( المظفر ) مجلس حربه وراح يتشاور مع قائده شهر برار ، وما انتهى الاجتماع حتى كان كسرى قد أعلن الحرب على الدولة البيزنطية انتقام للرجل الذى عاونه على استرداد ملكه وزوجه ابنته .

و حرح كسرى من قصر دستكرد ليقبى نظرة على جيوشه المتأهبة للخروج لغزو الروم ، وكان القصر يقع على الطريق الحربى الواسع الذى يذهب من المدائن إلى همدان ، فكسرى قد هجر المدائن لأن المنجمين والعافة نبهوه بأنها شؤم عليه .

كان كسرى محتطاً جواداً وقد لبس لباس الحرب فوضع فوق رأسه حودة علاها التاج المحج والكرة والهلل ، وكان عليه درع من حلق الحديد يصل حتى الخودة ويغضى وجه الملك ويغطى في مرونة جسده حتى الفخذين ، وطهرت من تحته الملابس الحريرية التى رسم عليها الهيو كامب ( سمكة على شكل فرس ) ، ومد يمينه الحربة التى استندت إلى كتفه وأمسك في يساره حنقة مستديرة ، وشد حزاماً مزينا وجعبة مملوءة بالسهم ، وما إن وقف الملك أمام جيشه حتى أخرج الدرافس كاويان رية المرس العظيمة التى كانوا يخرجونها للأمر لعظيم .

واطلقت هتافات الشعب لتبلغ عاب السماء ، وتقدم الجيش للقتال وهو يحيى كسرى العظيم . وما عاب الجيش عن العيون حتى عاد كسرى إلى القصر ليعب الشطرنج مع بدمائه وكان من الباقوت الأحمر وقصب الرمرد ، ويمضى إليه في أحضان النساء اللاتي بلغ عددهن ثلاثة آلاف امرأة من بلاده وبلاد الروم .

كانت الأساء قد جاءت قبل أن يتحرك الجيش بأن هرقل طرد فوكاس

وأه توج إمبراطورا على الدولة الرومانية ، فلم يعد هناك مبرر لابطلاق الجيوش الفارسية إلى الغرب بعد أن تم الانتقام لموريق. ولكن كسرى كان يريد حرب بيزنطة ، وما كان مقتل موريق إلا ذريعة لذلك ، هراح يؤكد أن هرقل اشترك في دم صديقه وحليفه ، وأن جيوشه ستقوم بتأديب كل من اشترك في المؤامرة التي أطاحت بموريق وانتهت بسفك دمه الغالي البري .

وتقدمت الجيوش الفارسية لتحوض معارك رهيبية مع جيوش الروم المرابطة في الشام ، وبعد قتال مرير سقطت الرها وأنطاكية ودمشق ، وراحت جيوش كسرى المظفرة تتقدم إلى أرض فلسطين . وسرعان ما صربت حصارا على بيت المقدس ، فأخذ أسقفها ومن كان فيها من القسيسين وسائر النصارى الصليب المقدس ، وكان قد وضع في تابوت من ذهب ، وطمروه في بستان وزرعوا فوقه مبقلة .

واشتد الكرب على سكان بيت المقدس ، وراد في ضيقهم أن اغتسم يهود القدس الفرصة للانتقام من النصارى فأشعلوا النار في الكنائس واغتالوا من استطاعوا قتلهم في غفلة منهم ، ولم يكتفوا بذلك بل دلوا الفرس على عورات أعدائهم ، فماسى اليهود ما نزل بهم من اضطهاد الروم وما حاق بهم من عذاب لما قال المحمون إن دولة الروم ستروى على أيدي شعب محتون .

وتدفقت الجيوش الفارسية على القدس ، وهرع القائد إلى كبسة القيامة ليرفع بها الصليب المقدس ولكنه لم يجده فجاء بأسقفها ومن كان فيها من القسيسين وراح يعذبهم عذابا رهيبا حتى دلوه على موضعه ، فاحتفر عنه بيده واستخرجه وبعث به إلى كسرى وهو يكاد يطير فرحا

فقد استولى على قدس أقداس المسيحيين .

وراحت جيوش فارس تتقدم إلى مصر وما لبثت أن حاصرت الإسكندرية . فحاول البيزنطيون أن يقدنوا بعائس المملكة فجمعوا خراثهم ودخائرهم في سفن كثيرة ، فلما لحجت في البحر عصفت الرياح فسيرتها إلى صموف الفرس حتى طفر بها شهربرار وقبض عليها كلها وبعثها إلى المدائن ، فعجب منها كسرى وسرها وسميت كنج ياداً ورد ( في الريح ) .

واستولى الفرس على مصر والإسكندرية وبلاد النوبة ، وبعث شهربراز إلى كسرى بمفاتيح مدينة الإسكندرية فهرح كسرى فسمى نفسه : « الرجل الخالد بين الآلهة والآله العظيم جداً بين الرجال صاحب الصيت الذائع الذي يصحو مع الشمس والذي يهب عينيه للليل » .

وتقدم شهربرار ليغزو القسطنطينية فإذا بجيوش الروم تحاول أن تصده ولكنه انتصر عليها ، واستمر في تقدمه حتى أماخ على ضفة الخليج القريب منها وحجم هنالك بعد أن خرب جنود فارس بلاد الروم وقتلوا مقاتليهم وسبوا ذراريهم وأموالهم ، وقد عجز شهربراز عن أن ينقل عسكره إلى الساحل الأوربي للسفر فلم يكن يملك الوسائل ، فاستقر في مكانه مكثفياً بتهديد بيرنطة .

وبلعت أساء انتصارات الفرس مكة فشق ذلك على النبي — ﷺ — وأصحابه ، وفرح كفار مكة وشتنوا ، فلقوا أصحاب الرسول عليه السلام فقالوا :

— إنكم أهل كتاب والبصاري أهل كتاب ونحن أميون ، وقد ظهر إحواسنا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم إن قاتلتمونا

ليظهرن عليكم .

وحاء أصحاب النبي ﷺ — إلى رسول الله عليه السلام ، فراح يقرأ عليهم ما أنزل عليه من القرآن : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ \* لم \* عليت الروم \* في أدنى الأرض وهم من بعد عليهم سيغيبون \* في بضع مسين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون \* بصبر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم \* وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿ (١) .

ففرح أبو بكر إلى الكفار فقال :

— أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ولا يقرن الله عبيكم أعبيكم ، فوالله ليظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك سينا .  
فقام إليه أبي من حلف الحمصي فقال :

— كدبت يا أبا فضيل .

— أنت أكذب يا عدو الله .

— أنا حبك ( أراهلك ) عشر قلائص مئ وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس عرمت وإن ظهرت فارس عرمت إلى ثلاث مسين .

وقيل أبو بكر الرهان ، قيل أن يدفع عشرة من الإبل إذا لم تغلب الروم والعوس في ثلاث سنين ، وجاء أبو بكر إلى النبي ﷺ — فأحبره بما كان بينه وبين أبي بن خلف ، فقال عليه السلام :

— ما هكذا ذكرت . إنما البصع ما بين الثلاث إلى التسع ، فرايده في



الخطر وماده في الأحبل .

فحرح أبو بكر إلى مجلس قريش فلقى أيبا فقال :

— لعلك ندمت .

فقال أبو بكر :

— لا . تعال أرايدك في الخطر وأمادك في الأجل ، فاجعلها مائة قلو ص

إلى تسع سنين .

فقال أتبى بن خلف في زهو :

— قد فعلت .

تري أين يكون أتبى بن خلف وأمية بن حلف وأبو جهل والمستهنون

بابس أبي قحافة يوم يأتي الشير بانتصار الروم على الفرس وتحقيق ما وعد الله

به المؤمنين ١٩

## ١٣

كان المحاشي جالسا على عرشه يحكم بين الناس وكان راضى النفس

مطمئن البال ، فقد كان له ولد أريب سيرت ملكه ذات يوم ويحكم بالعدل

بين الناس بعد بذله كل جهد في تأديب ورثته ليكون من أفصل حكام

الأرض .

وفي جنات القصر كان همس وتدبير وحوار ، قال قائل :

لو أنما قتلنا الملك ، فإنه لا ولد له غير هذا العلام ، وملكنا أخاه وإن

له من صلبه اثني عشر رجلا فتوارثوا ملكه من بعده ، بقيت الحبشة بعده

دهرا .

واطمأن المتآمرون إلى ذلك المنطق الحائر ، كانوا يحشون أن يموت الملك و لم يكن له إلا ولد واحد يرثه ، فإن مات أو قتل قامت الثورات في البلاد طمعا في العرش بعد أن انقطع نسل أهل بيت مملكة الحبشة .

وعدا المتآمرون على الملك فقتلوه وملكوا أخاه فمكثوا على ذلك حيناً ، ونشأ الفتى الأريب مع عمه وراح يشب ليبياً حازماً من الرجال فغلب على أمر عمه ونزل منه منزلة . فلما رأى المتآمرون مكانه منه قالوا فيما بينهم : — والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه وإننا لنخوف أن يملكه علينا وإن ملكه علينا ليقتلنا أجمعين ، لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه .

فمشوا إلى عمه فقالوا :

— إما أن تقتل هذا الفتى وإما أن تخرجه من بين أظهرنا فإننا قد خفناه على أنفسنا .

— ويلكم ! قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم ! بل أخرجه من بلادكم . فخرجوا به إلى السوق فباعوه من رجل من التجار بمائة درهم فخذفه في سفينة فانطلق به ، حتى إذا كان العشي من ذلك اليوم هاجت سحابة من سحائب الخريف فخرج الملك يستمطر تحتها فأصابته صاعقة ، فزع رجال القصر إلى ولده فإذا هو محقق ليس في ولده خير .

وثارت القلاقل في البلاد وساد القلق واختلط الأمر وكثر الطامعون في العرش وأطلت الفتن بخططها ، وراح عفلاء المملكة يتشاورون فقالوا : — تعلمون والله أن ملككم الذي لا يقيم أمركم غيره للذي بعتم غدوة ، فإن كان لكم بالحشة حاجة فأدركوه الآن .

وانطلق الرسل في طلبه وطلب الرجل الذي باعوه منه حتى أدركوه فأخذوه منه ثم جاءوا به ، وفي كنيسة يكسوم عقدوا عليه التاج وأجراس الكنائس تدق وقلوب الناس تتحقق فرحاً ، فقد عاد الرجل الحكيم ليجلس

على سرير ملكه ويقضى على القلائل والفتس ويسود أرض الحبشة السلام .

وحاء التاجر الذى كانوا باعوه منه فقال للمتآمرين :

— إما أن تعطوني مالى وإما أن أكلمه فى ذلك .

وكان المتآمرون فى ضيق فقالوا :

— لا نعطيك شيئا .

— إذا والله أكلمه .

— فدونك وإياه .

مدخل عليه التاجر فسجد وقل الأرض بين يديه ، فلما أمره أن يرفع رأسه قال :

— أيها الملك ، ابتعت علاما من قوم بالسوق بستائة درهم فأسموا إلى

علامى وأحدوا دراهمى ، حتى إذا سرت بعلامى أدركونى فأخذوا غلامى ومنعوني دراهمى .

فتنظر إليهم الجاشى وقال :

— لتعطى دراهمه أو ليضع غلامه يده فى يده فيذهبن به حيث

شاء .

ونظر بعضهم لبعض يتلاومون فهم يعرفون صلاته فى ديه وعدله فى حكمه وإنه لن يحجم عن أن يضع يده فى يد التاجر ليذهب به حيث يشاء ،

فقالوا :

— بل نعطيه دراهمه .

وجاء إلى الحبشة أول المهاجرين إليها من المسلمين ودخلوا على الجاشى ، فقام عثمان بن مطعون يقص اصطهاد قومهم لهم لإيمانهم بعبادة الله وحده وببد عباده الأصنام مما دفعهم إلى الهجرة إليه ، فقد قال لهم نبيهم

عليه السلام :

— اخرجوا إلى جهة أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، حتى يجعل الله لكم فرحاً مما أنتم فيه .

فأكرم النجاشي وفادتهم وكان يستقبل كل من هاجر إليه بالترحاب ، وقد تقاطر المسلمون الذين فروا بأيديهم إلى الحبشة حتى بلغوا ثلاثة وثلاثين رجلاً كانوا في حير جوار ، يؤدون شعائر دينهم في أمن وسلام .

كانت رقية في شوق إلى أبيها عليه السلام وإلى أمها الطاهرة سيدة نساء قريش ، وكان المسلمون جميعاً يحنون إلى مكة ، فعشائرتهم وإن جاروا أحب إليهم من هؤلاء الغرباء الذين يعيشون بينهم ، فالتجاشي رجل كريم على خلق ودي ، أما من في القصر من سادات الأحباش فقد كانوا يملكون أعينهم إلى رقية مأخوذِينَ بِجَمَالِهَا الْبَاهِر ، وكان ذلك يؤذيها ويجعلها تتلطف إلى العودة إلى أهلها .

وجاء من مكة أحد أصحاب الرسول ما جمعت به المسلمون وألقوا إليه أسماعهم ، فراح يقص عليهم نبأ إسلام عمر وكيف أن الله أعر به الإسلام وكيف أنه قاتل الكافرين حتى تركوهم يصلون بالكعبة ظاهرين وبجهرون بقراءة القرآن ، وكيف أسماه رسول الله ﷺ « الفاروق » لأنه فرق بين الحق والباطل لما دخل على رأس المسلمين إلى الحرم شاهراً سيفه مهدداً بقتل كل من تسول له نفسه الإساءة إلى المسلمين .

واستبشروا بإسلام عمر وعادهم الحنين إلى الوطن العالی فقالوا :  
— عشائرتنا أحب إلينا .

وخرجوا راجعين إلى مكة وقلوبهم تخفق بالأمل والرجاء قد هفت نفوسهم إلى مراتع الصبا ومدارج الشباب ومهوى الفؤاد ، إلى الأهل

والخلان والصحاب ، إلى أم القرى والحرم والصفاء والمروة والحجون وأخشى مكة وعرفة والمزدلفة ومنى وحيل ثبير وأسواق الحجار .

واغرورقت العيون بالدموع ومارت الصدور بلوعة الهوى واحتلت الرعوس صور الأحبة ، فودوا لو أن المراكب تطير بأجنحة الشوق إلى الأرض المباركة ، إلى أول بيت وضع للناس ليسعدوا بالطواف به . ويشكروا رب البيت على أن شرح صدورهم للإيمان .

وتعلقت أفئدة العائدين جميعا ببيت نبهم عليه الصلاة والسلام ، فقد كانوا يرون بأخيلتهم أنفسهم وهم يهرعون إليه ليقروء السلام ويعيرون سمعهم ليسمعوا في استبشار ما أنزل الله عليه من محكم آياته فيرون في ضمايرهم صدى صوته العميق الذي حرموا عذب ترجيعه ثلاثة أشهر ، ففاضت أفئدتهم رقة وبللت العبرات مآقيهم .

وراحت المراكب تدنو من مرفأ مكة فخفقت القلوب رهبة وطاف برعوس العائدين أطياف أئى جهل وأئى بن حلف وأخيه أمية وأئى سميان ابن حرب والوليد بن المعيرة وشيبة وعنة ابني ربيعة والنضر بن الحارث وعقبة بن أئى معيط والأخمس بن شريق والعاص بن وائل وشياطين قريش ، فإذا يسؤال يتراقص على أطراف ألسنتهم : ترى كيف الحال الآن بين إخوانهم المسلمين وبين قريش ؟

كانوا يتلهفون على سلام بين من شرح الله صدورهم لأنوار البقيس وبين قومهم ، ولكنهم في ذلك الوقت الذى كانوا يجلمون فيه بوثام بين إخوانهم وبين الكافرين كانت فاطمة الزهراء تمر بأئى جهل فبرمها الرجل بنظرة قاسية ثم يلطمها لكمة قوية يودعها كل بفضه لأئىها ، فتألم فاطمة ألما شديدا وتريد أن تصرخ إلا أنها تعال دموعها وما تقاسى من ألم حتى لا

تشفى عليل عدوهم الموتور . ورأت فاطمة أبا سفيان وكان حاكماً في قريش فشكت إليه ما فعل أبو جهل ، فأدابه يرجع بفاطمة إلى حيث يجلس أبو جهل ويقول لها :

— الطميه قبحه الله .

وتلطم فاطمة أبا جهل كما لطمها وتقتص لنفسها ، ثم تذهب إلى رسول الله ﷺ — وتقص عليه ما كان فيقول عليه السلام :

— اللهم لا تنسها لأبي سفيان .

ورست المراكب عند السبيعة مرفأ مكة فزلوا إلى أحب أرض الله إليهم ، وسرعان ما حروا ساجدين شكراً لله يملون لثرى يدموعهم ، ثم أعدوا في السير إلى الوادي المقدس حتى إذا كانوا دون مكة ساعة من سهر لقوا ركبا فسألوهم عن قريش فقالوا :

— اردادت العداوة بين قريش والمسلمين صراما .

فأنمر القوم في الرجوع إلى أرض الحبشة ولكن من ذا الذي يطاوعه قلبه على العودة وعلى بعد ساعة من سهار الأهل والخلائ والأحباب ؟ لا ، لن تكون عودة قبل أن تطفئ نيران الأشواق المضطربة بين الصلوع فقالوا :

— قد بلغنا مكة فندخل نطهر ما فيه قريش ، ويحدث عهداً من أراد بأهله ثم يرجع .

ودخلوا مستحقين يترقبون خشية أن يراهم الناس ، وانطلق كل منهم إلى الأحباب . ومشى عثمان ورقية والزبير وأم أيمن إلى دار الطاهرة سيدة ساء قريش ودقوا الباب ، فما إن فتح حتى نلت من بين شفتي الحاربة التي فتحت صرحة فرح تجاوبت في جيبات الدار بأجمل بشرى :

— مولاي عثمان .. ومولاي رقية .. سيدي الزبير .. أم أيمن .

وراح كل من في الدار يستبقون إلى الباب لاستقبال العائدين وبين الصلوع وجيب أفئدة واجفة مستبشرة زاد في انفعالها وقع المفاجأة .  
والتصقت الصدور بالصدور وامتزجت الدموع بالعبرات وتبدل الجميع أنبل القبلات وتدفقت من كموز الأفئدة أرق المشاعر وأطيب الإحساسات .

وفي هجمة الليل كان النبي عليه السلام وخديجة أم المؤمنين وعلى بن أبي طالب وفاطمة الزهراء ورید بن حارثة وأهل البيت يصفون في اهتمام إلى ما كان بين المسلمين ونجاشي الحبشة من كرم الخفاوة وحسن الاستقبال .  
وذهب عثمان بن مظعون إلى دار الوليد بن المغيرة ليخبره ، فأحذه الوليد من يده واطلق به إلى الحرم فأعلن على الملأ أن عثمان بن مظعون في جواره . ومرت الأيام والأذى ينزل بالمسلمين ، ولقي العائدون المشركين أشد ما عهدوا . ولما رأى عثمان بن مظعون ما يلحق بالمسلمين من أذى قال :

— والله إن غدوى ورواحى آمننا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من الأذى في الله ما لا يصيبني لقصص كبير .  
فمشى إلى الوليد فقال :

— يا أبا عبد شمس وفيت ذمتك ، رددت إليك جوارك .  
— يابى أحمى لعله آذاك أحد قومي وأنت في ذمتي فأكفميك ذلك .  
— والله ما اعترضني أحد ولا آذاني ، ولكن أَرْضَى بجوار الله عز وجل وأريد ألا أستجير بغيره .

— انطلق إلى المسجد فاردد جوارى علانية كما أجزتكَ علانية .  
فاطلقا حتى أتيا المسجد ، قال الوليد .

- هذا عثمان قد جاء يرد على جوارى .  
— صدق ، قد وجدته وفيما كريم الحوار ، ولكن لا أستجير بغير الله عز وجل . قد رددت عليه جواره .  
— أشهدكم أنى برىء من جواره إلا أن يشاء .  
ثم انصرف عثمان وليبد بن ربيعة بن مالك فى مجلس من قریش ينشدهم ، فجلس عثمان معهم فقال ليبد :  
— ألا كل شئ ما خلا الله باطل .  
فقال عثمان :  
— صدقت .  
فقال ليبد :  
— وكل نعم لا محالة زائل .  
فقال عثمان :  
— كذبت ، نعم الجنة لا يزول .  
فقال ليبد فى حق :  
— يا معشر قریش ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟  
فقال رجل من القوم :  
— إن هذا سفيه ، فمن سفاهته فارق ديننا فلا تجدن فى نفسك من قوله .  
فرد عليه عثمان ، فقام ذلك الرجل فلطم عينه والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان فقال :  
— أما والله يابن أحمى كانت عينك عما أصابها لغنية ، ولقد كنت فى ذمة منيعة فخرجت منها وكنت عن الذى لقيت عبأ .



— بل كنت إلى الذى لقيت فقيرا . والله إن عيني الصحيحة التى لم تلطم لمفجرة إلى مثل ما أصاب أحتها في الله عز وجل ، ولى فيمن هو أحب إلى منكم أسوة . وإني لفي جوار من هو أعز منك .

## ١٤

اجتمع كفار قريش في الكعبة وجوههم باسرة وعيونهم حائرة وألبابهم مشتتة وقلوبهم تنزف حقدا وعضبا ، فأمر ابن عبد الله يشتد وأتباعه يريدون ولا يقصود ، وينزل بهم أقصى ألوان العذاب فيتحملونه في صبر عحيب ، وإن ذلك اصبر على الاضطهاد حتى الموت يفتن شباب مكة ويجعل أقدسهم نهوى إلى ذلك الدين الذى تهون في سبيله الروح .

أسلم حمرة ثم عمر بن الخطاب فقوى بهما المسلمون وأصبحوا يصلون في الحرم جهارا على أعين الناس متحدين شعور السادة الذين يعص بهم البيت ولم يؤمنوا بذلك الدين ، بل راحوا يقرعون القرآن معلين في وجوه الأصنام التى تملأ جوف الكعبة ونصبت من حولها أن لا إله إلا الله وحده ، فكاست تشب بين الفريقين مشادات لا تضع حدا لذلك التحدى السافر من قلة شقت عصا الطاعة وخرجت على الجماعة ، وعبدت ما لم يعبد آباؤهم الأولون .

وأطار عقول وجوه الكافرين أن بعض هؤلاء المسلمين تمكنوا من أن يسلموا إلى الحبشة وأن يزلوا بلدا أصابوا به أما ، فمن يدر بهم أن يهاجروا مرة أخرى إلى قوم يؤمنون بما جاء به محمد فيشتد بهم ساعد المسلمين فيصبحون خطرا يهدد الحرم ويقوض قداسة مكة ، فتذهب ريحهم التى

استقرت في الوادي المقدس مذ أقام أبوهم إبراهيم قواعد أول بيت وصع للناس وجعله الله لهم مثابة وأما ؟

كانوا يرتجفون فرقا كلما خطر على قلوبهم زوال مجد البيت يوما ، ولو أن محمدا عليه الصلاة والسلام قد قرأ عليهم : ﴿ لا يلاف قريش ﴾ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف \* فليعيدوا رب هذا البيت \* الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴿<sup>(١)</sup>﴾ . فذلك لم ينزل السكينة على قلوبهم . فقد استقر في وجدانهم أن البيت وما فيه من أصنام شيء واحد لا يمكن الفصل بينهما ، فما كانوا قادرين على أن يتصوروا بيتا مقدسا قد خلا من الآلهة .

وراح رعوس الكفر يتشاورون فرأوا أن هناك حلا واحدا لا بدليل له لإخماد هذه لفنة ، أن يقتل محمد . وجاء الرأي من النضر بن الحارث وأيده عقبة بن أبي معيط وأبو جهل بن هشام وأعداء محمد عليه السلام جميعا . ولكن من ذا الذي يقتله ليصبح هدفا لسهام بني هاشم وبني المطلب وسيفهم ؟ فلو أن رجلا أقدم على قتله فلن يمشي في الأرض بعدها ساعة من نهار ، سينقض عليه رجال بني هاشم وبني المطلب من آمن منهم بمحمد ومن لم يصدقه . فلم يعد الأمر مسألة رجل أفسد عليهم أبنائهم ونساءهم ، بل أصبح تأرا يحمل الهاشميون والمطلبيون عاره حتى يسفكوا دم قاتله .

ورأوا أن يمشوا إلى قومه يحدثونهم في أمره ، فاطلقوا إلى بني هاشم ومعهم أبو لب عبد الله . وفيما هم في طريقهم لقي أبو لب هند بنت عتبة

فقال :

— يا بنت عتبة ، هلا نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقهما  
وظاهر عليهما ؟

ف قالت هند مشجعة أبا هب على المصى في عداوة ابن أحميه ، لا نصرا  
للات والعزى بل لتقصي على محمد عليه السلام ؛ ليخلو لزوجها أبى  
سفيان زعامة قومه :

— نعم ، فحزاك الله خيرا يا أبا عتبة .

وانطلق الرجل الأحق مع كفار قومه حتى أتوا بنى هاشم وبنى المطلب  
فقالوا :

— خذوا ما دية مضاعفة ويقتله رجل من قريش وتريحونا وتريحون  
أنفسكم .

فثار الهاشميون والمطلبيون على ذلك العرض المهين ، وكان أبو طالب  
أكثرهم ثورة فهو وإن كان لم يؤمن بما جاء به ابن أحميه لأنه يعتقد أن الله  
أجل من أن يبعث بشرا رسولا إلا أن أبناءه قد دخخوا في دين ابن عمهم  
وآزروه ونصروه ، ولم يحاول أبو طالب أن يثنى أبناءه عن الإيمان  
والتصديق فقد دعاهم محمد الحبيب إلى خير ، دعاهم إلى مكارم الأخلاق  
والخلق العظيم .

وعاد كفار قريش إلى مجالسهم يتشاورون وفيهم أبو هب قد فارق قومه  
وظاهر عليهم قريشا . وانتشر في بيوت مكة ما كان بين سادات قريش  
وبين بنى هاشم وبني المطلب فانقسم الناس في الدور بين مؤيدين لرفض  
بنى هاشم وبنى المطلب تسليم محمد عليه السلام ومعارضين لذلك الرفض  
الذى سيوسع شقة الخلاف في مكة ، فلم يعد الأمر أمر محمد وثمة قليلة

مستضعفة آمنت به ، بل صارت المناذرة بين بى هاشم وبنى المطلب  
أجمعين وبين أعداء ارسول عليه السلام من أمويين ومخزوميين وحميين  
وتميميين وبيوت شرف قريش العشرة ومن دار في فللكهم

وبلغ خديجة أم المؤمنين ما أجمع عليه كفار قريش من قتل زوجها  
الحبيب فر قلبها أسى ، وهى تعجب من قوم يفكرون في سفك دم من جاء  
ليحر جهنم من الظلمات إلى النور . ولم تحزع فقد كانت على يقين من أن  
نور الإسلام سيبثش ويصير العالمين مد رأيت رؤياها الصادقة قبل أن تتروح  
الرسول الكريم ، يوم رأيت الشمس تهبط لتستقر في سقف دارها وترسل  
ضياءها إلى لكون كله ، فهى منذ تلك الرؤيا لم يتخلها أدنى شك أن النصر  
للمؤمنين وأن كل ما ينزل بهم من أدى إل هو إلا شجدهم المسلمون

وظافت بها سحابة من حرد لما فكرت في ابن أحيا حكيم بن حزام فهى  
تحب له الرشد والصراط المستقيم ، ولكنه تنكب الطريق وسلك سبل  
الضلال على الرغم من معدنه الفيس ، وقد شجعه على السير في الظلمات  
أنه صاحب دار الندوة وأنه مرموق في قومه غرته العاجلة ففضلها على  
الآجلة وما أعد للمتقين .

لم يشترك حكيم بن حزام في إبداء المسلمين لإكراما لعمته الطاهرة  
وسيدة نساء قريش ، ولكنه ما كان يعارض قراراتهم الظالمة خشية أن يقال  
إنه صبا وأتبع ما جاء به روج عمته الأمين . وكان يتألم أحيانا لذلك الظلم  
الذى ينزل بالمستضعفين ولكنه كان يكتم ما في نفسه لكيلا يفضب شيوخ  
دار الندوة

وعاد كمار قريش يتحاورون وقد أهمهم قيام بنى هاشم دون الرسول  
ﷺ ، وإن لم يكونوا جميعا على ديه ، فاقترح لنصر بن الحارث مناذرة

بني هاشم وبني المطلب وإخراجهم من مكة إلى شعب أبي طالب والتصديق عليهم بمنع حضور الأسواق ، وأن لا يتأخروهم ، وأن لا يقلوا لهم صلحا ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا رسول الله — ﷺ — للقتل ، وارتفعت الأصوات مؤيدة مرددة ما قاله الضر كأنما قد وضع كلامه في أفواههم :

— لا تناكحوهم ولا تنكحوا إليهم .

— ولا تبيعوهم شيئا ولا تبتاعوا منهم شيئا .

— ولا تقبلوا منهم صلحا .

كانوا مجتمعين في خيف بني كنانة بالأبطح بأعلى مكة عند المقابر ، وقد اتفقوا على أن يكتبوا بذلك صحيفة ويلقوها في البكة توكيدا على أنفسهم وأنهم قد قطعوا أواصر بني هاشم وبني المطلب بعد المودة والقرى ، فانطلقوا إلى دار خالة أبي جهل وراح النضر بن الحارث يكتب الصحيفة الظالمة .

كانت عداوة النضر لابن خاتمه مريّة يؤججها نار الحسد التي ترعى بين صلوعه ، فكيف يؤتي محمد عليه السلام الحكمة وما جلس إلى الحكماء وهو الذي طاف بالأرض لم يعد إلا بأجراء الحكمة ! إنه يستحلب حربا عوانا على كل من آمن برسول الله عليه الصلاة والسلام أو قام لنصرته ولن يهدأ له بال حتى يرى ابن خاتمه مسفوٹ الدماء .

ودهب الذين اتبعوا أمر الوشاة إلى الكعبة وعنقوا الصحيفة فيها ، فرأى أبو طالب أن الحرب قد أعلنت على قومه ، فجمع بني هاشم والمطلب مؤمهم وكافهم وأمرهم أن يدخلوا برسول الله — ﷺ — — الشعب ويمعوه ، فانطلقوا جميعا إلى الشعب ورسول الله — ﷺ — — فيهم ،

وانخذل عنهم بنو عمهم عبد شمس ونوفل ، فقال أبو طالب في قصيدته التي عاتب فيها من استمعوا إلى الوشاة ، ومن انخذلوا عنه :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا

عقد به شرعا عاجلا غير آجل

وكان دخول النبي عليه السلام والذين معه الشعب هلال المحرم سنة سبع من النبوة ، فصرب كفار قريش حول شعب أبنى طالب نطاقا من الحراس يمنعون من فيه من الخروج كما يجمعون الناس من الدخول أو الاتصال بمن قبلوا الدخول لحماية رسول الله عليه السلام تطوعا . ومرت الأيام ودار الحول فانقضت سنة وبنو هاشم والمطلب في ضيق ، فقد نفذ ما كان عندهم وحوت بطونهم وزاغت عيونهم وتفككت أوصالهم وأت نساؤهم وبكى صغارهم وراحوا يصرحون يطلبون الطعام ، فكانت دموع النساء تنهمر وأكباد الرجال تنمت .

وجاءت الأشهر الحرم وقامت الأسواق ، فاستطاع بعض المسلمين انفرار من الحراس وورود السوق ، وقد عرفهم أبو لهب ، فكان إذا ذهب أحدهم ليشتري شيئا من الطعام يقتاته يقوم أبو لهب فيقول :

— يا معشر التحار غالوا محمدا وأصحاب محمد حتى لا يدر كوا شيئا معكم فقد علمتم مالي ووفاء دمتي .

فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع الرجل إلى أطفاله وهم يتصاغون من الجوع وليس في يده شيء يعلمهم به .

وراح الجوع يطارد بني هاشم والمطلب ، مؤمنهم وكافرهم ، ولكن لم يلب ذلك منهم بل ازدادوا إصرارا على مناصرة محمد عليه السلام ! وعدم تسليمه لأعدائه ، وراحوا يربطون حجارة يشدون بها على بطونهم تحميها

لآلام الجوع ، واقصت سنة ثانية أكلوا فيها أوراق الشجر وقد استبد بهم الجوع وأضاهم وعذبهم وأضعف أبدانهم وغير ألوانهم . وقد راد في أسى رسول الله ﷺ — أن العيون جميعا تعنتت به كأنما تسأله أن يدعو ربه أن يرحمهم مما هم فيه من ضىي وعذاب .

كان هشام بن عمرو بن ربيعة ابن أحيى نضلة بن هاشم بن عبد مناف ، وكان هشام لبني هاشم واصلا ، وكان ذا شرف في قومه فأتى ببعير ليلا وقد أرقه طعاما ، حتى إذا أقبله فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جبهه فدخل الشعب يعدو نحو الذين نال منهم الجوع حتى استلقوا على الأرض من شدة الجهد .

ومس الريح في آداد القوم بصوت كصوت البعير ففتح الجائعون أعينهم الواهنة ، فإذا بهم يلمحون في الطلام بعيرا محملا بأحمال قادمة نحوهم فاجحفوا جميعا إليه حتى بلغوه ، فساقوه مستبشرين إلى رسول الله عليه السلام ، فأباحه فأماه محملا بطعام طيب ، فراح النبي يعطى كلا طعامه فأكلوا وشبعوا وتيقنوا من أن في قريش أناسا يعطفون عليهم ويرجون هم الحياة ، فاستراحت نفوسهم وقرت أعينهم .

وعاد الجوع ليجمع ملوله ويستعد لش هجوم آخر أقسى وأوجع ، ولكن رجالا من قريش كانوا يرون أن قرارهم الذي تخلوه قرار جائر وأنهم ظلموا أرحامهم فكانوا يبعثون إلى المحصورين بالطعام في غفلة من الحراس ، ودات يوم لقي أبو جهل حكيم بن حزام معه علاما يحمل قمحا يريد به عمته حديجة أم المؤمنين ، فعلق به وقال :

— أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ؟ والله لا ترح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة .

مجاهد أبو البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد فقال :

— مالك وله ؟

فقال أبو جهل في غضب :

— يحمل الطعام إلى بني هاشم .

فقال له أبو البختري :

— طعام كان لعمته عمده بعثت إليه فيه ، أفتسمعه أن يأتيها بطعامها !

خل سبيل الرجل .

فأبى أبو جهل فقامت مشادة بينه وبين حكيم عند مداخل الشعب ،  
فمال أحدهما من صاحبه ، فأخذ له أبو البختري لحي يعير فضربه به فشحه  
ووظفه وطفا شديدا ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك وهم  
يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتواهم ، وقد  
كان الخلاف بين أبي جهل وبين حكيم بن حزام وأبي البختري إذ نادى يتمرق  
كلمة وجوه الكافرين .

ودارت عجلة الزمن وجاءت الأشهر الحرم التي يأمن فيها الناس  
والطير ، وأقبل الحجاج إلى مكة من كل فج عميق ليطوفوا بالكعبة ،  
ففرح النبي ﷺ من الشعب يعرض نفسه على القبائل ويقول :  
— إني رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن  
تخلصوا من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى  
أبين ما بعثني به .

وطهر خلمه عمه أبو لهب أحول له عديرتان عليه حلة عدية فقال :  
— إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلبوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما  
جاء به من البدعة والصلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له .

( عام الحزن )



وانفض الناس من حوله فسار مطرق الرأس وفي قلبه سى وفي فمه مرارة ، وخرج بنو هاشم والمطلب إلى السوق وحاولوا أن يبتاعوا طعاما للأيام العجاف ولكنهم لم يجدوا من يبيعهم شيئا . وانقضت الأشهر الحرم وعاد الهاشميون والمطلبون إلى الشعب واستؤنف الحصار ورجعت أيام الشدة والضيق ، وطلق النبي ينظر إلى فاطمة الرهراء وإلى علي بن أبي طالب وإلى زيد بن حارثة وإلى هند بن أبي هالة وإلى أم أيمن وإلى شيوخ بني هاشم وبني المطلب وهم يتضورون جوعا فيستشعر بياض قلبه تتمزق ، وحزنا ثقيلا ينزل بمؤاده ، فكل هؤلاء الشيوخ والرجال والنساء والصبيان من كان منهم على دينه ومن لم يؤمن برسالته يتحملون العذاب بسبب دعوته ، وهو لا يستطيع أن يفعل إلا أن يمتثل لأمر ربه حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وذاث يوم نظر العباس بن عبد المطلب إلى زوجه أم الفضل وهي تتنوى من الألم فاربذ وجهه وانتفع لونه ، كانت تصنع ابنها في خيمة من حيام المحصورين في شعب أبي طالب وهو الرجل العني الذي يهصر بسقاية الحجيح ورفادتهم وتجوب قوافله التجارية اليمن وغزة ويصرى ويغص داره بالطرف الغالية وفاخر الرياش والسرر المخلوبة من فارس والشام ومصر . ولم يطل شروده فقد مرع إلى حيث كان أخوه أبو طالب ، فإذا برسول الله ﷺ عنده فاستبشر فقال :

— إن أم الفضل تضع ما في بطنها .

فهرعت فاطمة بنت أسد وحديجة أم المؤمنين وأم عمارة روج حمزة بن عبد المطلب إلى حيث كانت أم الفضل ، وحنس لاستقبال الوليد ، وجاء رسول الله ﷺ — إلى حيمه امرأة عمه التي كانت ثانی امرأه آمت

برسالته بعد الظاهرة لينتظر مع عمه العباس ما تصع السيدة السارة  
الفاصلة .

وارتفع صراخ الوليد في بطن جل من جبال شعب أبي طالب ، فمسح  
عويته ما كان العباس يستشعر من أسمى ، وراح ينظر في قلق ولوعة باحثة  
مدحل الخيمة فإذا بحارية تطل منها وتعلن المترقين أن أم الفصل قد جاءت  
بولد ، ومر بعض الوقت ثم أدن للعباس والرسول الله عليه السلام  
بالدحول ، فلما تقدما من أم الفضل أشرق وجه العباس بابتسامة راضية  
وتألق في عيني رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بريق سرور ، ورفعت  
انسوة المولود إلى العباس فتناوله على كفيه وقد تحرك حبابه فمال عليه وقله  
ثم نوله لابن أخيه ، فمصمه محمد عليه السلام إلى صدره في عطف سايع ثم  
راح يلثمه ويدعوله ، وكل من في الخيمة يربو إليه وقد تحركت في الصدور  
أنبل العواطف وأرق الإحساسات .

ومشى رسول الله ﷺ بالمولود هونا ثم وضعه إلى جوار أمه ،  
فالتفت إلى السى وقالت في إيمان عميق :  
— سمه يا رسول الله .

ولم تظهر الدهشة في وجه العباس ، كان على علم بأن زوجه على دين  
ابن أخيه وكانت كل عواطفه مع ذلك الدين ، وما أحر الحوار الذي كان  
يشب بيه وبين نديمه أبي سفيان بن حرب حول ما جاء به ابن أخيه ، فقد  
كان بدافع عن الأمين ويحاول أن يكسر على شاطئ لافته وحسن مطقه  
موحات العصب الهادرة التي تحركها قریش بين الحين والحين ، آمن قلب  
العباس وإن لم يتحرك بالشهادة لسانه .

وتعلق أعين حديجة وفاطمة بب أسد وأم الفصل والعباس بالرسول

الكريم ، فلما تحركت شفاته عليه السلام باسم الوليد وقال :  
— عبد الله .

طاف بخديجة طائف من حزن ، تذكرت ابنها الذي ذهب ولما يعم  
رصاعه خلفا للوعة والخسرة والأسى ، وسرعان ما أفادت من إطرافها  
وطردت ما همز الشيطان في وجدانها فابتسمت أم المؤمنين وحاضرة  
الإسلام ابتسامة مشرقة من قلب سليم .

وداع في قريش أن عبد الله بن عباس قد ولد في شعب أوى طالب ،  
ففرح أناس لذلك الموان الذي نزل بالعباس صاحب السقاية والرفدة  
والصيت العريض ، وشق ذلك على من كان هواهم مع بنى هاشم والمطلب  
فأطرقوا يفكرون في الظلم الذي نزل بأحفاد هاشم العظيم ، وعبد المطلب  
بذل نفسه لخير قريش والحرم .

ومشى أبو طالب إلى ابن أخيه وقد هذه الجوع وتغير لونه ، فلما رآه  
السبي — ﷺ — أحس رثاء لحاله وشفقة تملأ جوارحه ، وقبل أن تتحرك  
شفها شيخ بنى هاشم بكلمة قال رسول الله — ﷺ — :

— يا عم ، إن الله قد سلط الأرضة على الصحيفة فلم تدع فيها إلا اسما  
هو « الله » ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان .  
فقال أبو طالب وهو يرنو إليه بعينين واهنتين :  
— أريك أخيرك بهذا ؟  
— نعم .

وراح أبو طالب وبعض شيوخ بنى هاشم يتأهبون للانطلاق إلى  
قريش . وفي ذلك الوقت كان هشام بن عمرو بن ربيعة يمشى إلى زهير بن  
أمية بن المغيرة المخزومي وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال :

— يا زهير وقد رصيت أنا نأكل الطعام ونلبس الثياب ونسبح الساء وأحوالك حيث قد علمت لا يتاعون ولا يتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ، ألا إني أحلف بالله أن لو كانوا أخول أبى الحكم بن هشام ( أبو جهل ) ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا .  
— ويحك يا هشام فما أصنع ؟ أنا رجل واحد . والله لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقضها حتى أنقصها .

— قد وجدت رجلا .

— من هو ؟

— أنا .

— ابغنا ثالثا .

فذهب إلى المعلم بن عدى فقال له :

— يا معلم ، أو قد رصيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك ؟ موافق لقريش فيه ! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعا .

— ويحك فماذا أصنع ؟ إما أنا رجل واحد .

— قد وجدت ثانيا .

— من هو ؟

— أنا .

— ابغنا ثالثا .

— لقد فعلت .

— من هو ؟

— زهير .

— ابغنا رابعا .

فذهب إلى أبي البختری بن هشام فقال له نحوا مما قال لمطعم فقال :

— وهل من أحد يعین علی هذا ؟

— نعم

— فمن هو ؟

— زهير والمطعم وأنا معك .

— ابغنا خامسا .

فذهب إلى أبي زمعة بن الأسود فاعدوا حطيم الحجون ليلا بأعلى مكة

فاجتمعوا هناك وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى يقضوها .

واطلق أبو طالب وبعض رجال بني هاشم إلى الحرم ليحير قريش عما

أبأه رسول الله ، فإذا برهير عليه حلة ، فطاف بالبيت سيما ثم أقبل على

الناس فقال :

— يا أهل مكة ، أنا أكل الطعام ولبس الثياب وبنو هاشم هلكت لا

يبتاعون ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة

الظالمة .

فقال أبو جهل وكان في ناحية المسجد وقد جلس إليه أبو طالب وبعض

رجال بني هاشم :

— كذبت ، والله لا تشق .

قال زمعة بن الأسود :

— أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت .

وقال أبو البختری :

— صدق زمعة لا رضى ما كتب فيها ولا نهره .

قال المطعم :

— صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، سرأ إلى الله منها وما كتب فيها .

فقال أبو جهل :

— هذا أمر قضى بليل وتشوور فيه بغير هذا المكان .

ورأى أبو طالب أن يحسم الأمر فقال :

— إن ابن أخى قد أخبرنى — ولم يكذبنى قط — أن الله سلط على صحيفتكم الأرضة فلحست ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم وبقي فيها ما ذكر به الله ، فإن كان ابن أخى صادقا نزعتم عن سوء رأيكم وإن كان كاذبا دفعته إليكم قتلتموه أو استحييتموه .  
— قد أنصفتما .

وانطلق النضر بن الحارث مستبشرا ليأتى بالصحيفة ، فقد حاث ساعه أن يدفع بنو هاشم والمطلب إليهم من يمتلئ قلبه بالحقد عليه ليقتلوه ولن يستحيوه أبدا ، وعاد بها وهو متفرح فقد كان على يقين أن ما يزعم ابن عبد الله إن هو إلا وهم من أوهامه .

وامتدت العيون إلى الصحيفة واشترأت الأعناق وفتحت في حرص شديد ، فإذا بالأرضة قد لحست ما كان فيها من جور وظلم ولم يبق فيها إلا اسم الله ، فسقط في أيديهم وكسوا على رؤوسهم وسرى همس بين الكافرين قائلين :

— هذا سحر مبين .

وقال أبو طالب :

— علام نجس ونحصر وقد بان الأمر ؟

ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة ، فقال :  
— اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا وستهل ما يحرم عليه  
منا .

واطلق أناس فيهم مطعم بن عدي وعدي بن قيس ورمعة بن الأسود  
وأبو البختري وزهير بن أمية ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى شعب أبي  
طالب ليقولوا للمحاصرين إنهم في حمايتهم ، ودخل أبو طالب الشعب  
وقال :

— مزقت الصحيفة .

وهرع المسلمون إلى رسول الله — ﷺ — ، وهم يكبرون : « الله  
أكبر .. الله أكبر » . وخرج بو هاشم وبنو المطلب إلى مساكنهم في حماية  
زهير والذين معه وغير المسلمون ساجدين لله رب العالمين .

## ١٥

كان القلق مخيما على مكة ، على المسلمين والكافرين على السواء ، فقد  
انقضت سبع سنوات على نزول الوحي أول مرة على رسول الله — ﷺ —  
في غار حراء ، وعلى دعوة الناس إلى دين الله سرا وجهرا ، ولم يؤمن  
برسالته إلا فئة قليلة من شرح الله صدورهم لأنوار اليقين . وكان النبي  
عليه السلام حزينا لتكذيب قومه لدعوته ، وكان ما يزيد في أساه أن عمه  
الحبيب أبا طالب لم يؤمن به وإن قام مدافعا عنه ، وأن أبا العاص بن الربيع  
زوج ابنته ربيب ظل على دين قومه وإن عرف عنه أمانته وحسن خلفه  
ورجاحة عقله ، وأن عمه أبا لهب قد ذهب في عداوته شوطا بعيدا حتى إنه

ظاهر أعداء المسلمين على بنى هاشم والمطلب ، وأن ابن خالته النصر بن الحارث يؤلب عليه قريش ويحثهم على قتله لإخماد نيران الفتنة في زعمه ، ولو استفتى قلبه بعيداً عن أحقاد وحسده وهواه لأفتاه أن أبا القاسم ما بحث إلا بالحق ليجدد شباب البشرية ويفجر ينابيع الخير في الإنسان

وظل رسول الله ﷺ — يتألم طوال تلك السنين لما يزل بالمسلمين من عذاب ، وهو لا يستطيع أن يدفع عنهم اضطهاد وجوه الكفار الذين قست قلوبهم فأترلوا نقيمتهم رسوء العذاب بإخوانهم وأبائهم وبناتهم وروجاتهم الذين اختاروا الهدى والرشاد . وقد شق على رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يعاني المسلمون من شدة ، وإن كانت تلك الشدة هي النيران التي تنصهر فيها أنفسهم لتتبيأ لعمود سر الله إليهم وحمل أعباء رسالة السماء .

وكانت حديجة أم المؤمنين تكايد ألوانا من الأسى لأن سادات بنى أسد لم يسارعوا إلى رحمة من ربهم ويعتقروا دين الله ، فحكيم بن حزام يدور في فلك رعوس الكمر أوى جهل وأوى بن حنف وأخيه أمية وعقبة بن أبى معيط وسادات دار الندوة ، فهو وإن كان لا يقسو على المسلمين فهو معرض عن الحق ، فعمته تجادله ليفتح نوافذ قلبه لنور الله وهو يعلق كل مسالك الخير المزدية إلى نفسه في وجه دعوتها . مؤكداً في إصرار أنه سيظل وفياً لدين آيائه عابداً لما كانوا يعبدون .

ونوفل بن خويلد وأبو البختري وأبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد وسادات بنى أسد ، لماذا وضعوا أصابعهم في آذانهم ولم يلقوا أسماعهم إلى رسول الله عليه السلام ولجوا في الخصام ؟ مع أن ما جاءهم به المصطفى عليه السلام يرضى الفطرة السليمة وكل نفس نقية من التعصب الأعشى



لأحجار ما أنزل الله بها من سلطان . إثم أبوا أن يقنسوا من نور الله ، وفتنوا أنفسهم وتربصوا وارتابوا وعرثهم الأمانى ، والطاهرة سيدة نساء قريش تريد بكل عواطفها أن يهديهم الله قبل أن يأتى أمره ويجعلهم أحاديث ، فقلها الكبير يتحسى لهم الفور العظيم وإن أصرروا العداوة والبغضاء لمن عمرت قلوبهم بالإيمان .

وكان أصحاب الرسول في قلق وإن كانوا على نور من ربه وإن كان القرآن الذى ينزل على رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — يريدهم إيمانا على إيمانهم ، فاصطهاد قريش لهم كان فوق طاقة البشر ، فجلودهم تتمزق من وقع السياط وأنفاسهم تضيق وعيونهم تذرف الدموع من عذاب الدحان وأنانهم ترتفع إلى لسماء من وقع النار وأوراقهم تصادر حتى يتصور عياهم جوعا وهم يظرون ، ونفوسهم تتعذب من الأباشد البذيئة التى ينشدها وراءهم الصبيان ، ومن الصق والصقير واللعو إذا ما قاموا للصلاة ، ومن هراء الجاهلين وسحرية المستهترين . ويزيد في أساهم أنهم يرون أحباءهم يتقاحون في النار دون أن يستطيعوا أن يأخذوا بحزهم أو أن يتشلوهم من وادى الصلال .

وكان كفار قريش في قلق ، فأبو جهل قد بدل كل طاقته لإخماد دعوة سليل بنى هاشم ، ولكنه باء بالإحفاق فقد راد الاضطهاد المسلمين إيمانا وتسليما . ولم يعرف اليأس سبيله إلى قلبه فراح يجاهد حتى أقبح بيوت قريش بمقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب حتى يسلموا محمدا ويكفوا عن نصرته والمطالبة بدمه ، وقد كادت المقاطعة أن تؤتى ثمارها لولا أن قام هشام بن عمرو بن ربيعة ورهير بن أمية وزمعة بن الأسود والمطعم بن عدى وأبو البحتري يعارضون المقاطعة ويؤمنون بنى هاشم وبنى المطلب على

حياتهم .

إن ما قام به هؤلاء النفر ندير التصديق في صفوف المشركين ، وورد ما قاموا به في فتح سادات قریش ، كان أقسى على قلوبهم من إسلام أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وفراس بن الضر ابن الحارث وحالد بن سعيد بن العاص الذي هجر أبيه ليعيش في كنف أبي القاسم ، وأبائهم وبناتهم وإخوانهم الذين بهرهم الدين الجديد فدخلوا فيه وآمنوا به وقلوبهم تطمئن بذكر الله .

وراد في قلق المشركين أن عمر بن الخطاب راح يدعو إلى الإسلام في ناحية ، وراح أبو بكر يدعو في ناحية وعثمان في ناحية والزبير بن العوام في ناحية وعبيد الله بن صلحة في ناحية وجعفر بن أبي طالب في ناحية وكل مسلم يدعو إلى دين الله بكل من يصادفه أو يحاوره أو يباشره . فلو سكت سادات قریش على ذلك فسرعان ما تميم الفتنة مكة كلها ويخونها الإسلام بين جاحيه بل يلتبسها التهاما ، فاجتمع رعوس الكفر في الحرم واتفقوا على خنق دعوة ابن عبد الله قبل أن يستفحل أمرها .

وراح الكاهنون يعذبون المسلمين في صراوة حتى صاقت عليهم مكة فذهبوا إلى رسول الله ﷺ — يستأذنه في المحرة إلى الحبشة ، فآذن لهم . فقال عثمان بن عفان :

— يا رسول الله ، فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى الجحاشي ، ولست معا .

فقال — ﷺ :

— أنتم مهاجرون إلى الله وإلى ، لكم هاتان المحجرتان جميعا .

قال عثمان :

— فحسبنا يا رسول الله .

فهاجر من بني هاشم جعفر بن أبي طالب مع امرأته أسماء بنت عميس ،  
ومن بني أمية عثمان بن عفان معه امرأته رقية ابنة رسول الله وعمر بن سعيد  
ابن العاص معه امرأته فاطمة بنت صفوان وأخوه خالد بن سعيد بن العاص  
معه امرأته أمينة بنت خلف ، ومن حلفائهم من بني أسد بن خزيمه عبد الله  
ابن جحش وأخوه عبيد الله بن جحش معه امرأته أم حبيبة بنت أبي  
سفيان ، ومن بني عبد شمس أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، ومن بني أسد  
ابن عبد العزى الزبير بن العوام والأسود بن نوفل ويزيد بن زمة وعمر  
ابن أمية ، ومن بني عبد الدار مصعب بن عمير وقراس بن الصخر بن  
الحارث ابن كلدة ، ومن بني رهرة عبد الرحمن بن عوف وعامر بن أبي  
وقاص وأبو وقاص مالك بن أهيب خال حمزة بن عبد المطلب ، ومن  
حلفائهم من هذيل عبد الله بن مسعود وأخوه عتبة بن مسعود ، ومن بهراء  
المقداد بن عمرو ، ومن بني تيم الحارث بن خالد ، ومن بني مخزوم أبو  
سلمة ومعه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المعيرة . ومن بني جمح عثمان بن  
مظعون ، ومن بني سهم هشام بن العاص بن وائل ، ومن بني الحارث بن  
فهر أبو عبيدة بن الجراح .

كان الذين خرجوا إلى أرض الحبشة ثلاثة وعشرين رجلا فيهم أبناء الد  
أعداء محمد — ﷺ : أبي سفيان بن حرب والصخر بن الحارث والعاص بن  
واثل وسعيد بن العاص وسهيل بن عمرو وعتبة بن ربيعة ورهرة شباب بني  
مخزوم رهط أبي جهل ، فإن لم يكن ما جاء به محمد — ﷺ — هو الحق  
من ربه أكان ورثة محمد قريش يتركون آباءهم سادات قومهم ويتحملون  
أقصى ألوان العذاب في سبيل ربه ؟ أكانوا يتركون المجد والسؤدد

والسلطان ليقيموا على وجوههم في الأرض ١٢  
وضاقت على أبي بكر مكة وأصابه فيها ما أصابه من الأذى فاستأذن  
رسول الله ﷺ في الهجرة ، فأذن له وإن كان في النفس لوعة فهو  
صديق العبا وصديق الشباب وصاحبه الذي لم يتردد لحظة لما عرض عليه  
الإسلام ، فما كان فراق أبي بكر لبيه ورسوله شيئا هينا على نفس  
الصديقين ، ولكن محمدا عليه السلام رأى في هجرة صاحبه الأمن له فأذن  
له لعله ينعم بالسلام إلى أن يأتي الفرع .

وودع أبو بكر زوجته أم رومان وأولاده عبد الرحمن وعبد الله وأسماء  
وعائشة وانطلق ليهاجر إلى الله ، ليفر بدينه من الاضطهاد ، وقد هان عليه  
الوطن والأهل والخلان والأموال فقد تجاوز في نموه الروحي زحرف الدنيا  
وتعلق قواده بملكوت الله .

وخرج أبو بكر مهاجرا حتى إذا سار من مكة يوما لقيه ابن الدغنة سيد  
الأحابيش ، فقد تحالف بنو الحارث بن بكر والمون بن حزيمة وبنو  
المصطلق من خزاعة عند جبل يقال له حبشى فسموا الأحابيش للحلف ،  
فقال :

— أين تريد يا أبا بكر ؟

— أخرجني قومي وآذوني وضيقوا على .

— ولم ؟ فوالله إنك لتزير العشيرة وتعين على التوائب وتفعل المعروف  
وتكسب المعدوم ، وأرجع وأنت في جوارى .

فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال :

— يا معشر قريش ، إني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرض له أحد إلا

بخير .

فكفوا عنه . وسار أبو بكر يجوس خلال مكة آمنا وكان له مسجد على باب داره في بنى جمح ، فراح يصلي فيه ويقرأ القرآن فتهمر من عبيه الدموع ، ووقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يصعرون ويعجبون لما يرون من هيئته . ورأى بعض كفار بنى جمح تراحم الناس على دار أبي بكر إذا ما صلى أو جلس يقرأ القرآن فخاف أن تميل القلوب إلى ذلك الدين الذي يستعبر من يؤمن به إذا ما رتل القرآن ترتيلا أو وقف بين يدي ربه خاشعا للصلاة ، فاندفع إلى أندية قريش يقص عليهم مخاوه .

ومشى من قريش إلى ابن الدغنة رجال فقالوا :

— إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا . إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ، ونحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فإنه عمره أن يدخل بيته فليصبع فيه ما يشاء .

فمشى ابن الدغنة إليه فقال :

— يا أبا بكر إني لم أجرك لتؤذى قومك ، إنهم قد كرموا مكانك الذي أتت به وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت .

— أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟

— فاردد على جوارى .

— قد رددته عليك .

فقام ابن الدغنة فقال :

— يا معشر قريش ، إن ابن أبي قحافة قد رد على جوارى فشأنكم

بصاحبكم :

هاجر المسلمون إلى أرض الحبشة فوجدوا الأمن والاستقرار وحمدوا  
جوار العجاشي وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحداً ، وكانوا صفوة شباب  
قريش فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله . وراح شعراؤهم يبعثون  
إلى قريش بقصائد تعبر عن صدق إحساساتهم ، فبعث عبد الله بن الحارث  
قصيدة تلو قصيدة يقول في إحداها لهم وحدوا بلاد الله واسعة تنجي من  
الذل والخزي والهوان ، ويدكر في أخرى نفى قريش إياهم من بلادهم  
ويعاتب بعض قومه ، وقال في ثالثة :

وتلك قريش تجحد الله حقه

كما جمحت عادٌ ومدينٌ والحجر

فإن أنا لم أبرق<sup>(١)</sup> فلا يسعني

من الأرض برٌ ذو فضاء ولا بحر

بأرض بها عبد الإله محمدٌ

أبين ما في النمس إذ بلغ النقر<sup>(٢)</sup>

فسمى عبد الله بن الحارث المُبرق .

وراح عثمان بن مطعون يفكر في ابن عمه أمية بن حلف فيذكر إيداءه  
إياه أيام أن كان في مكة ، فقد هاجر عثمان المحرّتين إلى الحبشة فرارا من  
صراوة عداوة ابن عمه وشراسته ، فقال يعاتب أمية :

(١) أبرق : أهدد . (٢) النقر : البحث من الشيء .

أثيم بن عمرو للذى جاء بغضة  
 ومن دونه الشُرمان والبرك أكتع<sup>(١)</sup>  
 آخر جتنى من بطن مكة أمنا  
 وأسكنتنى فى صرح بيضاء<sup>(٢)</sup> تقدع  
 تریش نیالا لا یواتبک ریشها  
 وتیری نیسمالا ریشها لك أجمع  
 وحاربت أقواما كراما أعزة  
 وأهلك أقواما بهم كنت تفرع  
 ستعلم إن نابتک یوما ملمة

وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع  
 ورأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ — قد أموا واطمأنوا  
 بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا دارا وقرارا ، فاثمروا بينهم أن يعثوا فيهم  
 منهم رجلين من قريش جلدتين إلى النجاشي فيردهم عليهم ليفتروهم في دينهم  
 ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأموا فيها ، فبعثوا عمرو بن العاص  
 وعمارة بن الوليد وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقه وقالوا لهما :  
 — ادفعنا إلى كل بطريق هديته قبل أن نكلما النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى  
 النجاشي هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم  
 ورأى أبو طالب كيد قريش لمن هاجروا إلى الحبشة فاستبد به القلق ،  
 إنه هنا في مكة يسبل حمايته على بن أخيه محمد عليه السلام ، فمس ذا الذي  
 سيحمي ابنه جعفر من عداوة عمرو ؟ فبعث إلى النجاشي أبياتا يحصه على

(١) الشُرمان : موضع .. والبرك : جماعة الأبل للباركة . (٢) يقصد الحبشة

حسن جوار من لا دوابه والنفع عنهم ، قال :  
 ألا ليت شعري كيف في التأني جعفر  
 وعمرو وأعداء العدو الأقارب  
 وهل نالت أفعال النجاشي جعفرا  
 وأصحابه أو عاق ذلك شاغب  
 تعلم ، أبيت اللعن ، أنك ماجست  
 كريم فلا يشقى لديك المجانب  
 تعلم بأن الله زادك بسطة  
 وأسباب خير كلها بك لادب  
 وأنت فيض ذو سجال غزيرة  
 ينال الأعداء بمعها والأقارب  
 وركب عمرو بن العاص وامراته وعمارة بن الوليد السفينة وحملوا  
 الهدايا ، وكانت فرسا وجبة وأدما ، وكان عمرو قصيرا دميما وكان  
 عمارة رجلا جميلا فكانت امرأة عمرو تراه طوال النهار وطرفا الليل ففتنت  
 به وهوته ، واحتسى عمارة ذات ليلة خمرا لعبت برأسه فقال لعمرو :  
 — مر امرأتك فلتقبلني .  
 فنظر إليه عمرو في دهش وقال :  
 — ألا تستحي ؟  
 فأخذ عمارة عمرا ورمى به في البحر .  
 فجعل عمرو يصيح وينادي أصحاب السفينة ويناشد عمارة حتى  
 أدخله السفينة ، فقال لامراته :  
 — قبلي ابن عمك عمارة لطيب بذلك نفسه .



وأصرها عمرو في نفسه وراح يتحين الفرص ليكر من أرمعه على أن يسمح به بأن يقبل امرأته وهو ينظر .

وبزلا أرض الحبشة فانطلقا إلى بطارقة الحاشي، فلم يبق من بطارقه بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمها الحاشي، وقال لكل بطريق منهم : — إنه قد صوى إلى بلد الملك غلمان سعهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وحاءوا بدين مبتدع لا يعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لتردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم .

فقالوا :

— نعم .

كان أعداء الحاشي قد باعوه لرجل من العرب فمكث عنده مدة تعلم فيها من لسان العرب ، ثم لما مرج أمر الحبشة وصاق عليهم ما هم فيه خرجوا في طلبه وأتوا به من عند سيده ووضعوا التاج على رأسه . وكان أعلم البصري عما أنزل على عيسى ، وكان قيصر يرسل إليه علماء البصري لتأخذ عنه العلم ، وكانت الصلات بينه وبين هرقل مليحة فقد كان هرقل يرى أن لا خير في الإمبراطورية الرومانية إلا إذا عادت إلى الله وعبدته حق عبادته .

وكان الحاشي يألف عثمان بن عفان وكثيرا ما كان يبعث في طلبه ليحاوِّره ، وكان يعجب من عرارة علم ذلك الوافد من أرض الأصنام وما كان يدرى منبع الحكمة التي مهل منها ، فما حدثه عثمان عن الإسلام خشية أن يوعر صدر الرجل الذي أكرمهم وأحسن استقبالهم .

وانطلق عمارة بن الوليد بن الصبرة في طرقات قصر الحاشي فإذا

بالصلبان قد ارتفعت في كل مكان ، وإذا بالحراس ينتشرون في ممراته ،  
حتى إذا ما بلغا قاعة العرش صاح صاح صائح :

— إن عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد سميرى قريش بالباب  
فأمر النجاشي بدحولهما عليه ، فما إن دلعا إلى قاعة العرش حتى خرا  
ساجدين للملك ، فأمرهما النجاشي أن يرفعا رأسيهما . ثم قعد عمرو بن  
العاص عن يمينه وعمارة عن شماله ، وقدما إلى النجاشي فرسا وحية ديباح  
فقبل هديتهما فقالا :

— إن نفرا من بني عمار لروا أرضك فرغوا عما وعن آهتنا ولم يدحولا  
في ديبكم ، بل جاعوا بدين متدع لا يعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى  
الملك فيهم أشراف قريش لتردوهم إليهم .

فقال الملك :

— وأين هم ؟

— بأرضك فأرسل في طلبهم .

ورمق عمرو بن لعاص عظماء الحشنة الذين قدم إليهم الهدايا بظرة  
فقالوا :

— ادفعهم إليهما فهما أعرف بحاهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم  
فيه ، فأسلمهم لهما فليرداهم إلى بلادهم وخدمتهم  
فقال النجاشي في غضب :

— لا والله حتى أعلم أي شيء هم . ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا  
بلادى واحترأوني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان  
في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن  
كانوا غير ذلك معتهم وأحسست جوارهم ما جاوروني .

وأرسل إلى أصحاب النبي — ﷺ — فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض :

— ما تقولون للرجل إذا أجبتوه ؟

— نقول والله ما علمنا وأمرنا بهذا ، كأننا في ذلك ما هو كالي .

وانطلقوا إلى قصر الجاشي ، وفيما هم يحشون في ممرات القصر قال جعفر بن أبي طالب :

— أنا حظيكم اليوم .

وبدعوا باب قاعة العرش فصاح جعفر :

— جعفر بالباب يستأذن ومعه حزب الله .

وبلغ صوت جعفر مسامع الجاشي فقال :

— نعم ، يدخل بأمان الله ودمته .

وأحسن عمرو طلوع الخزيمة ، فهنس في أذن عمارة بن الوليد :

— ألا ترى كيف يكتنون بحرب الله وما أجابهم به ؟

وتقدم المسمون ودخلوا قاعة العرش مرعوي السرعوس دون أن

يسجدوا للملك ، بل ألقوا عليه السلام .

فرأى عمرو أن يوغر صدر الجاشي عليهم فقال :

— ألا ترى أيها الملك أنهم مستكبرون ولم يحيوك بتحيتك ؟

فقال الجاشي عاضيا :

— ما منعكم أن تسجدوا وتحبوني بتحيتي التي أحيا بها ؟

فقال جعفر في ثبات :

— إيا لا تسجد إلا لله عز وجل ، أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية نعبد

الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفوحش ونقطع الأرحام ونسئ الخوار

وبأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا  
نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لئلا نلحد ونعبده ونخلع  
ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق  
الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الخوار والكف عن المحارم  
والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف  
المحصة ، وأمرنا أن نعبد الله ولا مشرك به شيئا .

وأمرنا بالصلاة والركاة والصيام ، فصدقناه وأمانا به واتبعناه على ما جاء  
به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم يشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا  
وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردوننا إلى  
عبادة الأوثان عن عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ،  
فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى  
بلادك واخترتناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نطلم  
عندك أيها الملك .

فقال السجاشي لجعفر :

— هل عندك مما جاء به شيء ؟

— نعم

— فاقرأه على .

— بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا  
سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم  
لكاذبون \* ولنجعلن آثاقهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما  
كانوا يفترون \* ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين  
عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون \* فأجييناه وأصحاب السفينة وجعلناها

آية للعالمين \* وإبراهيم إذ قال لقومه اعدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون \* إنما تعبدون من دون الله آوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رقاً فاهتفوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون \* وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين \* أو لم يروا كيف يبدئ الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير \* قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ الشئ الآخر إن الله على كل شئ قدير \* يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون \* وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير \* والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يمسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم \* فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون \* وقال إنما اتخذتم من دون الله آوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً وما أوأاكم النار وما لكم من ناصرين \* فأمس له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم \* ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النوة والكتاب وآتيناها أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴿١﴾ .

وبان التأثير العميق في وجوه عثمان بن عفان ورقية ابنة رسول الله — ﷺ — والزيبر وأبي سلمة وأم سلمة وأم حبيبة بنت أبي سفيان وكل المسلمين . بينما كان عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة شاردًا فقد أمضى ليله يعب الخمر المعتقة في دير من أديرة البصارى ، فقد وطد عبيد الله

صداقة متينة مع الرهبان وقد يسر له الأمر أنه كان اعتنق النصرانية أيام أن حرح مع ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل للبحث عن دين الحقيفة القويم ، وفاضت أعين النحاشي وأعين أصحابه بالدمع وقال النحاشي :

— هذا والدى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم التفت إلى عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد وقال :

— انطعما فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون .

وأول المحاشي لسفيري قريش وليمة فاحرة ، فهو وإن كان قد رفض سفارتهما إلا أنه يحب أن تظل أواصر الصداقة بينه وبين سادات الحرم الذي يحج إليه العرب جميعا موصولة ، وحضرت الوليمة الملكة فرعها حسن عمارة بن الوليد ف راحت تختلس إليه الطرقات . وفطن عمرو بن العاص إلى ما في أعين المرأة من إعجاب بسليل بنى محزوم فقد سبق له أن رأى مثل ذلك البريق الذي يشع من عيني الملكة يتألق في عيني امرأته ، فوطن النفس على أن يذُر لكرامه من عمارة الذي طعن كبرياءه أمام بحارة السفينة أجمعين . وانتهت حفلة التكريم ، ولما انصرف عمرو بن العاص وزوجه وعمارة قال عمرو :

— والله لآتيه عدا عنهم بما أستأصل به حضراءهم . والله لأحبرنه أنهم يرفعون أن عيسى بن مريم عبد .

ثم غدا عليه من العدا فقال :

— يا أيها الملك ! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم فاستألمهم عما يقولون .

فأرسل إليهم رسوله ، وعلموا من الرسول أن عمرو بن العاص أنبأ النحاشي بما يقولون في عيسى عليه السلام ، فأحسوا صيغها لم ينزل بهم

مثله ، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض :

— ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟

— نقول والله كما قال الله وما جاءنا به نبينا ، كائن في ذلك ما هو كائن .  
وسار المسلمون جميعا في ردهات القصر بين حراس من الأحباش في  
أيديهم الرماح ، كانوا ثلاثة وثمانين بين رجل وامرأة وقد أنزل الله على  
قلوبهم السكينة ، حتى إذا ما بلغوا باب قاعة العرش صاح جعفر بن أبي  
طالب :

— جعفر بالباب يستأذن ومعه حزب الله .

وبلغ صوته مسامع النجاشي فأذن له ، فدخل المسلمون وأخذوا  
أماكنهم وقد أطرقت رقية ابنة رسول الله ﷺ — برأسها ، فجماعها  
الآسر كان يجذب إليها الأبصار وكانت نظرات الرجال تؤذيها .  
واتخذ المسلمون مجالسهم فالتفت إليهم النجاشي وقال :

— ما تقولون في عيسى بن مريم ؟

فقال جعفر بن أبي طالب :

— نقول فيه الذي جاءنا به نبينا .

واعتمد جعفر ثم راح يقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم \* كهيعص \*  
ذكر رحمة ربك عبده زكريا \* إذ نادى ربه بداء خميا \* قال رب إني وهن  
العظم سني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا \* وإني هفت  
الموالي من ورأي وكانت امرأتى عاقرا فهب لي من لدنك وليا \* يرثني  
ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا \* يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه  
يحيى لم نجعل له من قبل سميا \* قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتى  
عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا \* قال كذلك قال ربك هو على هين وقد

مخلقتك من قبل ولم تك شيئا \* قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم  
الناس ثلاث ليال سويا \* فخرج على قومه من المخراب فأوحى إليهم أن  
سبحوا بكرة وعشيا \* يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا \*  
وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا \* وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا \*  
وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا \* واذكر فى الكتاب مريم  
إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا \* فاتخذت من دوسم حججا فأرسلنا إليها  
روحنا فتمثل لها بشرا سويا \* قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا \*  
قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا \* قالت أنى يكون لى غلام  
ولم يمسننى بشر ولم أك بعيا \* قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله  
آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقصيا \* فحملته فانتبذت به مكانا قصيا \*  
فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مات قبل هذا وكنت سريا  
منسيا \* فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا \* وهزى إليك  
بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جيا \* فكلى واشربى وقرى عينا ، فإما  
ترين من الشر أحد فقولى إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا \*  
فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا \* يا أخت هارون ما  
كان أبوك أمرا سوء وما كانت أمك بغيا \* فأشارت إليه قالوا كيف نكلم  
من كان فى المهد صبيا \* قال إني عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا \*  
وجعلنى منار كآئين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا \* وبرا  
بوالدى ولم يجعلنى جبارا شقيا \* والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم  
أبعث حيا ﴿١﴾ .



وتعلقت أعين المسلمين بشمتي جعفر ، أبيضت جعفر ويتهى من قرائته أم يستمر في التلاوة ويوعر صدور الرهبان الذين جلسوا يصعدون وقد فتحوا كتبهم أماهم كأنما كانوا يقاربون ما فيها بما يرتنه ابن عم السى الأُمى الذى قال في المسيح قولاً عظيماً ، واستمر جعفر في التلاوة قبانت الراحة في وجوه عثمان بن عفان ورقية والريز والمسلمين جميعاً إلا عبيد الله ابن جحش فقد نظر إلى زوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان نظرة كلها صيق بجعفر وما يقرأه . كان وجهه باسماً كوجوه قسيسى الحبشة : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾ \* ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قصى أمراً فيما يقول به كن فيكون \* وإن ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم \* فاحتلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم \* أسمع بهم وأبصر يوم يأتونها لكن الظالمون اليوم في صلال مبين \* وأنذرهم يوم الحسرة إذ قصى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون \* إنا نحن رب الأرض ومن عليها وإليها يرجعون ﴿ (١) .

فضرب النجاشي يده إلى الأرض ثم أخذ منها عوداً ثم قال :

— ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود .

فراح الأساقفة يتحدثون بلعنتهم في غضب ، وراح عبيد الله بن جحش يحدث من حوله منهم كأنما كان يعطف عليهم وعلى قضيتهم ، ونهر النجاشي أساقفته ثم التفت إلى المسلمين وقال :

— والله أتم آمنون بأرضى . من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم . وما أحب أن لي جيلاً من ذهب وأنى أذيت رجلاً منكم .

والتصت إلى كاتم سره ومن عنده من خدمه وقال :  
 — ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني  
 الرشوة حين رد عليّ ملكي فأخذ الرشوة فيها ، وما أطاع الناس فني  
 فأطيعهم فيه .  
 فحرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاء به ، فالتفت عمرو  
 إلى عمارة وقال له :  
 — أنت رجل جميل والنساء يحببن الخمال ، فعرض لزوجة النجاشي  
 لعلها أن تشمع لنا عنده .  
 وملاً ذلك القول عمارة غرور افراح يتعنى بشعر خولة بنت ثابت أخت  
 حسان بن ثابت الذي قالته فيه :

يا خليلي نابني سُهدي	لم تسم عيني ولم تُكْدي
فشراني ما أُسيغ وما	أشتكى ما بي إلى أحد
كيف تلحوني على رجل	أنس تلثذه كبسدي
مثل صوء البدر صورته	ليس بالزميلة التكد
مر بنى آل المغيرة لا	حامل يكس ولا جحد
نظرتُ يوما فلا نظرت	بعده عيني إلى أحد
ثم راح يترنم بشعره الذي قاله فيها :	

تناهى فيكم وجدى	وصدّع حُكم كبدي
فقلبي مسعّر حزنا	بنسات الخال في الخد
فب لاق أخو عشق	عشير العشر في جهدي

واسل عمارة إلى حيث كانت روجة النجاشي ، ولعب بعقل المنكة  
 الرجل الجميل الذي أرادت قريش يوما دفعه إلى أبي طالب بدلا عن النبي

عليه السلام إذا قتلوه ، وتكرر تردده عليها حتى أهدت إليه من عطرها وذات يوم دخل عندها فأسفل عمرو بن العاص إلى النجاشي فقال له :  
— إن صاحبي هذا صاحب ساء ، وإنه يريد أهلك وهو عندها الآن .  
فأربد وجه النجاشي وتدفقت الدماء حارة في عروقه ولم يستطع صبرا ، فانطلق كعاصفة مزججة إلى جناح زوجته فألقى ألوان الحراس تغيض والحوارى يرتجف من هول المفاجأة وقد عقدت الدهشة ألسنتهن .  
وفتح باب مخدع الملكة في ثورة فإذا بعمارة عندها ، فأمر بإلقاء القبض عليه وهم يقتله لولا خشية أن تلوك ألسنة الشعب قصة الخيانة الشعة فقال :

— لولا أنه جارى لقتله ، ولكنى سأفعل به ما هو شر من القتل .  
وأمر بحمله ليلقى في البرارى بهم على وجهه بين الوحوش يرد معها إذا وردت ويصدر معها إذا صدرت ، يعالب الموت والموت يغلبه حتى آخر الأنفاس .

وعاد عمرو بن العاص وزوجه إلى مكة بعد أن أخفقت سفارته وانتقم من أهدر كرامته على أعين الناس شر انتقام ، وبقي المسلمون في خير جوار وفي خير دار يعملون في التجارة آمين و يقيمون شعائر دينهم في سلام .  
وبلغ أبا موسى الأشعري أن نبيا قام في مكة يدعو إلى الله ، واستمع هو ونفر من اليمن إلى ما أنزل إليه من القرآن فأنشروا صدورهم للإيمان ، فخرج هو ونحو خمسين رجلا في سفينة مهاجرين إليه — عليه السلام — ، فألقته السفينة إلى أرض الحبشة فوجدوا جعفرا وأصحابه ، فأمرهم جعفر بالإقامة فاشتد بهم ساعد المسلمين في أرض الهجرة .  
وصاق رجال الدين في الحبشة بما قرأ جعفر بن أبي طالب وزاد في

ضيقهم موافقة النجاشي على أن المسيح رسول الله ، فراحوا يؤلبون الناس عليه حتى مشى الناس إلى القصر وقالوا للنجاشي :  
— إياك فارقت ديننا .

وحرحوا عليه . ونشب القتال بين النجاشي ومن ثاروا عنيه فانضم المسلمون إلى الرجل الذي أكرم مشواهم ، وقد حزنوا حزنا شديدا تخوفاً أن يظهر الرجل الذي يقود الثورة على النجاشي فلا يعرف من حقهم ما كان النجاشي يعرف منه .

وسار إليه النجاشي وبينهما عرص الليل بعد أن هيا شعمر وأصحابه سفنا وقال :

— اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هزمت فامضوا إلى حيث شئكم ، وإن ظفرت فاثبتوا .

ودارت المعركة بين الفريقين والمسلمون في سفنهم يرقبون القتال الناشب وقلوبهم واجفة ، يدعون الله في حرارة أن يؤيد النجاشي بنصره ، وماج الجلود بعضهم في بعض فلم يعد من اليسر تمييز قوات النجاشي ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : —

— من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟

فقال الزبير بن العوام :

— أنا

— فأنت .

فمحواله قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى حرح إلى ناحية البيل التي بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . وراح أصحاب رسول الله ﷺ — يتהלون إلى الله تعالى أن يظهر النجاشي على عدوه

والتحكين له في بلاده .

ويبأ هم يمدون أبصارهم ناحية المعركة متوقعين لما هو كائن إذ طلع الربير وهو يسعى فيحرك ثوبه ليروه وهو يقول :  
— ألا أبشروا ، فقد ظفر النجاشي وأهلك الله عدوه ويمكن له في بلاده .

وتهللت أسارير أصحاب رسول الله ﷺ وغمر الفرح أفئدتهم واستشروا بنصر الله للنجاشي ، ورجع النجاشي إلى عرشه وقد أهلك الله عدوه ويمكن له في بلاده واستوثق عليه أمر الخشنة ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ — عنده في حير منزل .

ومرت الأيام والمسلمون جميعاً يمارسون شعائر دينهم راضين مستبشرين إلا عبيد الله بن جحش فقد كان يختلف إلى الرهبان ويمارس معهم صلواتهم ، فقد كان حديث عهد بالنصرانية قبل أن يدخل في الإسلام ، وكانت فكرة تحسد الآلهة تستهويه أكثر من فكرة الإله المحدث الذي ليس كمثله شيء ، وكانت مخمور الكنائس المعتقة تبعث الشبهة في نفسه

ودخلت أم حبيبة بنت أبي سفيان ونامت فإذا بها ترى عبيد الله بن جحش روجها بأسوأ حال ، وقد راعها تغير صورته حتى إنها أنكرته ، وهبت من نومها مفروعة تعوذ بالله من الشيطان ، وستمر قلبها كجناح حمامة بين جنبها من شدة الخوف ، وظلت الرؤيا تلح عليها حتى أشرق الصباح .

وراحت تطرإ إليه وهي في قلق ، وهمت بأن تقص عليه رؤياها فإذا به يقول :

— يا أم حبيبة إلى نظرت في هد الدين فلم أر دينا خيرا من دين النصرانية ، وقد كنت دنت بها ثم دخلت في دين محمد ثم خرجت إلى دين النصرانية .

فقلت أم حبيبة في قلق وحواف :

— والله ما خير لك .

واستمرت تقص عليه ما رأت في مسامها وتحاول أن تشنيه فلم يحفل بذلك ، وأكب على الخمر يشربها حتى مات . وبقيت أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب على دينها ، بل جعلتها ردة زوجها تحتهد في العبادة والتقرب إلى ربه وعمضية وقتها في قراءة القرآن ، وذات ليلة يبا كانت عارقة في نومها رأت في المنام كأن آتيا يقول لها :

— يا أم المؤمنين .

ففرغت وراحت تفكر في ذلك الهاتف : أيتروها رسول الله ﷺ ؟  
إما لن تكون أما للمؤمنين إلا إذا تزوجها عليه السلام . ترى أنتحقق رؤياها ذات يوم ؟

## ١٧

كان أصحاب رسول الله ﷺ — الذين هاجروا إلى الحبشة يشتغلون بالتجارة ، فكاثروا بيطلقون إلى اليمن يحضرون أسواقها ثم يعودون إلى الحبشة عما اشتروا من أسواق صنعاء ونجران من سلع يبيعونها في أكسوم عاصمة أرض النجاشي أو فيما جاورها من البلاد .

وكان حروجهم إلى اليمن في الشتاء ليلتقوا بالخارجين من قريش

ليتسموا أخيار بينهم عليه الصلاة والسلام ، أو ليختلوا ببعض المسلمين الذين حرجوا في قافلة قومهم ليسمعوا منهم ما أُرسل على الرسول ﷺ — من آيات الله البينات حتى يحفظوه في صدورهم فيتلوه على إخوانهم المتعطشين إلى قرآن الله في أرض العربية والحسين والأشواق .

وكان اجتماعهم بأهل الحرم يحرك فيهم الشوق إلى أول بيت وضع للناس ، فكانوا يقرعون عاليًا في صلواتهم التي كانوا يقومون بها عند شروق الشمس وعند الغروب : ﴿ لا إله إلا الله ﴾ فيلهم رحلة الشتاء والخصيف \* فليعبدوا رب هذا البيت \* الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴿ (١) . كانت تلك السورة تثير في نفوسهم أعمق الآلام ، فقهبش الذين من الله عليهم بحرم آمن يأمن فيه الطير بيما يتحطف الناس من حولهم ، قد اضطهدوهم حتى فروا بديهم من سوء العذاب .

وكانوا يمرون بكنيسة أبرهة التي بها أفعم ما يكون الباء وجلب لها الرحام من أرض الروم والصناع المهرة من كل مكان ، والتي كنت يوم أن بها لحاشي الحشة : « إني قد بيت لك كيسة لم يس مثلها أحد ، ولست تاركا العرب حتى أصرف ححهم عن الكعبة إليها » فكانوا يستشعرون عزا ، بل كانت تسرى فيهم قوة روحية تريدهم إيمانًا وصبرًا على احتمال ما هم فيه من تشريد . فأبرهة قد ساق القيلة والخيوش ليدك الحرم ، ولكن الله صان بيته لأنه كان سبحانه وتعالى يعده لتشرق منه رسالة النور لتعمر العالمين .

كانوا يمدون أعينهم إلى كيسة أبرهة ويتلون : ﴿ ألم تر كيف فعل

ربك بأصحاب الفيل \* ألم يجعل كيدهم في تضليل \* وأرسل عليهم طيرا  
أبابل \* ترميهم بحجارة من سجيل \* فجعلهم كعصف ما كول ﴿١﴾ .  
فكانت أفدتهم تشرق بالأمل واليقين والإيمان بأن نصر الله قريب .  
إن عجاشي الحيشة الذي بنى أبرهة كيسته كسبا لوده ، والذي قرأ أن  
يسير بحيشه شمالا باسمه حتى تلتقى جبرش نصارى الحبوب بحيشوش  
نصارى الشمال ، مقوصا مراكز عبادة لعرب حبيما وهو في طريقه إلى  
منبع ديانة النصارى ، رافعا الصليب على كعبات الوثنيين ، قد آواهم  
وأسمهم ، بل سمع ما يقولون في السيد المسيح ونصرهم على رهبانه  
وقساوسته ورجال الدين في أكسوم .

كانوا يمشون في الأسواق يبيعون ويتاعون ، وكانوا يجلسون إلى من  
يأس إليهم من النصارى والوثنيين يعرضون عليهم الإسلام ويقراءون عليهم  
القرآن ، وكان الجدل يشتد بينهم وبين النصارى والرهبان ، وكان الحوار  
يحتدم أحيانا ، ولكن الرهبان كانوا على الدوام يعجبون من أين جاء هؤلاء  
العرب المسلمين العلم والحكمة وقد كانوا لا يدرون ما الكتاب وما الإيمان  
وما جوهر الدين !

وكانوا إذ ما انتهت أيام أسواق صنعاء شدوا الرحال إلى محران وكانت  
تبعد عن صنعاء عشر مراحل . إنها أرض ذات نخل وأشجار بها جبل من  
حديد ، وكان يضرب منه سيوف كثيرة وكانت الكنائس منتشرة فيها ،  
فكانوا يشعرون السيوف ليبيعوها في الحيشة ويحاورون النصارى والرهبان  
في الدين ، وينبثون الناس أن الله قد بعث محمدا عليه الصلاة والسلام بشيرا  
ونذيرا .



وكانوا يقرعون على الرهبان القرآن فيقولون إليهم أسماعهم وهم في دهشة  
 مما يسمعون ، وذات ليلة راح رجل من أصحاب محمد ﷺ — يتلوا :  
 ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ \* والسماء ذات البروج \* واليوم الموعود \*  
 وشاهد ومشهود \* قتل أصحاب الأخدود \* النار ذات الوقود \* إدهم  
 عليها قعود \* وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود \* وما نقموا منهم إلا أن  
 يؤمنوا بالله العزيز الحميد \* الذى له ملك السماوات والأرض والله على كل  
 شيء شهيد \* إن الدين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب  
 جهنم ولهم عذاب الحريق \* إن الدين آمرا وعملا الصالحات لهم جنات  
 تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير \* إن بطش ربك لشديد \* إنه هو  
 يبدئ ويعيد \* وهو العصور الودود \* ذو العرش المجيد \* فعال لما يريد \* هل  
 أناك حديث الخنود \* فرعون وثمود \* بل الدين كبروا فى تكذيب \* والله  
 من ورائهم محيط \* بل هو قرآن مجيد \* فى لوح محفوظ ﴿ ١١ ﴾ . وما انتهى  
 من تلاوته حتى استبدت الحيرة بالسامعين ، فمن أين لأهل مكة هذا العلم  
 وعهدهم بهم شعراء كل همهم التفاخر أو الهجاء أو التشبيب ؟ وكان  
 لشعرهم جرس ورنين ولكن لم تكن له حلاوة ما يقرأ أصحاب النبی علیه  
 السلام ولا سحره ولا عمقه ولا إعجازه .

وداع فى نجران أمر الرسول الذى يزعم أنه يكلم من السماء وأنه بعث  
 فى مكة ، وانتشر نبؤه فى اليمن . ودار الجدل حول صدق رسالته فقال فريق  
 منهم إنه النبى الذى بشر به موسى وعيسى وأنه الفراقيلط ، وراح فريق  
 ينكر ذلك القول ، واشتد الحوار بينهم ثم رأوا أن يعيشوا عشرين رجلا منهم

يكنموه ويسألوه .

وخرج القسيسون والرهبان إلى مكة وسألوا عن النبي — ﷺ — .  
فقبل لهم إله في المسجد ، فاطبقوا إلى الحرم وأرشدوا إليه فإذا هم أمام  
رجل فوق المربع ، بعيد ما بين المنكبين ، غريب الشعر ، تلمس جمته  
شحمة أذنيه ، أدعج العينين ، أهدب الأشعار عليه مهابة ووقار ، يكاد أن  
يشع من وجهه النور ، ما أسرع أن تقع محبته في القلوب ؛ فجلسوا إليه  
وكلموه وسألوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ينظرون إلى أنبي  
القاسم والرهبان والقسس من حوله يصغون إلى صوته الرصين .

وراح يتكلم بكلام بين فصل ، ثم قرأ عليهم القرآن فاستشعروا كأنما  
قد تعرضوا للفحات رحمة الله ، فاشرحت صدورهم بأنوار اليقين ، فإذا  
هم على نور من ربهم وإذا بالأنهم تتعجل أن تنطق شهادة الحق المبين .  
وفاصت أعينهم من الدمع ثم استجابوا إلى الله وآموا به وصدقوه ،  
وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره . ورأى أبو جهل  
توقيرهم لأنبي القاسم فتحرك غضبه وكاد ينمحر عيظا لما عرف أنهم قد  
شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فلما قاموا عنه اعترضهم في  
نفر من قريش فقالوا لهم :

— حبيكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون  
لهم لتأتوهم بحجر الرحل ، فلم تطمئن محالكم عنده حتى فارقتم دينكم  
وصدقتموه ما قال ! ما يعلم ركبنا أحق منكم .  
فقالوا لهم :

— سلام عليكم لانجها لکم . لنا ما يح عبه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل  
أنفسنا خيرا .

لو كان الأمر أمر الدين فيها هم هؤلاء رهان الصبارى وقسيسوهم يتبعون النسي الأمي الذي يحدونه مكتوبا عندهم في الإحليل وما كانوا أعلم منهم بأمر الرسالة والرسول ، ولكن لم تكن العداوة بسب الآلهة بل كانت خوفا من أن يذهب بو هاشم وبو المطلب بالمحد كله وأن يصبح سادات بني أمية وبني محزوم وبني تيم ورجال بيوت شرف قريش العشرة اتباعا لبيتم قريش الذي تعلل نفوده في الحبشة وفي اليمن .

أصبح شأن أبي القاسم أخطر مما كانوا يتصورون ، فنجاشي الحبشة قد رفض طلب قريش وأبى أن يسلم المسلمين الذين لادوا به ، ولم يكتف بذلك بل رد هداياهم ردا مهينا . ونصارى اليمن قد شدوا الرحال إليه وما كانوا يجلسون إليه حتى آمنوا بصدق رسالته واستجابوا له ، فبات القضاء على هذه الفتنة شيئا لا مفر منه إن أرادوا أن يبقوا على سلطانهم في مكة

اضطهدوه وعذبوه ولكنه صبر على الاضطهاد والتعذيب ، أغروا به سبهاهم فاحتمل الأذى واستمر في دعوته دون أن يدب اليأس في قلبه . وأرادوا قتله ولكن عشيرته وأهله قاموا دونه ، وحوصروا في شعب أبي طالب ونزل بهم أقسى ألوان العذب فما وهنوا ولا فكروا في أن يسلموه .

إنه أبو طالب الذي يحميه ، إنه هو الذي يحول بينه وبين طالبيه ، فلو ذهب أبو طالب لأصبح القضاء على أبي القاسم وعلى دعوته أمرا ميسورا . وما دار بخلداهم أنه في رعاية الله ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (١) .

كان البصر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأمّية بن خلف وعنه بن أبي معيط وأبو سفيان بن حرب وأعداء محمد حاليين في دار البدوة يسحرون من ابن أبي كبشة الذي سحر أتباعه بقرآنه ، فقال قائل منهم .

— إن محمدا سحر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر ويباهم عنه عدا ، أو يأتهم بما هو أهون عليهم ، وما هو إلا مفتر يقوله من تلقاء نفسه .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* قُلْ بَرُّهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لَبِثْتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَدَى وَيُشْرَى لِلْمُسْمِينَ ﴾ (١) .

كانوا يستهزئون بمحمد عليه السلام ، ويحاولون أن ينالوا من القرآن المجيد ، فكان الحوار محتدما بينهم وبين الرسول الكريم ، وكان القرآن يلزمهم الحجة ولكنهم كانوا يستكبرون ﴿ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ \* وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رِبْكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣) .  
﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْجَمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحَ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَقِّقِ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٤) .

(٢) الأنفال ٣١ — ٣٢ .

(١) السحل ١٠١ — ١٠٢ .

(٤) الشورى ٢٤ .

(٣) النحل ٢٤ .

﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ \* وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان يحجهم إلا أن قالوا انتوا بأياتنا إن كنتم صادقين ﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١) .  
كانوا يسحرون إذا ما قال لهم رسول الله ﷺ — إنيهم لمعوثون ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ (٢) . ﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ﴾ (٣) .

وقالوا إن محمدا قد سحر بأصحابه لما جعلهم يهاجرون إلى الحبشة في سبيل وهم كبير ، فحاء القرآن الكريم يوصحهم ما أعد الله لهم آخري لو كانوا يعقلون : ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما صدموا سوئتهم في الدين حسنة والأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ (٤) .

كانوا يجادلون بالسننهم ولكنهم كانوا في حيرة من أمر ابن عبد الله ، فمن أين له ذلك العلم وتلك الحكمة التي تتدفق من بين شفتيه وقد لث فيهم من قبل عصر ، وما اشتغل بأمر الدين ؟! وكان القرآن يوصح لهم ما عاب عنهم : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا هدى به من شاء من عبادنا وإليك لنهدي إلى صراط مستقيم ﴾ \* صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ (٥) ﴿ هل يظنون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر

(١) الحاتية ٢٤ — ٢٦ . (٢) الحل ٣٨ .

(٣) الحاتية ٣٢ . (٤) الحل ٤١ .

(٥) الشورى ٥٢ — ٥٣ .

ربك كذلك فعل الدين من قلمهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿١﴾ .

وكانت تقشعر جلودهم إذا ما برل فيهم قول شديد ، ولكم كانوا يحاولون أن يبدوا هادئين : ﴿ويل لكل أثم \* يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم \* وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هروا أولئك لهم عذاب مهين \* من وراءهم جهنم ولا يعنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم \* هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم﴾ ﴿٢﴾ .

وكان رسول الله — ﷺ — يصيق بما يقولون ولكن الله عز وجل قد أنزل عليه : ﴿فاصر كما صير أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ ﴿٣﴾ .

كانوا يتخذون آيات الله هزوا ولكم كانوا كانوا يرثقون فرقا من أن يصغى الناس إلى القرآن المبين ، فلا جرم أنهم كانوا يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب .

قدم الطميل بن عمرو الدوسي مكة وكان رجلا شريفا شاعرا لبيبا فقد داع صيته في اليمن ، فخشيت قريش أن يلتقى بالسبي — صلوات الله وسلامه عليه ، وأن يجلس إليه ويلقى إليه السمع فيستولى على قواده بسحر قرآنه . هرعوا إليه وقالوا :

(٢) الجانية ٧ — ١١ .

(١) المحل ٣٣ .

(٣) الأحقاف ٣٥ .

— يا طفيل إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعرض بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإما قوله كالسحر .. يفرق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وأخيه وبين الرجل وزوجته ، وإنا نحشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا نكلمه ولا نسمع منه شيئا .  
وما زالوا به حتى أجمع ألا يسمع منه شيئا ولا يكلمه حتى حشا في أذنيه حين غدا إلى المسجد قطعا ، فرقا من أن يبلغه شيء من قوله وهو لا يريد أن يسمعه .

فغدا إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ — قائم يصلى عند الكعبة فقام منه قريبا ، فإذا بسمعه يرهف وإذا بأذنيه تلتقطان ما يقرأ رسول الله عليه السلام من آيات الله البينات ، وإذا به يحس حلاوة ما مس أذنيه من كلام حسن فقال في نفسه :

— واثكل أمى ! والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما بمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته

وجلس يرقب رسول الله ﷺ — من طرف حفى ، فلما بهصر ليصرف إلى بيته قام الطفيل فاتبعه ، حتى إذا ما دخل بيته دخل عليه فقال :

— يا محمد إن قومك قالوا لى إنا نحشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا نكلمه ولا نسمع منه شيئا ، فوالله ما برحوا يحوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسفى<sup>(١)</sup> لئلا أسمع قولك ، ثم أى الله إلا أن يسمعنى

(١) الكرشف : القطن .

قولك فسمعته قولاً حسناً ، فاعرض على أمرك .

فعرض عليه — ﷺ — الإسلام ثم راح يتلو عليه القرآن :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* وَالطُّورِ \* وَكِتَابِ مَسْطُورٍ \* فِي رَقٍ  
مَشْشُورٍ \* وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ \* وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ \* وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ \* إِنَّ  
عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ \* مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ \* يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا \* وَتَسِيرُ الْجِبَالُ  
سِيرًا \* فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي حُوصٍ يَلْعَبُونَ \* يَوْمَ يُدْعَوْنَ  
إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا \* هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ \* أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا  
تَبْصُرُونَ \* أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنْ ثَخَرْتُمْ مَا كُنْتُمْ  
تَعْمَلُونَ \* إِنْ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ \* فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ  
عَذَابَ الْجَحِيمِ \* كَانُوا وَأَشْرَبُوا هَيْثَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُرُرٍ  
مَصْصُوفَةٍ وَوُجْنَاهُمْ مَحْجُورَةٌ \* وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا  
بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلٌّ امْرَأٌ مِمَّا كَسَبَ رَهِيْنٌ \*  
وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ \* يُتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا  
تَأْنِيْمْ \* وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غُلَامَانِ هُمُ كَأْسُهُمْ تَلْوُثًا مَكْنُونٌ \* وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى  
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ \* قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْنًا مُشْفَقِينَ \* فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا  
عَذَابَ السَّعِيرِ \* إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ \* فَذَكَرَ فَمَا أَنْتَ  
بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ \* أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَدُونِ \*  
قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ \* أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ  
طَاغُونَ \* أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ \* غَلِيظَاتُورًا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا  
صَادِقِينَ \* أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ \* أَمْ خُلِقُوا مِنَ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ \* أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطَرُونَ \* أَمْ لَهُمْ



سَلَّمَ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ فَيَأْتِ مُسْتَمْعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مِنْ \* أَمْ لَهُ الْبَيَاتُ وَلَكُمْ  
النُّبُؤ \* أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَحْرَافُهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ \* أَمْ عِنْدَهُمُ الْعَيْبُ فَهُمْ  
يَكْتُمُونَ \* أَمْ يَرِيسُونَ كَيْدَ هَازِلِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ \* أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ  
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ \* وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا  
سَحَابٌ مَرْكُومٌ \* فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ \* يَوْمَ لَا  
يُنْفِي عَنْهُمْ كَيْدَهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ \* وَإِنْ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ  
ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ  
بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ \* وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ <sup>(١)</sup> .

وَاسْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ — يَتْلُو عَلَيْهِ الْقُرْآنَ وَالشَّاعِرُ اللَّيْلِيُّ يَصْغِي  
إِلَيْهِ وَهُوَ مَأْخُوذٌ يَسْتَشْعِرُ كَأَنَّ الْحِجَابَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَلَكَوَتِ  
السَّمَاءِ يَرْتَفِعُ بِلُطْفِ حَمِيٍّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنَّ شَيْئًا غَرِيبًا يَلْمَعُ فِي قَلْبِهِ مِنْ  
وَرَاءِ سِتْرِ الْعَيْبِ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ ، كَانَ يَبُورُ اللَّهُ يَسْكُبُ فِي نَفْسِهِ لَتَتْلَأُ  
فِي هَوَادِهِ حَقَائِقُ الْأُمُورِ ، فَانْكَشَفَ لَهُ الْأَمْرُ وَفَاصَتْ عَلَى صَدْرِهِ أَضْوَاءُ  
الْيَقِينِ ، فَقَدْ كَانَ يَطْلُبُ الْحَقَّ فَهْدَاهُ اللَّهُ السَّبِيلَ ، فَقَالَ وَهُوَ يَتَهَلَّلُ بِالْبَشَرِ  
وَالْتَسْلِيمِ :

— أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

وَسَادَتْ لِحْظَةً صَمْتُ مَلُؤَهَا أَمْعَالَاتٌ تَفْجَرَتْ مِنْ كُوزِ الْبَرِّ جَعَلَتْ  
الدَّمَاعَ مِنْ أَعْيُنِ الرَّجُلَيْنِ يَبْغِضُ . وَاحْتَلَجَتْ الْخَوَاطِرُ فِي نَفْسِ الطُّفِيلِ فَقَالَ :  
— يَا سَيِّدَ اللَّهِ إِنِّي لِمَرَّةٍ مَطَاعٌ فِي قَوْمِي ، وَأَنَا رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ وَدَاعِيهِمْ إِلَى  
الْإِسْلَامِ .

وإطلاق الطفيل إلى ليس يحس أنه قد خلق خلقاً آخر ، جاء إلى مكة وهو من عباد ذى الكفىين « مزهواً بمكانته في قومه » فأدابه يعود وهو من عاد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوياً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .  
خرج من قبيلة دوس وهو معجب بأشعاره تتمتع أو داجه عروراً إذا ما سمع المترنمون ينشدون قصائده ، فأدابه بعد أن سمع كلام الله وشرح الله صدره للإسلام قد جعل دبر أذنيه كل ما نظم من قريض وأصبحت أمنيته أن يقرأ القرآن في دوس ، بل أن تتردد تلاوته في جبال اليمن وسهولها ووديانها بله في العالمين .

وخرج إلى قومه حتى إذا كان بفرجة بين جبلين تطلعه على القوم المازلين على الماء ، راح يتبهاً ليعلم قومه بالنبأ العظيم ، ليقول لهم : إن ربكم واحد لا إله إلا هو فاعبدوه ، وراح يهبط إليهم من الثنية حتى حاءهم فأصبح فيهم .

فلما نزل أتاه أبوه وكان شيخاً كبيراً فراح يصمه إلى صدره ويقبله في شوق شديد ، فقال له الطفيل :

— إليك عنى يا أبت فلست منك ولست منى .

فقال الشيخ في دهش :

— ولم يابى ؟

— أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ .

وراح الطفيل يدعو أباه إلى الإسلام ويتلو عليه بعض آيات الذكر المبين ، فإذا بالشيخ يحس كأنما ما يسمع يرفعه إلى السماء ليقرع أبوب الملكوت ، إنه كان يستمع بسر قلبه فأدابه يشاهد ما وراء حواسه ، وإذا به في لحظة يكشف عن جوهر وجوده الإنساني ويرع إلى السمو إلى السبع

الروحي الفياض الذى يهذى إليه القرآن المجيد ، كانت حياة الشيخ عبدا قبل أن يأتبه ابنه باليقين ، كان يحبط فى الظلمات حتى أشرق عليه النور من مكة ، كان يسجد لدى الكمين ويحج إلى الطائف ليتمسح باللات ثم يشد الرحال إلى الحرم ليقدم إلى العرى ومائة وهب والأصنام الأخرى القرايين ، مع أن الله معه أقرب إليه من حبل الوريد .

وملأت الدموع عيني الشيخ وقال فى افعال شديد :

— أى بنى ، فدينى دينك .

— فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال حتى أعلمك ما علمت .

وانطلق الشيخ فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء ، فراح الطميط بعرض عليه الإسلام ، فأحس الشيخ كأن قوة رحمة تحق الزائف من وجدانه وتثبت الحق وتحرره من العبودية والذلة والمسكنة ، وتمنحه حرية السمو إلى ما فوق الأهواء وما عاش فيه من خرافات .

كان ما يقوله ابنه يعبر عن صوت العقل ، إنه النزاهة الحقة ، إنه اليقين الذى ما بعده يقين ، إنه الصراط المستقيم ، إنه كشف حقيقة نفسه فى نور الله ، فإذا به بظن إلى أن الحياة دون الله لا معنى لها ، وأن لا سعادة أبدية إلا بالله ، فقال وهو يتقد حماسه :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وأنته صاحبه متطلقة الوجه يلوح عليها الشوق الشديد ، فما إن رآته حتى ارتمت عليه فقال لها :

— إليك عني ، فليست منك وليست منى .

— لم ؟ بأنى أنت وأمى .

— قد هرق بينى وبينك الإسلام ، ونابعت دين محمد — ﷺ — .

وراح يصعب لها ما كان بينه وبين قريش وكيف أن الله أبقى إلا أن يسمعه  
قراءة محمد عليه السلام ، ثم قال :  
— فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أعدل منه ، فأسلمت  
وشهدت شهادة الحق .  
فقالته وهي ترنو إليه في حب :  
— فديني دينك .

— فادهبي إلى حمي ذي الشرى فتطهري منه .  
كان ذو الشرى إله النبط العظيم وكان له بعد هائل في البتراء ، كان  
عرب الحبوب يحجون إليه وكانوا يطلقون عليه « ذا الشرى ورب  
البيت » ، وقد اتخذت قبيلة دوس ذا الشرى إلهاً ووضعوه في مكان في بطن  
جبل يهبط منه ماء قليل ، وقد اندثرت عبادة ذي الشرى في الشمال بعد أن  
قضى الرومان على مملكة أحفاد إسماعيل وبقيت في بعض قبائل اليمن .  
ووقفت امرأته مترددة وأحس أنها تحشى عصبه وأن ينزل بأبائها  
السوء ، فقال لها :

— بأى أنت وأمي ، أتخشين على الصبية من ذي الشرى شيئاً ؟  
ولم تبس بكلمة فقال لها :  
— لا ، أنا ضامن لذلك .

فذهبت فاعتسلت ثم جاءت ، فعرض عليها الإسلام وقرأ القرآن فإذا  
بها يستشعر لذة لا كدرها ، ودأقت حلالة الإيمان فاشتأقت إلى سماع  
المريد من آيات الله البينات ، فالشوق بعد الذوق ، ومن لم يذق لم  
يعرف ، ومن لم يعرف لم يشتق ، ومن لم يشتق لم يطلب ، ومن لم يطلب  
لم يدرك ، ومن لم يدرك بقي مع المحرومين من نعمة الله .

والبسها الله لباس الإيمان فصفا قلبها ، وانكشف فيه في لحظة من أسرار الله في ملكوت السماوات والأرض ما لا تقدر عليه في عشرات السنين ، فإذا بها تنحذب إلى السماء ، وإذا بها تحس قربا حقيقيا من الله ، وإذا بأوار المعرفة تشرق في قوادها فهي على نور من ربها ، فقالت والعبرات تسيل على خديها :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فقام إليها الطفيل يضمها إليه في قوة كأنه وجدها بعد طول غياب .  
 وخرج الطفيل بن عمرو الدوسي إلى قومه فرحبوا به ، وألقوا إليه سمعهم ، فقد حسبوا أنه سيسبدهم بعض شعره ، فإذا به يباهم عن عبادة ذي الكفين والآلهة الأخرى ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ويأمرهم أن يهجروا ما وجدوا عليه آباءهم ، فإذا بهم يقولون كما قال كمار قريش :  
 — إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون .

وكان بين قومه رجل آدم ، بعيد ما بين المسكين ، ذو صغيرتين أحرق الثنيتين ، أبيض لين ، لحيته حمراء ، يصعى إلى الطفيل في اهتمام شديد ، وقد استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه ، فعرض لفتح رحمة ربه ، وافتتح الله عليه من مرايا لطفه ، فإذا في قواده سراج يزهر ، وإذا بباب الفوز الأكبر يفتح على مصراعية ، وإذا به ينطلق في طريق الوصول إلى الله .

وأبطأ قوم الطفيل عليه فاصرف مطرقا حزيا ، فقد ساء وهو المطاع في قومه أن يخلقوا أعتدتهم دون الحق ، واتبعه ذلك الرجل ذو اللحية الحمراء ، حتى إذا دخل بيته دحس عليه فقل :  
 — اعرض على الإسلام .

فعرض عليه الإسلام وتلا عليه القرآن ، فقال الرجل بعد أن أبار الله بصيرته :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله.

كان الرجل أباه هريرة ولم يكن أكثر من راعي غنم ، ولكن الطمیل بن عمرو قد سر بإسلامه سرورا عظيما ، فقد كان أول من استجاب لدعوته من غير أهله . ولو عرف الطمیل في ذلك الوقت مدى ما سيرفع الإسلام من شأن أبي هريرة لكان سروره أعظم وأشد .

## ١٩

رد أبو بكر جوار سيد الأحابش ورصى بحوار الله لما طلب منه ابن الدغنة أن يدخل بيته يصنع فيه ما يحب ، وألا يصلي عند باب داره لأنه يستبكي إذا ما قرأ القرآن فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون ما يرون من هيئته ، وقريش يحشون أن تنفث رقتة صبياتهم ونساءهم وضعفاءهم .

وخرج أبو بكر إلى الكعبة فلقيه سفيه من سفهاء قريش فحشا على رأسه ترابا ، وكان العاص بن وائل يمر إلى جواره يرفل في حلته ، فالتفت إليه أبو بكر وقال :

— ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟

— أت فعلت ذلك بنفسك .

فرفع أبو بكر بصره إلى السماء وقال :

— أي رب ما أحلمك ! أي رب ما أحلمك ! أي رب ما أحلمك !

ومشى أبو بكر إلى الكعبة فإذا بقريش في أنديتهم ، وإذا بأبى طالب جالس في ظل الكعبة حيث كان يجلس أبوه عبد المطلب ومن حوله رجال بى هاشم والمطلب ، وإذا بالشيخ الذى وهن منه العظم واشتعل الرأس شيئا يشرد بدهنه يفكر في ابنه الحبيب جعفر الذى هاجر إلى الحبشة مع من هاجروا إليها من المسلمين قبل أن يدخل بنو هاشم والمطلب الشعب ويحاصروهم فيه كفار مكة .

ورن في ضمير الشيخ قول ابن أحمه : « يا عم إن رضى الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها إلا اسما هو الله ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان » . ورأى بعين حياله الرجال الخمسة الذين اعترموا تمريق الصحيفة ، فود لو أن جعفرا قد رأى ما كان من هؤلاء الرجال ، فأبو طالب وإن كان لم يسلم فقد كان هواه مع المسلمين ، وكان حبه لبنيه الذين دخلوا في دين الله يجعله يفرح لما يفرحهم ويشتهي أن لو سعدوا بلحظات الانتصار التى غابوا عنها .

كان لحس الأرضة للصحيفة الظالمة عملا هز وجدان كل المسلمين ، وكان أبو طالب يحب أن يشهد جعفر والذين معه في الحبشة ذلك الحدث الجليل ، وكان ما صنعه الرهط من قريش في نقض الصحيفة دليلا على تصدع جبهة المعادين لدين الله ، وعلى أن بين الكافرين بما جاء به محمد عليه السلام من أبى الظلم والقطيعة والبهتان ، وملأت الانفعالات صدر أبى طالب فراح ينشد :

ألا هل أتى تجريئنا<sup>(١)</sup> صنع ربنا

على نأيمهم والله بالأساس أروود<sup>(٢)</sup>

---

(١) من كان قد هاجر من المسلمين في البحر إلى الحبشة . (٢) أرفق .

فيخبرهم أن الصحيفة مزقت  
 وأن كل ما لم يرضه الله مفسد  
 تراوحها إفك وسحر مجمع  
 ولم يُلَف سحر آخر الدهر يصعد  
 تداعى لها من ليس فيها بقرقر  
 فطائرهما في رأسها يتردد  
 وكانت كفءاً وقعةً بأئيمة  
 ليفطع منها ساعد ومقلد<sup>(١)</sup>  
 ويظعن أهل المكتن فيهربوا  
 فرائضهم من خشية الشر ثرعد  
 ويترك حراث يقلب أمره  
 أيتهم فيهم عند ذاك وينحد  
 وتصعد بين الأحشين كتيبة  
 لها حدج سهم وقوس ومرهد<sup>(٢)</sup>  
 فمن ينش من حضار مكة عزه  
 فعزتنا في بطن مكة أثلد  
 نشأنا بها والناس فيها قلائل  
 فلم ننفك نزداد خيرا ونحمد  
 ونطعم حتى يترك الناس فضلهم  
 إذا جعلت أيدي الفيضين ثرعد

(٢) رهله : سحقه سحقاً شديداً .

(١) عنق .

( عام الحزن )



جزى الله رهطاً بالحجون تبايعوا  
 على ملاً يهدى لجزم ويُـرشد  
 فعوداً لدى خُطم الحجون كأنهم  
 مقاولـة<sup>(١)</sup> بل هم أعز وأجـد  
 أعان عليها كل صقر كأنه  
 إذا ما مشى في رفرف الدرع أحرد<sup>(٢)</sup>  
 جرى على جُلَى الخطوب كأنه  
 شهاب بكفى قاس يتوقـد  
 من الأكرمين من لؤى بن غالب  
 إذا سم خسفاً وجهه يتربـد  
 طويل النجاد حارج نصف ساقه  
 على وجهه يُسقى الغمام ويُـسعد  
 عظيم الرماد سيد وابن سيد  
 يحض على مَقَرى الضيوف ويمشـد  
 وينى لأبناء السعـيرة صالحاً  
 إذا نحن طقنا في البلاد ويمهـد  
 ألقاً<sup>(٣)</sup> بهذا الصلح كل مرأ  
 عظيم اللواء أمـره ثم يُحمـد

(٢) الحرد : أن تثقل الدرع على الفارس .

(١) ملوك

(٣) لزوم وألح .

فضوا ما قصوا في ليلهم ثم أصبحوا  
 على مهل وسائر الناس زقد  
 هم رجعوا سهل بن بيضاء راضيا  
 وشر أبو بكر بها ومحمد  
 متى شرك الأقوام في جل أمرنا  
 وكنا قسديما قبلها نتودد  
 وكنا قسديما لا نُقر ظلامه  
 ونذكر ما شئنا ولا نستشد  
 فيالقصى هل لكم في نفوسكم  
 وهل لكم فيما يحيى به غسد  
 فإني وإيساكم كما قال قائل  
 لديك البيان لو تكلمت أسود<sup>(١)</sup>

وراح أبو بكر يقلب عييه في المجالسين حول الكعبة ، فرأى رسول الله ﷺ — وقد جلس عنده عمر بن الخطاب وبعض أصحابه فذهب إليهم وألقى عليهم السلام ثم قعد يصعق إلى حديث النبي الكريم ، فأحس كأن كل أوصاب نفسه قد انقشعت وغمرته سعادة روحية طاغية ، فما ألقى سمعه إلى حديث نبيه عليه السلام إلا أشرق النور في قلبه وانشرح صدره وانكشف له سر الملكوت .

كان السيد المسيح يقول للناس توبوا فقد اقترب الملكوت ، وكان يحيى

(١) أسود : اسم جبل كان قتل فيه قتيل فلم يعرف قاتله ، فقال أولياء المقتول

هذه المقالة ، فذهبت مثلا .

ابن زكريا عليه السلام يقول توبوا فقد اقترب الملكوت ، وقد قال السيد المسيح لحواريه ذات يوم إن الملكوت كلام الله على الأرض ، وقد أوحى الله إلى عبده قرآنه ، فكان أبو بكر وعمر والمسلمون إذا ما قرئ عليهما كلام الله أو إذا ما تلاوا كلام الله تشرح صدورهم وتفيض بالسمع أعيهم وترفع الأحجية بين أهدتهم والملكوت .

كانوا يرون ينور الله ، وكانوا يتبرون من علائق الدنيا ويزهدون فيها ويفرغون قلوبهم من شواغلها ، ويستعدون بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله عليهم من الرحمة ، فانكشف لهم الأمر ونظروا إلى الملكوت وفازوا الفوز الأكبر .

وبينا هم يتحدثون إذ نزل الوحي على رسول الله — ﷺ — فأطرقوا جميعا ، ولم يقو أحدهم أن يرفع إليه بصره ، وسمعوا عند وجهه دويًا كدوى النحل ، فمكثوا ساعة حتى إذا ما فهم الوحي عنه استقبل القبلة ورفع يديه فقال :

— اللهم زدنا ولا نقصا ، وأكرمنا ولا تنها ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا .  
ثم التفت إلى أصحابه وقال :

— لقد أنزلت علينا عشر آيات من أقامهم دخل الجنة  
ثم قرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ \* قد أفلح المؤمنون \* الذين هم في صلاتهم خاشعون \* والذين هم عن اللغو معرضون \* والذين هم للزكاة فاعلون \* والذين هم لفروجهم حافظون \* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين \* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون \*

والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون \* والذين هم على صلواتهم يحافظون \* أولئك هم الوارثون ﴿١﴾ .

كانوا يتحدثون في الصلاة ، فإذا جاء أحدهم بعد أن يبدأ الإمام في الصلاة ، يسأل : أهذه الركعة الأولى أم الثانية ؟ فكان أحد المصليين يرد عليه ثم يستأنف صلاته ، فلما نزلت هذه الآيات البيئات بطل الكلام في الصلاة ، ليفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون .

وكانوا يعرضون عن اللغو ويفقون في سبيل الله قد سدوا في وجه المعاصي كل المسالك المؤدية إلى أهوائهم ، ولكن الله تبارك وتعالى أراد أن يرشدهم إلى طريق الرفعة ، طريق المدكوت ، طريق الحمة التي أعدت للمتقين ، طريق الخلود .

ومر سادات قريش بالرسول عليه السلام فإذا بالمستضعفين من أصحابه جالسين إليه : حباب وعمار وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرز وصهيب ، فقالوا مستهزئين :

— هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهو من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ! لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقا هؤلاء إليه وما حصهم الله به دوننا .

وجاء إلى النبي عليه السلام بعض سادات العرب ونظروا إلى المستضعفين من أصحابه في تأفف ، فقالوا :

— نريد أن تجعل لنا منك مجلسا نعرف لنا به العرب فضلا ، فإن وفود العرب تأتيك فستحى أن تروا العرب مع هذه الأعبد ، فإذا نحن حشاك

فأقمهم عنك ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت .  
 كان النبي ﷺ يتلهف على انتشار دين الله وكان يرى في اعتناق هؤلاء  
 الأقوام الإسلام نصرا للدين ، وكان على ثقة من أن أصحابه الذين من الله  
 عليهم بالهداية سيقدرون الحافر إلى استجابة دعوة هؤلاء السادة الأعماح ،  
 فقبل عليه السلام وهو كاره ما طلبوه ، فقام عنه أصحابه الفقراء ، وأراد  
 المتكبرون أن يستوثقوا من دوام هذا التفصيل فقالوا :  
 — اكتب لنا كتابا

مدعا بصحيفة وقدمها إلى علي بن أبي طالب ليتكتب لهم كتابا ، فإذا  
 بالعرق يتفصد من جبين الرسول عليه السلام ، وإذا بالجهنم ينزل به ، ولم  
 يستطع أحد أن يرفع إليه بصره ، كان يوحى إليه ، حتى إذا ما انتهى الوحي  
 رفض أن يكتب ما طلبوه ، وطلب دعوة المستضعفين من أصحابه ،  
 واستمر في قلق حتى إذا أقبلوا عليه بشئ لهم وقال :  
 — سلام عليكم . كتب ربكم على نفسه الرحمة .

ثم راح يرنل ما أنزل عليه : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة  
 والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك  
 عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ وكذلك فتنا بعضهم  
 ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين \*  
 وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه  
 الرحمة ، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور  
 رحيم ﴿ (١)

لم تعرف يعرف الاستقرار فالحروب مشبوبة بين الأوس والخزرج وقد هرع الناس إلى الحصون خشية القتل ، واليهود يمشون بين الحيين بالوقعة حتى لا يتم بينهما صلح ، مما تصالحا إلا كانت الدائرة على اليهود .  
وكان الظفر في أكثر الحروب للخزرج على الأوس ، وكان الشعراء يلعبون دورا خطيرا في تلك الحروب فحسان بن ثابت شاعر الخزرج بفخر بعشيرته وما تأتى من صروب البطولة ، وقيس بن الخطيم يحاويه بقصائد أقسى من وقع السهام ، وقد دهمت الأوس لتحالف يهود بنى قريظة فعشت الخزرج إلى اليهود :

— لئن فعلتم فأذنوا بحرب .

فوقع الرعب في قلب اليهود فأرسلوا إلى الخزرج :

— إنا لا نحالفهم ولا ندخل بينكم .

فقال الخزرج لليهود :

— فأعطونا رهائن وإلا فلا تأمكم .

فأعطوهم أربعين غلاما من بينهم ففرقهم الخزرج في دورهم ، فلما أيست الأوس من نصرة اليهود راحوا يتشاورون في أن يحالفوا قريشا فأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وكان بين الأوس والخزرج أن من أراد حجا أو عمرة لم يعرض له فأجار أموالهم من بعدهم البراء بن معرور .

وخرج قيس بن الخطيم مع الأوس يطلبون الحلف من قريش ، فمر حسان بن ثابت بليلي يست الخطيم فقال لها حسان :

— اظمسي فالحقى فالحقى فقد ظعنوا ، وليت شعري ما خلقتك وما

شأنك : أقل ناصر كأم راث رافدك ؟

فلم تكلمه وشتمه ساوًا ، فراح يذكرها بشعره الذى قاله فى يوم الربيع :

لقد هاج نعلك أشجاءها	وعاودها اليوم أدياسها
تذكرت ليل وأنى بها	إذا قطعت منك أقراسها
وحجج فى الدار غرباسها	وحفت من الدار مكاسها
وعيرها معصرات الرياح	وسح الحبوب وتبتاسها
مهاة من العير تمشى بها	وتبعها ثم عزلاها
وقفت عليها فساءلتها	وقد طعن الحى - ما شأها
فعميت وجاوبى دواها	بما راع قلبى أعواها

وأنى الأوس مكة ودحوا دار الندوة وما حرحوا بها حتى كانوا قد حاموا قريشا وحرخوا يطوفون حول البيت مستبشرين وأقل الوليد بن المعيرة على سادات قريش فلما علم بالخلف الذى كان بينهم وبين الأوس أريد وجهه وقال :

— والله ما نزل قوم قط على قوم إلا أهدوا شرفهم وورثوا ديارهم ، فاقطعوا حلف الأوس بأى شئ :

قولوا لهم إنا نسيب شيئا لم نذكره لكم ، إنا قوم إذا كان اسساء بالبيت فرأى الرجل امرأة تعجبه قلبها ولمسها بيده

فما قالوا ذلك للأوس نفروا وقالوا :

— اقطعوا الحلف بيسا ويسكم .

فقطعوه وعاد الأوس إلى يثرب مكهجرة وجوههم فما وجدوا حليفا يقف إلى جوارهم فى قتال الخزرج ، فلما لم يتم لهم الحلف ذهب بنو حارثة

إلى خيبر فأقاموا بها سنة لم يمّت منهم فيها عجزور ، فقالوا :

— أهون حادث موت عجزور في سنة .

ورأى الخزرح دهاب بنى حارثة إلى خيبر وهوان الأوس فراحوا  
يفتخرون عندهم في أشعارهم ، وملأ الغرور زعيمهم عمرو بن النعمان  
البياضى فقال :

— والله لا يمس رأسي غسلا حتى أركبكم مبارل بى قريظة والنضير  
وأقتل رهنهم .

كان ليهود بى قريظة والنضير غزار لمياه وكرام النخل ، وقد بلغهم  
ذلك التحدى وبلغ من كان في يثرب من الأوس فمشوا إلى كعب بن أسعد  
القرظى فدعوه إلى المخالفة على الخزرح ففعل ، ثم تحلفوا مع قريظة والنضير  
فأصبح الأوس واليهود قوة قادرة على مناوأة الخزرح ، ثم أرسلوا بذلك إلى  
بى حارثة الدين كانوا قد خرجوا إلى خيبر فقدموا ليضمو إلى الحلف ،  
فراح شعراء الخزرح يتعنون بجلاء بنى الحارثة إلى خيبر وأخذ من الرهن من  
اليهود فقال فائلهم :

هلم إلى الأحلاف إد رق عظمهم

وإذ أصلحوا ما لا حذمان ضائعا

إذا ما امرؤ منهم أساء عمارة

بعثنا عليهم من بنى العير جادعا

فأما الصريح مهم فتحملوا

وأما اليهود فاتخذنا بضائعا

وذاك بأننا حين نلقى عدونا

نصول بضرب يترك العز خاشعا



وأخذت الخزر ج في قتل الرهن فقد نقض اليهود اتفاقهم ودخلوا بينهم وبين الأوس وحالفوهم ، فقال كعب بن أسد القرظي :  
— إنما هي بيلة ثم تسعة أشهر وقد جاء الخلف .

وأرسل بنو قريظة وبنو النضير وهم الدين عرفوا بالصرح لأهم من بني الكاهن بن هارون إلى الأوس وقالوا لهم :  
— انهضوا إلينا فقاتلهم بأجمعنا .

فجاءت الخزر ج إلى عبد الله بن أبي بن سلول فقالوا :  
— مالك لا تقبل الرهن ؟

فقال عبد الله بن أبي :

— لا أعذرهم أبدا وأنتم البغاة وقد بلغني أن الأوس تقول : منعونا الحياة فيمنعونا الموت . والله ما يموتون أو تهلكون عامتكم .

فقال له عمرو بن النعمان :

— انتفضح والله سحرك .

فقال عبد الله بن أبي وهو ينظر إلى عمرو في ضيق :

— إني لا أحضركم وكفاني أنصر إليك قتيلًا يحملك أربعة في كساء .

كان عبد الله بن أبي بن سلول يطمع في أن يضع الأوس والخزر ج واليهود التاج على رأسه ، حقا لقد كان خزر جيا إلا أنه كان يبدل غاية الجهد لكيلا يفضب الأوس ، وكان يحقت المتعصين من الخزر ج الذين يشعلون نيران الفتنة فما كان من الميسور أن يصبح التويع حقيقة واقعة ما دامت العداوات ناشبة بين الحيين ، وكان يعمل على أن ينم الشر إلى حين ، ولكن العصية القبلية كانت تشعل الحروب على الدوام فلم يجد ابن أبي فرصة يحقق فيها أحلامه وأغلى أمانيه .

فاجتمع الخزرج وأرسوا عليهم عمرو بن العمان البياضى وعبد الله بن أنى يرقب ذلك فى حنى شديد ، فهو يريد أن يطفىء هذه الحرب ولكن مشايخ قومه رأوا غير ما يريد ، وهو يرى غيره يرأس على قبيلته وهو يمشى على الأرض فكان الحسد ينهش قلبه ، وبكته كان يتحلم بالصبر فما يطمع فيه أكثر من زعامة الخزرج وحدهم .

كان أبو عمرو الراهب مع الأوس ولم يخرج عبد الله بن أنى مع قومه بل دخل حصه واعتزل فيه ، والتقى الأوس وحلفاؤهم بالخزرج فى ثبات ودار قتال رهيب بين الجانبين ، وراح فيس بن الخطيم يصول ويجول بين صفوف أعدائه يقطر الرقاب ويطلع القلوب ، وكانت الدبرة على الخزرج ، وقتل عمرو بن النعمان وجرى به تحمله أربعة .

وحلفت اليهود لتهدم حصن عبد الله بن أنى فمشوا إلى الحصن ومعهم أبو عمرو الراهب وكانت تحته جميلة بنت أنى ، فلما أحاطوا بالحصن ، قال لهم عبد الله :

— أما أنا فلم أحصر معهم ، هؤلاء أولادكم الذين عندي فإننى لم أقتل منهم أحدا ، ونهيت الخزرج فعصوني .

كان جل من عنده من الرهن من أولاد بنى النضير ففرحوا حين سمعوا بذلك ، فاجاروه من الأوس ومن قريظة فأطلق أولادهم وحالفهم ، ثم راح يعمل فى دهاء لبؤلف بين قلوب الأوس والخزرج واليهود ليعرفوا له جميعا فضله فيضعوا التاج على رأسه راضين .

كانت حرب يعث بين الأوس والخزرج حرب تطهير للأرض التى أعدها الله لحدرة رسوله ، قتل فيها عمرو بن النعمان زعيم الخزرج وقتل فيها رئيس الأوس خضير ، وقتل من أكابرهم من كان لا يؤمن أن يتكبر ويأنف

أن يدحل في الإسلام ، و لم يبق منهم غير عبد الله بن أبي بن سلول وأبو عامر الراهب ليستمر الرسول عليه الصلاة والسلام في كفاحه حتى يتم الله على المؤمنين نعمته ، فما كان الله سبحانه وتعالى ليفرش طريق رسله بالورود ، بل شاءت إرادته أنه بالصبر الإيمان والعرق والكفاح يُنال الفوز الأكبر .

## ٢١

كان أبو طالب مسجى في فراشه وقد التفت حول سريره على بن أبي طالب وأخوه عقيل وزوجه فاطمة بنت أسد والعاس وأبو لهب وبعض بني هاشم ، فالشيخ كان يمضى آخر أيامه على الأرض فكان يقلب بصره في وجوه الدين جاءوا لعيادته فيبدو على وجهه بعض ما يدور في رأسه من أفكار وذكريات .

ودحل عليه أبو سفيان ابن أخيه الحارث فرفت بسمه ترحيب على شفتي الشيخ وأقبل يحدث شاعر الهاشميين في ود عميق ، فقد حمل أبو سفيان بن الحارث لواء الشعر في البيت الهاشمي بعد أن مات الزبير بن عبد المطلب ، وسيصبح المنافع الوحيد عن شرف قبيلته بعد أن يمضى الشيخ الذي هدته السنون ، فأبساؤه على وحفر وعقيل وشباب المطليين الذين دخلوا في الإسلام لم يفعلوا بالشعر .

وطاف بذمه ابنه جعفر فاستشعر شوقا طاغيا إليه وود لو تكتحل برؤيته عيناه قبل أن يموت ، ولكن أنى له هذا ؟ فجحفر هناك في الحيشة مع روجه أسماء بنت عميس ، إنه فر بدينه من اضطهاد قومه ، خرج حائفا

يترقب من البلدة الطيبة التي يأمن فيها الطير ، فضل أن يكون في رعاية الله على أن يكون في جوار أبيه .

وراح يفكر في جعفر ، رآه طفلاً ورآه شاباً وتذكر يوم أن رأى محمد ابن عبد الله وعلياً يصليان وعليٌّ على يمين ابن عمه ، فالتفت إلى جعفر وقال : صل جناح ابن عمك فصلى عن يساره .

ما كان أبو طالب عدواً للإسلام ولا عدواً لمحمد عليه السلام ، فهو على يقين من صدق ابن أخيه وأنه يدعو إلى مكارم الأخلاق وأنه لعل خلق عظيم ، ولكنه كان يؤمن بإيمانا عميقاً بأن الله سبحانه وتعالى أجل من أن يبعث بشراً رسولا ، ولولا ذلك الإيمان الراسخ لدخل أبو طالب في دين الله ، ولو فعل لكان ذلك في غير صالح الإسلام ، فلو أسلم أبو طالب وبادر أقرباؤه ويو عمه إلى الإيمان به لقليل قوم أرادوا المحر برحل مهم وتعصبوا له ، ولأغلق أباء بيوتات قريش المنافسة لبني هاشم أفقدهم في عداد رجالية في وجه أنوار اليقين .

وكان عتبة بن ربيعة وأخوه شيبه وأميه بن خلف وأبو سفيان جالسين في الحرم ، فجاءهم بيا أن المرح قد ثقل على أبي طالب فقال بعضهم لبعض :

— إن حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد في قائل قريش كلها ، فانطلقوا بها إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه ما ، فإننا نحاف أن يموت هذا الشيخ فيكون ما شيء فتعيرنا العرب ويقولون : تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه .

كانوا يخشون أن تعيرهم العرب إذا ما قتلوا محمداً عليه السلام بعد موت عمه ، فبعثوا رجلاً يقال له المطلب ليستأذن لهم في الدخول على شيخ بني

هاشم ، فاطلق إلى دار أبي طالب فقابل عليا فقال له :  
 — إن مشيخة قومك يستأذنون في الدخول على أبيك  
 فدخل على كرم الله وجهه ودنا من سريره فقل  
 — هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم يستأذنون عليك .  
 — أدخلهم .

ومشى عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمّية بن  
 حلف وأبو سفيان بن حرب في رجال من أشرفهم إلى دار أبي طالب ، فلما  
 دخلوا عليه قالوا :

— يا أبا طالب إنك ما حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا  
 عليك ، وقد علمت لدى يسا وبين ابن أخيك ، فادعه فحد لنا منه وحد  
 له منا ليكف عما ومكف عنه .

فبعث إليه أبو طالب فجاءه ، ولما دخل — ﷺ — على أبي طالب وكان  
 بين أبي طالب والقوم فرجة تسع الخنافس فعشى أبو جهل أن يجلس إلى  
 — ﷺ — في تلك الفرجة فيكون أرق منه فوثب أبو جهل فجلس فيها ،  
 فلم يجد الرسول — ﷺ — مجلسا قرب أبي طالب فجلس عند الباب .

والتفت الرسول — ﷺ — إلى أشرف قومه وقال :  
 — خللوا بيني وبين عمي .

— ما نحن به عليين وما أنت بأحق به منا . إن كانت لك قرابة فإن لنا  
 قرابة مثل قرابتك .

فقال أبو طالب لرسول الله — ﷺ — :

— يا بني أخى هؤلاء أشرف قومك قد احتتموا ليعطوك وليأخذوا  
 منك .

فالتفت رسول الله ﷺ — إلى سادات قومه وقال

تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه

فصمقوا بأيديهم ثم قالوا :

— أيسع لحاجتنا جميعا إله واحد ؟

كانوا يؤمنون أن في الأرض سبعة آلهة وفي السماء إله ، وأن كل إله له

عمله فقالوا :

— سلنا غير هذه الكلمة .

فظفر إلى عمه وقال :

— يا عم ما أنا بالذي يقول غيرها .

وقال بعضهم لبعض :

— والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فاطلقوا وامضوا

على دين آباءكم حتى يحكم الله بينكم وبينه .

ثم قاموا وقل أن يغادروا المكان التفتوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا

مهددين :

— لنكفن عن سب آلهتنا أو لنسبني إلهك الذي أمرك بهذا .

وخرجوا ، وانطلق رسول الله ﷺ إلى داره وهو حزين فعمه الذي يحوطه

وينصره وبفضب له بوجود أنفاسه وقومه لا يرالون سادري في عداوتهم ،

فقد مصت عشر سنين منذ أن نزل عليه الوحي في عار حراء وهو يدعوهم

إلى الهدى ليلا ونهارا فلا يريدون دعاءه إلا فرارا ، لعله باخع نفسه ألا

يكونوا مؤمنين .

وفكر في أنى طالب ، في الرجل الذي كفله بعد موت عبد المطلب

والذي قال له بعد أن بعث ولقي من قومه عتا : اذهب ياس أخني وقل ما

شئت . ولم يكن على دينه ، بل وقف كالطود في وجه عصب قومه بعد  
عه أذى الخافدين الثائرين المطالبين بدمه ، ولا يكتفى بحمايته بل يتحمل  
الأذى والجوع في شعب أبي طالب ويظل محصوراً ستين ونصف سنة دون  
أن يضعف أو يلين ، فلو لا عناية الله وحماية أبي طالب لكان في العابرين .  
أن يموت أبو طالب وهو على الكفر يحز في نفسه ، بل يغمره بالأسى  
العميق ، فهو يشفق على عمه الحبيب نار جهنم والعذاب الأليم ، فإن كان  
قد عادر بيت عمه فسيعود إليه يرحو أنشراح في حرارة أن يطق بشهادة  
الإيمان يشهد له بها عند الله العظيم

وفاضت أحرانه لما فكر في تهديد قريش ، إلهم سيسبون الله سبحانه  
وتعالى ، سب ألهمهم ، وهو لا يدري ماذا يفعل حيال ذلك التهديد . لماذا  
أبى أكثر الناس إلا كهو ؟ لماذا يدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير ؟ إنه  
ليحزنه إعراض أبي طالب عن الحق وإنه يتوق إلى أن يأخذ بيده إلى الحلة  
ولعم دار المتقين . وإنه ليحزنه استكبار قومه ويزيد في أساه تهديدهم  
بسبب الله وهجوه .

كان بأسو على عمه وعلى قومه ، وفيما هو عارق في أحرانه رل عليه  
الوحي : ﴿ وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بَعِيرَ عِلْمِ  
كَذَلِكَ رِيَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، فبعث إلى كتاب الوحي ليكتبوا ما أنزل عليه في سجع  
السخل والرقاع والعظام وينلوه على المؤمنين .

وانقلب رسول الله ﷺ إلى عمه ، فراح أبو طالب يرمقه من بين  
أحفانه التي ثقلت فيستشعر راحة ، فهو في قرارة نفسه يحب ابن أحميه عبد

الله حبا يفوق حبه لبتيه ، حبا استولى على مشاعره حتى إنه كان لا يضيق فراقه . وتذكر أنه عما قريب سيودع الدنيا فرأى أن يوصى بى هاشم بمحمد خيرا فقال :

— يا معشر بى هاشم ، أطيعوا محمدا وصدقوه ففدحوا وترشدوا .

فلما قال ذلك طمع رسول الله — ﷺ — فيه فقال .

— يا عم تأمرهم بالصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك ؟

— فما تريد يا بن أحمى ؟

— أريد أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله .

فقال أبو طالب فى وهى :

— يا بن أحمى قد علمت أنك صادق ، ولكى أكره أن يقال إني قتلها

جزعا من الموت .

فراح رسول الله يقول له :

— أى عم ، فأنت فقلها أستحل لك بها الشعاعة يوم القيامة .

— والله يا بن أحمى لولا مخافة لسبة عييك وعلى بى أبيك من بعدى ،

وأن تظن أنى إنما قتلها جزعا من الموت لأقررت بها عييك لما أرى من شدة

وجدك .

رجاء أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمىة وأبى ابي حلف

وعتبة بن أبى معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البحتري إلى أبى طالب

ورسول الله — ﷺ — عنده وقد استولى عليه اجزع حشية أن يموت أبو

طالب على كفره ، فهو يطمع فى هدايته وفى انتشاله من الصلالة قبل أن

تفيض روحه جزاء على عطفه عليه ونصرته له وقيامه دونه ، فلما رأى أبو

طالب وجهاء قريش راح يوصيهم :



— يا معشر قريش أتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم المطاع  
وفيكُم المقدم الشجاع والواسع الناع ، لم تتركوا للعرب في المآثر نصيبا إلا  
أحرزتموه ، ولا شرفا إلا أدركنموه ، فلكم بذلك على الناس العفضيلة ،  
ولهم به إليكم الوسيلة . أوصبيكم بتعظيم هذه البية ( الكعبة ) فإن فيها  
مرصاة للرب وقواما للمعاش .

صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فإن صلة الرحم منسأة ( فسحة ) في  
الأحل ، وزيادة في العدد ، وتركوا البغي والعقوق ففيهما هلكت القرون  
قلكم . أجبوا الداعي وأعطوا السائل ، فإن فيهم شرف الحياة والممات ،  
وعبيكم بصدق الحديث وأداء الأمانة فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في  
العام .

وصمت أبو طالب يلتقط أنفاسه فدنا محمد عليه السلام من سريره  
ليقول له في ترسل : « قل يا عم لا إله إلا الله » ، ولكن أبا طالب قال وهو  
يقلب عييين واهتين في وجوه سادات قريش الذين بدوا له كأشباح :

— وإلى أوصبيكم بمحمد خيرا فإنه الأمين في قريش ، وهو الجامع لكل  
ما أوصبيكم به ، وقد جاء بأمر قبله الخناد وأكبره النسان بحافة الشنان .  
وايم الله كأنى أنظر إلى صعايبك العرب وأهل البر في الأطراف  
والمستضعفين من الناس قد أحابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره  
فخاص بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصايدنها أدبايا ،  
ودورها حربا ، وضعفاؤها أربابا . إدا أعظمهم عليه أحوجهم إليه ،  
وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأعطته قيادها  
دوبكم يا معشر قريش ، كونوا له ولالة ، وخر به حماة ، والله لا يسلك  
أحد منكم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد

فلاحت الرقة في وجهه على بر أبي طالب واستبد به انفعال شديد ، فلم يبق على إسلام أبيه إلا أن ينطق بالشهادة فيتوح جليل أعماله بتاح المتقين ، ويفوز بجنان النعيم . وراح يرقب رسول الله ﷺ — وهو يبدو من أبيه الذي كان يعاني سكرات الموت بقلب يتأرجح بين الرجاء واليأس ، ويبتل في أعماقه إلى الله أن يشرح قلب الشيخ إلى الإيمان وأن ينيره بأشوار اليقين .

ومال محمد — ﷺ — على عمه الذي يجود بأنفاسه وقال وقد تفرق الدمع في عينيه :

— يا عم قل أشهد أن لا إله إلا الله .

كان رسول الله ﷺ — يريد أن يدخل عمه في رحمة الله ، يريد ألا يموت عمه وهو ظالم لنفسه ، يريد ألا يحزبه الله يوم القيامة ، يريد أن تتوفاه الملائكة طيبا . إنه يحرص على هداة ، فنياط قلبه تكاد تتمزق أسفا على أن عيبى عمه في غطاء عن ذكر الله . إنها لحظات فإن لم ينطق أبو طالب بالشهادة قبل أن يلفظ آخر أنفاسه فستحبط أعماله فلا يقيم الله له يوم القيامة وزنا ، وأشفق عليه فقال في نبرات متوسلة كأنها دوب نفسه الطاهرة :

— يا عم قل أشهد أن لا إله إلا الله .

وراح سادات قريش ينظرون في قلق وقد تعلق أعينهم بشفتي الرجل الذي كان يحتضر ، فإن نطق بالشهادة فسيزعزع ذلك موقف العباد الذي يتخذونه من ابن أخيه . بينما كان على بر أبي طالب ومن حضر من المسلمين يتلففون على أن ينطق الشيخ الحليل بالشهادة ليزحزح نفسه عن النار ، كانوا يستشعرون خطر اللحظة ، إنها كلمة ثم تصح الجحيم هي المأوى أو

الحمة هي المأوى .

وحشى أبو جهل أن يدين انشراح لتوسلات ابن أخيه وأن يرق لعمراته  
فقال :

— بل على ملة عبد المطلب ..

وارتفعت أصوات الكافرين :

— على ملة الأشياح عبد المطلب وهاشم وعد مناف .

فقال أبو طالب في صوت حافت :

— أموت على ملة الأشياح عبد المطلب وهاشم وعد مناف .

واشد وجد رسول الله — ﷺ — وبرل به جرع شديد ، وملأت  
الدموع عيسى على س أنى طالب ، وهل أوجع للقلب أن يرى الاس البار أباه  
الحبيب ينقى بنهسه في أتون الجحيم ؟

إن علما يكاد يتفجر أسى فهرع إلى أبيه يتوسل إليه أن يستحيب لدعوة  
رسول الله — ﷺ — قبل العوات ، وراح العباس يقلب عيسيه بين أحيه  
الذى كان في الرع الأخير وابن أخيه على س أنى طالب الذى ارتضى على  
صدر أبيه يحاول أن ينتزع منه الشهادة قبل أن يسقه الموت بانتزاع  
الروح ، وبين رسول الله — ﷺ — الذى ارتسم على وجهه المتألق بالور  
أبلغ آيات الأمى العميق .

وراح أبو هب يمد عيسيه إلى ما يجرى أمامه فإذا به يتمنى أن تحمد أنعاس  
أخيه ليستهى دبك القلق المدمر الذى استند به ، فالانفعالات التى مارت في  
وجدانه كانت أعف من أن يحتملها الشيخ الذى أمضى حياته في اللهو  
والميسر والشراب .

وكانت ناطمة بست أسد تذرف الدمع المhton وما كانت تتحفل بذلك  
الذى يحرق بين سادات قريش وبين الرسول عليه السلام ، فقد كانت  
حزينة حتى الموت لفراق الرجل الذى شاركها الحياة والذى كان نور  
العبيد وهواء الرثين وخفقات الفؤاد .

وشهق أبو طالب شهقة فإذا به فى العابرين ، فأطرق رسول الله —  
ﷺ — وهو والده حزير ، ثم ألقى نظرة وداع على عمه الحبيب فقال :  
— أما والله لأستغفرن لك .

وصاق صدر على ابن أبى طالب فجعل يعدو ويروح وهو يسح  
الدموع ، وملاً الرضا قلوب أبى سفيان وأبى جهل والضرب الحارث  
وأمية وأبى ابنى خلف وعقبة بن أبى معيط وعمرو بن العاص والأسود بن  
البحترى ، فقد مات أبو طالب على ملتهم ملة عبد المطلب وهاشم وآبائهم  
الأولين .

ورأى على بن أبى طالب من خلال دموعه الراحة التى ارتسمت على  
وجوه شيوخ قومه فأحس كأن خناجر مسمومة تمزق أحشاءه ، إنه لم  
يقف من قبل موقفا أعيط له من هذا فأبوه قد احتار النار على الحنة ، وكفار  
قريش قد اعتبطوا الموت أبىه على الكفر فلن ينسى لهم أبدا أنهم هم الذين  
حرضوا أباه على أن يموت على ملة عبد المطلب وهاشم وقصى ، أيقطوا فيه  
فى لحظة ضعف عصية الجاهلية ودفعوا به إلى السعير .

وحرر رسول الله — ﷺ — وعيناه تفيضان من الدمع حزنا يشكو  
بته إلى الله ، فهو لا يستطيع أن يذهب إلى حديقة ينشأ أن عمه الحبيب قد  
مات لتشاركه فى أحزانه ولتحمل عنه بعض ما يصيق صدره ، فحديقة  
مسحاة فى فراشها قد ثقل عليه المرض منذ أيام .

وبقى رسول الله ﷺ — وحده وقد فاص قواده بالأسي ، وراح يتذكر أيامه مع أبي طالب ، يتذكر طفولته ورحلة الشام ، وعرض عمه عليه أن يؤجر نفسه لحديجة ، وخطبة عمه يوم أن ذهب معه ليحطب الطاهرة سيدة نساء قريش ، وذلك اليوم الذى تكلمت فيه قريش وطلبت منه أن يخلى بينهم وبينه عليه السلام ، وإبائه ذلك وقوله له عليه السلام اذهب يا بن أخى وقل ما أحببت .

إنه جزء من حياته ، إنه جزء من رسالته ، فإن كانت حديجة أم المؤمنين حاصنة الإسلام فأبو طالب قد دافع عنه دفاع الصناديد ولو أنه لم يعتق دينه إيماناً منه بالحرية . إنه أبى أن يسلم ابن أخيه وقبل منابذة المشركين لى هاشم وبى المطلب ، ودخل فى الشعب وحوصر واحتمل آلام الاصطهاد والجوع . إنه يستحق أن يتהל رسول الله ﷺ — إلى ربه ودموعه تجري على خديه وأن يستغفر للرجل الذى حذب عليه وكان يحيطه ويمصره ، وقبل أن يرفع أكف الضراعة إلى الله تفصد العرق منه وثقل جسده ونزل عليه الوحي بآيات ربه : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ (١) .

كانت خديجة مسجاة في فراشها وقد ذبلت ودب الوهن في جسدها ، ولكن عقلها كان صاحباً فكانت الذكريات تنال على رأسها ، إنها ترى ذلك اليوم الذي حرجت فيه إلى الحرم مع سيدات من قومها في عيد من أعيادهم وجاء يهودى ووقف يصيح : هذا زمان طهور نبي ، فمن استطاعت ممكن أن تكون له فراشا فلتفعل . وإياها ل ترى النساء يحصنه باخصى بيما وفتت ساكنة ، وإن كان قوله قد استقر في سويداء قلبها .

وإنها لتذكر ذلك اليوم الذى رأت فيه في منامها الشمس تهبط من السماء لتستقر في سقف دارها فتتشر بها ضياءها على العالمين ، ورأت بعين خيالها قوافلها تستعد للخروج إلى الشام ومحمد بن عبد الله يعدو ويروح بين محازنها والقافضة وهى ترقبه من العالية ، وسرعان ما رن في ضميرها صوت ميسرة وهو يحدثها عن الأمين وعن الأرباح لتي كسوها بحسن خلقه وجميل شمائله .

وجاء رسول الله ﷺ — وهو يحاول أن يخفى القلق الذى استبد به وراح يسألها كيف أصبحت ، وجلس إليها يحدثها في رقة ويحوطها بحبه فكانت على الرغم مما تعاني من آلام مرضها تستشعر راحة نفسية ، فهو حبسها وزوجها ورسولها الذى أخرجها من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام والسلام ، وأخذ بيدها إلى البيع الروحي الناصي الذى نهلت منه فلم تطلماً بعدها أبداً . إنه ارتفع بها من دنيا الماديات إلى عوالم السعادة الأبدية ، فتح بصيرتها وفؤادها لاستقبال تفحات ربها وعرفها سبل اللذة

الحقة ، لدة النظر إلى وجه الله والسعادة بالقرب منه والاستبشار بإشراق أنوار المعارف في عين داتها .

ورأته بعينها الزائغتين فحاولت أن تنسم في جهد دون جدوى ، فهي تحاول حتى في أشد الأوقات قسوة أن تلقاه باشة ، فهو زوج كريم لم يخذش كبرياءها أبدا ، ظل منذ أن تزوجها الزوج الوفي الذي لم يفكر في أن يتزوج أخرى أو يتسرى بجارية من الجوارى ، وما كان في مكة كلها من اكتفى بزوجة واحدة فارجال يتزوجون كيفما يشاءون ويتسرون بالإماء دون حدود . ولكن رسول الله — ﷺ — كان يحبا حبا ملك عليه كل عواطفه ، حبا صافيا عظيما جليلا لا يدع محالا لحب آخر ، وقد شد أوامر ذلك الحب أن الزوجين الكريمين كانا يحبان ذات الله ويتفانيان في عبادته .

ومرت بخيالها الليالى التى كانت تقومها خلف رسول الله — ﷺ — —  
تصلى في استغراق ، حتى تغيب عن الدنيا وترتفع على أجنحة الشوق لتهم في ملكوت السماء تغترف من حوائث لطائف لمعارف والسعادة السرمديه . والساعات الطويلة التى كانت تقفها بين يدي ربها تبتهل إليه والدموع تسيل على خديها أن ينصر رسوله وأن يتم نوره ، فلقها أسى عميق أن ستعادر الدنيا تاركة محمدا عليه السلام ليقطع الشوط وحده دون أن تشاركه لدة الكفاح والبذل حتى يأتى نصر الله . فاعرورت عيناها بالدموع وخففتها عبراتها .

إنها داهية إلى إله كريم زهدت في الدنيا من أجله وأنفقت أموالها في سبيله وبدلت كل ما في طاقتها بـ ما فوق طاقتها لتزويد رسوله وتيسر له الأسباب ليلع رسالات ربه . إنها ليست حزينة على إدارها ولكنها تكاد

أن تتمزق أسي كلما خطر لها أن سيصبح روحها الحبيب وحده أمام الدين  
قست قلوبهم ، دون أن يجد القلب الخنون الذى يمسح آلام نفسه التى  
تمزقها سخرية الساحرين وهرء المستهزئين من بعثه الله لهم هدى ورحمة  
ونورا .

إنها على يقين من أنه مع الله وأن الله معه ، ولكنه كان يعود إليها بعد أن  
يعرض على الناس دين الله ويتلقى إهاناتهم مرهقا حزينا ، فكاتب تواسيه  
وتغمره بعطفها حتى تصفو نفسه ويستعيد عزمه وتشتد روح الكفاح  
فيه . فإلى من يعود رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بعد الجهاد  
والتعب والكفاح ؟ سيعود إلى بيت حلا من الأنيس الذى يشاركه فى حمل  
متاعه . سيعود إلى الوحدة والصمت وإرسال الخيال إلى ما لاقى من  
اضطهاد فزداد حزنا على حزن .

سيأتى دون أن يجد من يخفف عنه آلامه . سييكنى دون أن يجد من  
يخفف له دموعه ، سيفلق صدره على لوعة نفسه فلن يجد من يئته أشجانه ،  
سيدخل صامتا ويخرج صامتا وما أقسى أن يصبح صاحب الحس المرهف  
حليف الوحدة والأحزان .

كانت الدموع تلبل روحها والأسى يعتصر قلبها لأنها سترك الرجل  
الذى ملأ حياتها غنى وحده ، لأنها ستحرم اللذة الروحية الصافية التى  
كانت تعم بها حتى فى أقسى أيام الاضطهاد . لقد أكلت ورق الشجر أيام  
أن حاصرهم الكافرون فى شعب أبى طالب ، ولكنها كانت متفرحة بالله ،  
سعيدة بالأنس به ، مستبشرة بترقب رحمته . كانت حياتها مد عرفت  
رسول الله — ﷺ — حقيقة أمتع من الأحلام ، مفعمة بالروعة والآمال  
التي كانت تسمو فوق كل الآلام .



وأطقت جففيها على عينيها ولكن الرؤى استمرت تلح على خيائها  
وصدى صوت رسول الله ﷺ — يهمس في وجدائها ، إنها تسمعه  
وهو يقول لها : إن جبريل يقرئك السلام من ربك ، فترتجف من الرأس إلى  
القدم ، ويسرى في ضميرها ترجيع صوت الرسول عليه السلام وهو يتلو  
القرآن ، فتحس كأنها ترتفع لترفرف في السماوات العلى وقد غمرتها رقة  
فياضة تفيض من المآقي عبرات ويستجيب لها القلب الواهن شدة  
حقيقت .

ومر بخاطرها يوم أن مات القاسم فاستشعرت أسى ، إنها لم تطفن في  
ذلك اليوم إلى عظم الماجة هما كان أبو القاسم قد نسيء بعد . أما الآن فإنها  
تقدر فداحة المصاب ، فلو أن القاسم كتب له أن يعيش لورث مجد النبوة  
ولكأت منه سلالة رسول الله ﷺ — .

وطاف بها طيف عبد الله الطيب الطاهر الذى قرت به عينا وفرح  
رسول الله ﷺ — لمولده وسر به المسلمون سرورا عظيما لأنه قد  
أصبح لنبيهم من يحفظ فيهم سبله الشريف . إنها كادت أن تطير به فرحا فقد  
جاءها بعد أن ينست من أن تلد لرسول الله ﷺ — ذكرا . ولكن  
نشوتها ماتت في مهدها فقد فاضت روح ابنها الحبيب في أحضان أبيه الواله  
الحزين ، حزنت على عبد الله حزنا كاد ينقض ظهرها ولكنها وجدت  
السوى في تفرغ القلب من شواغله والإقبال بكه المهمة على الله ، والعزاء  
في أنها قد أصبحت أم المؤمنين جميعا .

وراح رسول الله ﷺ — ينظر في وجهها فيلفه خوف شديد  
كانت الطاهرة وسيدة نساء قریش ناصعة البياض عاضت حمرة وجتتها  
وخبابريق عينيها ومشى الفناء في جسدها المسجى . أتموت أم المؤمنين ولما

يخص على موت عمه ثلاثة أيام ! إنه لم يبق بعد من هول فجيئته في عمه أبى طالب . إنه حزن لموت عمه الذى نصره حرنا عميقا وزاد في أساه أنه كان قد عزم على أن يستغفر لعمه ولكن الله ساءه عن أن يستغفر له . وقد أحس فداحة غياب خديجة من حياته لما كتم آلامه ولم يبثها شجونها ، فكيف يشكو إليها ما به وهى مريضة تسرع الخطا في طريق المصاء ؟

الموت !؟ أتموت خديجة حقا !؟ أتركه بلا نصير يلاطم أمواج الحياة وحده ؟ أتذهب وترك داره بلا روح ؟ ومن للنصبة من بعد الأم الرعوم التى تبسط حنانها على الجميع ؟ وحاح من التفتاته إلى فاطمة الرهراء فأحس كأ كبدته تكاد أن تنفطر . وراد في كربه أنه فطن إلى أن ابنته الحبيبة الرقيقة قد عرفت الموت في وجه أمها ، فراحت تعالب دموعها حتى لا تؤدى ببيكانها من كانت تغمرها بالحب والحنان .

أيفقد أباطالب وخديجة في ثلاثة أيام ؟ أيفقد الحماية والرعاية والعطف والتأييد والنصر في ساعات ؟ إن موت أبى طالب كان فاحشة ، أما موت خديجة فكارثة ، ستجرح قلبه جرحا لن يندمل على الأيام . صدقته لما كدبه الناس ، وأنفقت أموالها راضية في سبيل الله لما بخل الدس ، وواسته ونصرته لما عز الأنصار ، ولولا حضانتها للإسلام لما بلغت دعوته ما بلغته .

وشرد رسول الله ﷺ — وفي وجهه أعمق الأسى ، وراح يقلب صفحات الماضى في وجد وقد عليته رفته فترقرقت الدموع في عيبيه . رأى نفسه وقد عاد من عار حرء بعد أن نزل عليه الوحي ترتجف بواده وخديجة تستقبله في خوف ، حتى إذا ما سمعت منه ما كان بينه وبين الروح الأمين قالت له في إيمان : أبشر يا بن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده

إلى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

كان في حاجة إلى من يسكن روعه ، فلم تكتف حديجة بإبرال السكينة على قلبه بل نفثت في روحه من إيمانها وأيدته بتصديقها ، ولم تدهبها المفاجأة بل قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله — ﷺ — أنه رأى وسمع ، ثم رجعت مستبشرة إلى زوجها لتقول له إن ابن عمها قال لما سمع منها : قدوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده لش كنت صدقتي يا حديجة لقد جاءه الساموس الأكبر الذى كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة .

وراحت حديجة تلور على أخبار اليهود ورهبان البصارى تسأل عن جبريل فيقال لها : قدوس قدوس ! يا سيده ساء قريش أتى لك هذا الاسم ؟ فتقول : بلى ابن عمي أخبرني أنه يأتيه . فيقال لها : ما علم به إلا نبي ، فإنه السفير بين الله وبين أنبيائه ، فإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا أن يتسمى به .

إنه لا ينسى ذلك اليوم الذى سمع فيه صوتا من السماء فرجع بصره فإذا الملك الذى جاءه محراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعب منه أشد الرعب فرجع إلى حديجة يقول لها .

— رملوني زملوني !

إنه لا يستطيع أن يسي عطفها السابغ وحدها عليه وثباتها . فلو أن حديجة فزعت أو ذهبت بنفسها شعاعا لزادت في آلامه ، فإنه أشفق على نفسه أن يكون به كهانة ، وحشى أن يكون به حنوت ، ولكن قولها العظيم الذى قالته بدد محافوه . إن ذلك القول بمدد بقوة هائلة كلما اشتد به الكرب وإنه ليسرى في ضميره كأحمل أنشودة ترددت في وجدان الرمن :

« كلا يابس عم ، ما كان الله ليمعل ذلك بك ، هو الله إنك تؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث » .

ورقت نفسه وود لو أجهش بالسكاء ، ولكنه كان يعالب دموعه وإن سرت في كل كيانه مرارة الفراق . فما أقسى أن يتصور أن سيعود يوما إلى الدار وقد خلعت من انطاهرة ، من كانت ابتسامتها التي تستقبله بها تعسل أوصاب نفسه ، وإقلاها عليه وقد تهلت بالمرح يحدد آماله التي كاد يزعرعها عباد المعاندين وهرء المستهزئين . إنه ما سمع شيئا يكرهه من قومه إلا فرج الله عنه بها إدارج إليها وأحبرها به . إنه لا يدرى ماذا يكون حاله لو لم يكن الله قد قيصر له حديجة لتكون حاضنة الإسلام ورعاية رسوله .

وأحسن في تلك اللحظة أكثر من أى وقت مضى أن الله قد اصطفى حديجة لتكون روجة رسوله لأن الله يعلم ما أودع في قلبها من كبر غانية بادرة قلما تجتمع في قلب امرأة : حب عارم لله ورسوله ، وإيمان عميق بالله ورسوله ، وعدم خشية لومة لائم في الله ورسوله ، وإنفاق عن طيب خاطر في سبيل الله ورسوله ، وتصحية عن رضا بكل عار مرضاة لله ورسوله ، ورهد في الدنيا وقطع كل انعلائق بها للإقبال بكنه المهمة على الله ورسوله . كان قوادها مستودعا لكل ما في البشرية من جلال وفصائل وحق عظيم . وطاف بدهه أول يوم حرج فيه إلى الكعبة ليصلي لله ولم يكن معه غير

سيدة ساء فريش وعلى بن أبى طالب . كانت ثائرة الخطو هادئة النفس لادت بالسكينة كأنما لم تكن حارحة لتعلن على الملأ أنها اختارت دينها غير دين قومها ، وأنها كمرت بما ورثت من عقائد أسلافها ، غير حائلة بأها تسعه أحلام الآباء ما دامت قد أحست إشراق أنوار اليقين في عين ذاتها ، إن أروع ما فيها أنها صادقة مع نفسها قد وهت حياتها وما ملكت يدها لله

ولرسول الله .

وجاء ابنها همد بن أبى هالة ومال عليها وقبلها وراح يسأله :

— كيف أنت يا أمه ؟

محاولت أن تحرك شفقتها ولكنها عجزت عن أن تتكلم ، ففتحت عينيها وملاهما منه ، ثم التفتت إلى زوجها الكريم فإذا بالأسى يغمره وإذا به يحاول أن يبعد عينيه عن عينيها حتى لا ترى ما فيهما من أحزان . إنه رقيق مرهف الحس . ويا طالما تهلت بالفرح كلما ارتادت معه عوالم ما فوق الطبيعة وما وراء المحسوسات ، ويا طالما انقلبت مستبشرة بشرف ما حصلت عليه من معلومات وسعيدة بالعطايا الوراثية التي وهبت لها من جود الله وكرمه ، ولكنها في هذه اللحظة أحسست أن يدا قوية تعصر قلبها لا جرعا من الموت بل حزنا على فراق رسول الله — ﷺ — .

وجاء أسامة بن زيد وارتمى في أحضان الرسول عليه السلام ، كان زيد ابن محمد قد تزوج أم أمين وكان أسامة ثمرة ذلك الزواج الذى باركه رسول الله — ﷺ — . وكان عليه السلام يحب زيدا ويحب أسامة ، فكان يقال لأسامة الحب ابن الحب . وكان الرسول يتهج إذا ما مشى إليه ، وكان يستقبله بالترحاب ويقبله في عطف أبوى ، ولكنه احتوى الصبى بين دراعيه وهو صامت ، فقد كان قلبه يمزحزا على حديحة الوفة النقية التى أحسنت في هذه الدنيا حسنة وهى على صراط مستقيم .

وداع في مكة أن أم المؤمنين تحود بأنفاسها فهرعت إليها أحبتها هالة وابنتها رينب وزوجها العاص بن الربيع ، وخرجت تشدد إليها أم الفضل زوجة العباس ، وهاطمة بنت أسد وإن لم يمض على موت زوجها أبى طالب ثلاثة أيام ، فقد تعنتت بالطاهرة القلوب .

ودخلت زيب على أمها ونظرت في وجهها فلاح عليها الجزع الشديد ، ورأى رسول الله — ﷺ — الحزن والألم في وجه ابنته فلم يحتمل البقاء فانسحب خارجا يبكي ويتحب ليطفىء النار التي تطلت بين ضلوعه .

وراحت زيب تنادي أمها الحبيبة في هفة ، وهالة تذرف الدموع على أختها ، وفاطمة الرهراء تلوى من الألم وعبراتها تغسل وجهها . وفتحت أم المؤمنين عيناها فرأت زين فمدت يدها وقبضت بها على يد العالمة ، وشرذ خيالها فرأت رقية وروجها عثمان بن عفان وقد وقفا يودعانها قبل الهجرة إلى الحبشة . كانا كملكين كريمين جميلين جليلين يمران من الأبالسة ، فقعبة بن أبي معيط روج أم عثمان بعد موت عفان ، قد سامهما سوء العذاب حتى هان عليهما فراق الأهل والوطن والأحاب .

وملأها على الرغم من الوهن الذي مشى في بدنها حين إلى رقية وعثمان ، فيا طالما سمعت من روجها عن جمال سارة روج إبراهيم فكانت تتخيلها كرقية ، ويا طالما سمعت منه عن جمال يوسف فكانت تراه بعين خيالها في صورة عثمان . وكانت تصعى إلى سورة يوسف فسحرك أشجائها للغلام الذي انتزعت القسوة من أحضان أهله . وما دار بخلدتها أن سيأتي يوم تفر فيه بنتها من وجه الاضطهاد .

إن رقية هناك في الحبشة وهي تتلهف على أن تراها قبل أن تموت ، إنها في شوق إلى أن تشم ريحها ، إلى أن تمرر يدها على شعرها ، إلى أن تصم صدرها إلى صدرها ، إلى أن تلثم عيناها ووجنتها وشفتيها ، وأن تمتزج دموعها بعبراتها ، وأن تختلط أنفاسها بأنفاسها ، ولكن هيهات ! ستذهب دون أن تودع فلدة كبدتها فقد كان وداعها يوم أن خرجت إلى الحبشة

آخر الوداع .

وشهقت أم كلثوم شهقة وهي في عمرة الأسى فالتفت إليها العيون الدامعة كأنما تنهاها عن ذلك النحيب الذي يؤدي الطاهرة ، فانسست من العرفة لا يرقأ لها دمع فأذا بأبيها عند باب العرفة واقف يسبح الدموع ، فاستشعرت أم كلثوم كأنها ستلفظ روحها مع عبراتها .

ودخل على بن أبي طالب وقد تفرق حرا على موت أبيه على كفره ، وما مد الفتى عييه إلى أم المؤمنين حتى أحس بقلبه ينخس من مكانه ، أينضب يسوع الحنان الذي نهل منه أبيل المشاعر مذ حاء إلى هذه الدار مع ابن عمه ؟ أتغيب أم المؤمنين من حياة رسول الله عبيه السلام ؟ وما دار محده ذلك الخطا حتى فزع وعص فما كان بقادر على أن يتصور عيش رسول الله الحبيب وقد احتفت من حياته الطاهرة وريره وعوبه بعد الله .

وراح الفتى ييكى في صمت المروعة والشجاعة والأئمة والحسان وحلاوة اللسان وصدق النية وصلاح السريرة ، إنها كانت تعمل للآخرة دائما أبدا ، لا تفك عن ذكر المعاد . رضيت عن الله ورضى الله عنها ، فطوى الخديجة ولرسول الله العراء .

وجاء حكيم بن حزام يلقي على عمته نظرة أخيرة فوقف أمام جلال الموت مطأطئا حزينا ، سى في تلك اللحظة أنها حاضرة ذلك الدين الذي جاء به زوجها ليسفه أحلامهم ويسب آهتهم ويفرق به بين الأخ وأخيه وارجل وصاحته والأب وبنيه ، ولم يعد يذكر إلا أنها عمته التي كانت تعمره بحماها وكان يهوى إليها قلبه . إنه يحبا حبا صادقا على الرغم من كل ما كان بينه وبينها من أمر الدين ، وإنه يحسن غصص الدموع في حلقة وقد فاض بها وجدته ، وراح يجاهد دموعه فلم الصمت فكان صمته يلع

بيان .

وهرعت نساء بنى هاشم وبني أسد إلى دارها وفاضت من غرفتها ، وجاءت أم أيمن إلى رسول الله ﷺ — وقد أفحمت بالبكاء تقول له إن سيدتها الطاهرة تطلبه ، هوقف عليه السلام أمام باب حجرتها لا يستطيع أن يتقدم خطوة ، فأم المؤمنين في النزاع الأخير وهو لا يحتمل أن يراها وقد ضاق صدرها بروعها . إنه يتمزق من الألم ويهتز من الحزن حتى ليكاد ينهار ، واحتلس إليه لنظرات على بن أبي طالب وزيد بن محمد وهند بن أبي هالة فانقبضت قلوبهم وأحسوا كأن شوكا يعترض حاجرهم وقد تحركت فيهم الشفقة على حبيبهم حتى كادت أن تنسبهم عظم فجيعتهم في الأم الحنون التي سكنت في وجدانهم أرق المشاعر وأبل الإحساسات .

وجاءت أم الفضل إلى رسول الله ﷺ — وعيناها تفيضان من الدمع حزنا لتقول له إن خديجة تناديه ، فمجل رسول الله ﷺ يتلفت بعينين رائعتين وقد نزل به حزن ثقیل ، وأشفق على نفسه من قسوة معاينة الطاهرة وهي تموت فلم تطاوعه قدماء على الدخول بل ظل في مكانه عند الباب لا يريم وقد سررت جمرات الحزن بين صلوعه .

وارتفعت الأصوات بالسحيب فكان ذلك إيذاها بانطواء أربع وعشرين سنة وثمانية أشهر شاركت فيها حديجة بعدها العظيم حياة التقيشف التي فرضها على نفسه قبل الرسالة ، وحياة الكفاح وتحمل كل الإساءات في سبيل الرسالة وإشراق النور . وصكت الأصوات آذان الواقفين خارج عرفة الطاهرة مطرقين مانصحروا بالبكاء — وقد دهل رسول الله ﷺ — عن نفسه فانخرط في السحيب ، ولم تقو رجلاه على حمله فانهار وهو يحس كأن نارا استشرت في جوفه ، فإنه لشيء أليم موجع لقلبه أن تذهب

( عام الحزن )



خديجة رفيقته وأبيسته وأن تتركه وحده في ضلام الطريق .

واستشعر كأن العواصف والأعاصير قد هبت عليه وهو يصرب في بيداء الحياة وليس له من ناصر يعيه على تبسيع رسالات ربه . وراد في كربه أن زينب وأم كلثوم وفاطمة الزهراء كن يولولن ويندن الطاهرة سيدة نساء قریش وأم المؤمنين ، وأن أم أيمن جعلت تغدو وتروح والهة حزينة بينا راح أسامة بجأراً بالبكاء يعلو صوته على صوت الجميع .

وجاء المسلمون إلى بيت نبيهم مهطعين يحملون أحرانهم وقد راح كل منهم يهكر في أسمى في كلمات يعزون بها رسول الله ﷺ ، حتى إذا ما أقبلوا عليه ورأوا في وجهه لوعة الحزن عقدت ألسنتهم فقد عر العراء ، وأطرقوا برعوسهم يهكون في صمت أليم .

وأقبل أبو بكر يستعير فلما رأى حبيب محمد عليه السلام قد هدته الفاجعة سرت في بدنه رعدة ولم يقو على كبج جماح عواطفه فارتفع صوته بالنشيج ، واندفع إلى رسول الله عليه السلام وضمه إلى صدره كأعما يود لو يحميه من الأشجان التي انقصت عليه ، فتعانق الصديقان يهكيان ويلذبان أعلى الدموع على حاصنة الإسلام العالية .

ونظر حمزة وعمر إلى الصديقين المتعانقين اللذين غسلت العبرات وجهيهما ، فتفجرت ينابيع الأسمى بين ضلوعهما ومسحت أعينهما الدموع تنفيساً عن اللوعة التي تكاد أن تكتم الأنفاس ، ورنأ أبو لهب إلى ابن أخيه الذي أعتق جاريته يوم أن بشرته بمولده فرق له قلبه ونسى في غمرة الحزن ما كان بينهما من خصام ، فسالت دموعه تعسل لحيته الحمراء

وجهرت خديجة فحمل المسلمون نعشها وساروا به في الطريق الذي طالما قطعت خديجة في جاهليتها وفي إسلامها ومن حولها إمائها إلى الحرم

وكان وجوه قريش وسادات مكة من مسلمين وكافرين يسرون في الحجارة مطرق الرعوس يسرون في هدوء ، وقد عمرتهم الأحران . فمئذ ثلاثة أيام قبروا أبا طالب وها هم أولاء يطنقون اليوم لقبر الطاهرة ، فأفقدتهم لا تزال ممتلئة بالعبرة .

وساروا إلى الحجون وقد ثارت العواطف في الأفتدة . كان رسول الله ﷺ — الذي ألف الله به إخوانا وفرق أقرانا وأعر به الذلة وأدل به العرة يستشعر كأنما يودع قطعة عريرة من نفسه ، أو جزءا أصيلا من سويداء قلبه ، وكانت وجوه المسلمين بأسرة وقلوبهم ناكية يريد في أساهم أنهم يحسون في صميم وجودهم أن السماء تسكى على أم المؤمنين ، ناصرة الإسلام .

ويلغوا القبر فاشتد النحيب حتى نجاويت به جبال مكة لتنى تطل على الحجون ، والتف المسلمون برسول الله عليه السلام ليكون وهو يدرف الدمع المهنون ، فكانت أفئدتهم تشرق حرننا لحزن نبيهم الذي برل حبه بسويداء قلوبهم . ودل الجسد الطاهر في القبر فجأر الناس بالبكاء وجزع المسلمون جزعا شديدا ، فببهم الكريم قد حقيقته عبراته وارتفع صوته بالشيخ لينفس عما يتلظى بين ضلوعه من نيران الأحران .

وعبيت في الثرى أول من أشرق قلبها بأنوار اليقين بعد رسول الله ﷺ — ، وطويت صفحة من أبلى صفحات البشرية ، وأعلى الدموع تدرف على الطاهرة سيدة قريش حاصة الإسلام أم المؤمنين عنها السلام .

مات أبو طالب فأحس أعداء الرسول — ﷺ — راحة فقد أهار السد المنيع الذي كان يحول بينهم وبين صب جام عصمهم على أنى القاسم ، فلم يجد بعد اليوم من يمنعهم من إنزال الأذى به وتعديه حتى يعود إلى ملتهم ، أو يقتلوه وبسريحو من تلك الفتنة التي لم تترك داراً من دور مكة إلا دخلتها وفرقت أهلها شيعاً وأحراباً .

وماتت حديجة فزل بدنها حزن عميق ، وكان أكثر المحزوين محمداً عليه السلام ، فلم تكن حديجة زوجة عاقلة رشيدة وحسب ، بل كانت نعم العون لزوجها على تبليغ رسالات ربه ، إن قلبه يتمزق أسى على فراقها ولكن ما كان حزنه يمنعه من أن يخرج إلى الناس يدعوهم إلى الصراط المستقيم ويرشدتهم إلى سبل ربه .

عادر محمد عليه السلام العرفة التي أعدت لعبادته وسار في الردهة حطوت يتحاشى أن ينتفت إلى الحجرة التي فاصت فيها روح الطاهرة ، ثم هبط في الدرح ومشى هوناً في الممر الذي يقود إلى لباب . حتى إذا ما وقف على عتبة وهم بأن يصعد إلى الطريق إذا بالحجارة تصوب إليه من دور أبي جهل والأسود بن عبد يغوث وأمية وأبي ابي حلف والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ، فتقهقر عليه السلام يحنمى بالحجر الكبير الذي كان في ممر الدار ، والحجارة تهطل عليه هطول المطر المندرار .

وامتلاً رسول الله عليه الصلاة والسلام بالحق وانفض ، فقومه قد بيتوا العزم على أن يحاхروا بعداوتهم وأن يسوموه سوء العذاب وأن يقتلوه

دون أن يخشوا بسى هاشم وبسى المطلب . فقد أصبح في العابرين الرجل الذي كان يستطيع أن يجمع الهاشميين جميعا مسلمين وكافرين لصرة ابن أخيه ، وما من رجل هاشمي يقادر على ذلك غير أبي هب ، وأبو هب من حزبهم قد شس أقسى ألوان الاضطهاد على ابن أخيه واشترك مع الكافرين في حصار عشيرته في شعب أبي طالب .

رأى رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — تهجم قريش فتذكر أبا طالب فقال :

— يا عم ، ما أسرع ما وجدت ففدك .

لم يكن رسول الله عليه السلام يحشى القتل بعد أن كتب الله على نفسه أنه سيعصمه من الناس ، ولكنه ما كان يقادر على أن يخرج من حلف الحجر الذي احتسب به ، فقتائف الحجارة تهال عليه من بيوت جيرانه في إصرار كأنما قد عزموا على أن يضعوا حدا للعداوة لناشبة بينهم وبينه .

كانت دار أبي هب تطل على دار حديجة فصكت أصوات الحجارة مسامع أبي هب فراح ينظر ، فرأى جيران ابن أخيه يلقون عليه الحجارة في صراوة . لقد نالت قريش من رسول الله — ﷺ — ما لم تكن تناله في حياة أبي طالب ، فتحركت في أبي هب محوته فانطلق مهرولا إلى حيث كان ابن أخيه محتبعا . فلما رأى الرجال أبا هب يشند إلى دار حديجة كموا عن إلقاء الحجارة وقد تهللوا بالفرح ، فقد حسبوا أن أبا هب سيسلمهم لم يقتلوه فتطيل نفوسهم بعودة عزتهم التي أدلها ابن عبد الله

وحاء أبو هب رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا محمد ، امض لما أردت وما كنت صانعا إذا كان أبو طالب حيا فاصنعه . لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت .

وخرج أبو هب مع ابن أخيه بحدثة في ود وأبو جهل والضمر وعقبة بن أبي معيط وسدات قريش الذين قضوا على الحجارة بأيديهم يظفرون في دهش ، فما حطر لهم على قلب أن يحمي أبو هب ابن أخيه الذي قال فيه قرأنا كله هجاء قاذع يتلوه المسلمون .

واتفق أن أحد المستهزئين سب النبي ﷺ — فأقبل عليه أبو هب ونال منه ، فولى وهو يصيح :

— يا معشر قريش ، صبا أبو عتبة .

فأقبلت قريش على أبي هب وقالوا له :

— أفارقت دين عبد المطلب ؟

— ما فارقت دين عبد المطلب ، ولكن أمتع ابن أخي أن يضام حتى يمضي إلى ما يريد .

— أحسنت وأجملت ووصلت الرحم .

وما كانوا صادقين فيما قالوا بل كانوا لا يريدون معارضة أبي هب حتى لا يزداد إصرارا على تأييد الرسول عليه السلام . وأخذوا يتحيون العرص للإيقاع بين أبي القاسم وعمه فما أيسر إثارة غضب حليف الخمر والميسر .

وجعل الرسول عليه السلام يدعو الناس إلى الإسلام وهو مطمئن إلى نصرة عمه لا يخشى إيذاء المشركين ، وأحق أبا جهل وعقبة بن أبي معيط بسط أبي هب حمايته على ابن أخيه ، فقد رسما خططهما بعد موت أبي طالب للإجهاز على عدوهما اللدود ظنا منهما أن اختفاء أبي طالب سيترك الصائغ بلا ناصر . أما وقد قام أبو هب دونه فلا بد من الإيقاع بين سيد بني هاشم الجديد وأبي القاسم .

كان عجباً أن يقوم عدو ابن أخيه اللدود دونه ، فراحته أم جميل تلوم زوجها على مساندة من محابها في قرآته أشد الهجاء ، ومشى رجال من أعداء الرسول عليه السلام إلى المرأة الحاققة يؤججون يراون حقدتها على ابن عبد الله ويوسوسون لها أن تلتقط أذن زوجها تنفث فيها نقض ذلك العهد العhib الذي قطعه على نفسه ، وما كانت المرأة في حاجة إلى إيعار فنفسها الممرورة كانت كفيلة بأن تحيل حياة أبي لب جحيما مادام على عهده لمنافس أحبها إلى مفيان .

ومكث رسول الله أياما يعرض نفسه ودين الله على الناس لا يتعرض له أحد من قريش وهابوا أباً لب ، إلى أن اطلق أبو جهل وعقبة بن أبي معيط إلى رسول الله ﷺ — فقال له أبو جهل :  
— يا محمد أين مدخل أبي طالب (١) ؟  
— في النار .

فاطلق أبو جهل وعقبة بن أبي معيط إلى أبي لب فقالا له :  
— أخبرك ابن أخيك أين مدخل أخيك أبي طالب ؟ يرعم أنه في النار .  
فذهب أبو لب إلى ابن أخيه فقال :  
— يا محمد أين مدخل أبي طالب ؟

لم يشأ أن يثير عداوة عمه الذي يحبه ، ولم يكن ليكذب قط ولو خسر العالم كله فقال :  
— مع قومه .

---

(١) في الأصل عبد المطلب وأعتقد أن ذلك خطأ لأن عبد المطلب من أهل الفترة وما كنا معديين حتى نبعث رسولا ﴿ ٥ ﴾ .

فخرج أبو هب إلى أنى جهل وعقبة فقال :

— قد سألته فقال مع قومه .

فقال :

— يزعم أنه في النار .

فعاد أبو هب إلى الرسول عليه السلام فقال :

— يا محمد أيدخل أبو طالب النار ؟

فقال رسول الله ﷺ — في أسي :

— نعم ، ومن مات على مثل ما مات عليه أبو طالب دخل النار .

إنه موقف شديد على الرسول عليه السلام ، فأبو طالب قد نصره وهو يحبه ولكن حبه ربه أشد ، وما كان يستطيع أن يكذب على الله ولو فقد تأييد أبي هب ، فقال أبو هب في حدة :

— لا برحت لك عدوا وأنت تزعم أن أبا طالب في النار

واشتد على رسول الله عليه السلام وعادت قريش إلى إيذائه ، فبينا هو في طريقه إلى داره حزينا لموت أبي طالب وفقد حديجة التي كان يجد عندها العطف والمواساة ، إذ بعض سمهاء قريش نثر على رأسه التراب فدخل بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه بعض بناته وحملت تريله عن رأسه وتبكي ورسول الله ﷺ — يقول لها .

— لا تبكي ، لا تبكي يا سبية ، فإن الله تعالى مانع أباك .

وحلس الرسول صلوات الله وسلامه عليه مهموما من كيد الكافرين ، وراد في أساه أنه بدأ يحس قسوه غياب حديجة من حياته ، فما ملكت بناته غير البكاء وما حمت إليه إحداهن تسمح عنه أحرانه ، وما كان ليرضى أن يبينهن آلامه أو يحدثهن عن لوعة الأسي المناجحة بين ضلوعه ، فقد كان

أكبر من أن يحملهن هم ، بل صار عليه أن يحمل أعباءه وأعباءهن بعد أن استجابت سيدة الدار لنداء ربها ، وتركته بلا أنيس في الأرض يكشف له عن خبيثة نفسه ، ولا وريث صدق يشاركه التفكير والتدبير ، ييسر العواطف الجياشة تمور في الصدور .

وأطرق عليه السلام يفكر في أمره ، فوجد أشد الناس عداوة له أبا جهل وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وابني خلف فأبو جهل قد شنها عليه حربا لا هوادة فيها منذ أوحى إليه ، وعقبة قد داس على رقبته ذات يوم فيما كان ساجدا لله في الحرم حتى إن عبيبه كادت أن تخرجها من محجريهما فانتصب عليه السلام قائما وهو يتوعد عقبة بالقتل إن لقيه خارج مكة ، ومنذ ذلك اليوم مئيه — ﷺ — عما توعد به ابن أبي معيط وزاد عقبة طغيانا وكفرا .

تزوج عقبة بن أبي معيط أروى بنت عمر بن كريب ابنة عمته أم حكيم البيضاء توأم أبيه عبد الله بعد أن مات عنها عفان ، ولم يخفف زواجه من ابنة عمته من حدة عداوته للإسلام والمسلمين ، بل إنه أوغل في الكيد لرسول الله — ﷺ — واشتد في إيذاء عثمان بن عفان ابن روجه ورفية بنت محمد عليه السلام حتى خرجا مهاجرين إلى الحبشة ، فرارا من اضطهاد عقبة وصحبه .

ونهب عقبة مع أبي جهل والنضر وابني خلف في أمر مقاطعة بني هاشم وصرب الحصار عليهم في شعب أبي طالب ، وكانت له اليد الطولى في تأليب عمه أبي لهب عليه بعد أن رقى له قلبه وبسط عليه حمايته . كان محمد قد توعد عقبة بالقتل إذا لقيه خارج مكة ، وإنه وهو في إطارقه الحرية بعد أن استأنف أبو لهب عداوته واشتد عليه هو وقريش يجد أن القتل حراء



وفاق لعقبة بن أبى معيط على ما جنت يده .

وجعل يفكر فى البصر بن الحارث ابن خالته ، إنه يؤديه ويكثر من إيدائه والليل منه . وما أكثر أقاربه الذين آذوه ولكس البصر قد تجاوز كل حد فى عداوته ، لم يكتف بالسحرية منه بل راح يستهزئ بالله سبحانه وتعالى وقرآنه استهزاء الجاهلين . ولو وقع البصر ذات يوم فى يده فكن يدهه يمشى من بعد فى الأرض التى دسها بأساطيره وسب الله بغير علم ، سبحانه الله عما يصفون ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون .

وانقضى الليل والرسول عليه السلام ياشد ربه ويدعوه ويشكو إليه هوانه على الناس والدموع تنهمر من عييه ، فالخطوب تحيط به من كل جانب ، حزن ثقيل برل يقلبه لموت أبى طالب وأم المؤمنين ، واشتداد الكافرين عليه شدة لم يدق مثلها قبل أن يفقد عمه الحبيب ، إنه أضعف من أن يقف أمام ذلك الطغيان الهائل وحده ، وهو فى أشد الحاجة إلى عون الله وبصره ، وهو على ثقة بالرغم من كل ما يلاقى من صعاب بأن بصر الله قريب .

وخرج إلى المسجد وهو شارد يستشعر فى أعماقه أن الكافرين يترصون به ، ودخل إلى الحرم من باب بى محزوم ومد بصره فإذا بأبى بكر وعلى وبعض الصحاب قد جلسوا بالقرب من رزم ، فمشى إليهم فوقعت عليه أعين سادات قریش فهبوا إليه مزحجين وأخذوا يتجاذبون وهم يقولون له — صلى الله عليه وسلم —

— أنت الذى جعلت الآلهة إلها واحدا .

وجعل بعضهم يدفعه إلى بعض وما دنا من أصحابه أحد إلا أبو بكر ،

لم يحتمل أن يرى رسوله ونبيه وصفيه وحييه وهم يتجاذبون فانطلق إليهم يضرب هذا ويدفع هذا وهو يقول :  
— أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟

ولم يكن ليفعه دفاع أي بكر عنه فالعداوة قد بلغت ذروتها ، فإما القتل وإما أن يخرج من مكة ، وفي شوال سنة عشرة من النبوة حرح إلى الطائف ومعه مولاه زيد بن حارثة ضيق الصدر كسير القواد ، لعله يجد في ثقيف من يشرح الله صدورهم للإسلام ويقومون معه على من خالفه من قومه .

كان الحارث بن كلدة زوج خالته في الطائف . أيكذه الحارث كما كذبه ابنه النضر وقارم رسالته ؟ وكان بها أمية بن أبي الصلت من كان يرجو أن يكون رسول الله ، وكان يجلس إلى ساء ثقيف يحدثهم أنه النبي الأمي الذي تفيض بذكره الكتب المقدسة ، فلما أخبره أبو سفيان أن لبي الذي كان يحدثه عنه قد بعث وأنه محمد بن عبد الله حسده ، فلما قال له أبو سميان : أتصدقه ؟ قال أمية : ما كنت أتبع نبيا من غير ثقيف

وكان بها أولاد عمرو بن عمير بن عرف الثقيفي . إهم سادات ثقيف وأشرفها ، فلو تابعوه لوجد معة ورجالا ياصرونه على الإسلام . وذهب ومعه زيد إلى دار الحارث ابن كلدة طيب العرب وراح عليه السلام يعرض على روح حالته الإسلام فلم يلق إليه سمعه ، بل راح يتبعه عليه بأجزاء الحكمة التي جاء بها من الحيرة وحوران وبصرى ، وما كان ما جاء به إلا فتات موائد فلاسفة اليونان والرومان وأساطير العرس .

وأعرض الحارث بن كلدة عن دعوة رسول الله ﷺ — كما أعرض عنها من قبل ابنة النضر ، فقام رسول الله ﷺ — وهو ضيق الصدر

يسير ومعه زيد بن حارثة إلى دار أمية بن أبى الصلت .  
 وفي دار أمية اشتد الجدل بين رسول الله ﷺ وبين من كان  
 يطمع في النبوة ، وقد كان حديث ابن أبى الصلت يقطر حسدا وحقدا .  
 إنه ليس مسوح الرهبان وانقطع للعبادة وعكف على قراءة الكتب ليكون  
 أهلا للرسالة ، ولكن الله جلت قدرته اصطفى غيره والله أعلم حيث يجعل  
 رسالته .

وغادر رسول الله ﷺ دار أمية بن أبى الصلت وهو حزين قد  
 صاق صدره بعناده ، فالرجل على علم بالله وكتبه ورسله ، بل إنه ليعلم أنه  
 رسول الله حقا وصدقا ، فما باله لا يصدق ولا يتبع الهدى ؟ فأمر الله  
 عليه : ﴿ واتل عليهم بآياتنا آياتنا فانسخ منها فأتبعه الشيطان  
 فكان من الغاوين ﴾ \* ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأبعه هواه  
 فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم  
 الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون \* ساء مثلا القوم  
 الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون \* من يهد الله فهو المهتدى ومن  
 يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴿ (١) .

ودخل رسول الله ﷺ — وزيد بن حارثة على أولاد عمرو بن  
 عمير ، وكانوا إخوة ثلاثة : عبد ياليل وعبد كلال وحبيب . فلما جلس  
 إليهم راح يكلمهم فيما جاءهم به ، يقول إنه رسول رب العالمين ويعرض  
 عليهم الإسلام وبصرته والقيام معه عن من خالفه من قومه ، فقال له  
 أحدهم :

— إلى أمرط ( أنف ) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك .

وقال له آخر مستهزئا :

— ما وجد الله أحدا يرسله غيرك .

وقال له الثالث :

— والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسول الله كما تقول أنت أعظم

خطرا من أن أرد عليك الكلام ، وإن كنت تكذب على الله ما يسعى لي أن

أكلمك .

فقام ﷺ — من عندهم وقد أيس من خير ثقيف ، وحشى أن يبلغ

قومه ما لقي من ثقيف من خذلان فيشتد أمرهم عليه ، فالتفت إلى أولاد

عمرو بن عمرو الثقفي وقال في صوت متهدج قد بللته الدموع :

— اكسوا على .

— اخرج من بلدنا والحق مسجاتك من الأرض .

وسار رسول الله عليه السلام ليخرج من الطائف وقد صاق صدره

ونصب خاطره واستولى عليه حزن ثقيف ، واطلق زيد بن حارثة مطرق

الرأس كسير الفؤاد ، وما ابتعدا قليلا عن سادات ثقيف وأشرافهم حتى

أعروا برسول الله سفهاءهم وعبيدهم فخفوا إليه يسونه ويصيحون به :

— الكافر باللات . الصائى .

واجتمع الناس عليه يؤذونه ويريدون حارثة يحاول أن يقص السفهاء من

حوله دون جدوى ، فقد كبر عليهم أن يأتي من مكة رجل يسب آلهتهم

اللات في عقر دارهم .

وقعدوا له صفين على طول الطريق وفي أيديهم الحجارة ما إن يمر بين

الصفين حتى يرموا رجله بالحجارة لا يرفع رجله ولا يصعهما إلا

أرضخوها بالحجارة ، ونظر زيد بن حارثة في جزع إلى الصفيين فإذا بهما يمتدان على مدى بصره .

وراح رسول الله ﷺ — يتقدم والسفهاء يدقون رجليه بالحجارة دقا ، وزيد بن حارثة يحاول أن يقيه بنفسه دون جدوى فشج رأسه وسالت الدماء من رجليه ، بيد أن ألمه لرسول الله ﷺ — كان أشد من ألمه على نفسه .

واحتصب نعلا رسول الله عليه السلام بالدماء ووجد ألم الحجارة ، فقعده إلى الأرض وقد نال منه الجهد وارتسم على وجهه أعماق آيات الأم وراح يلتقط أنفاسا مكروبة ، وزيد بن حارثة يحس أنه سيموت كمدا على الرسول الحبيب ، فخفف السفهاء إليه فأخذوا بعضديه فأقاموه فدفعوه ليستأنف مسيره .

وراح محمد ( ﷺ ) يسير والحجارة تصوب من الصفيين إلى قدميه فيسيل الدم الطاهر على الأرض ويترنح عليه السلام من العذاب ييسا ضحكات السفهاء الماجين تحلحل في الفضاء ، وراح زيد بن حارثة يعاون أحب أهل الأرض إلى قلبه ليقم صلبه ويقطع طريق الآلام ، ولكن الطريق ما كان لينتهي فالألم الذي كانا يحسانه كان فوق طاقة البشر . فقعده الرسول عليه السلام على الأرض مهوور الأنفاس ، وارتقى زيد بن حارثة وهو يكاد أن يفيب عن الوجود ، فخفف الرحال إليهما فأخذوا بعضديهما فأقاموهما فدفعوهما إلى الطريق ليستأنفوا رصخ أقدامهما بالحجارة وهم يصحكون ، فالدماء الطاهرة التي تسيل على الرمال كانت تثير ضحك غلاظ الأكباد قساة القلوب .

وسارا وهما يسمعان الصحكات كأنها كانت آتية من مكان سحيق ،

وقد مادت الأرض تحت أقدامهما ورأيا السماء تتراقص وقد راحت الدماء ترسم أربعة خطوط حمراء على الأرض ، وقد صاق صدر رسول الله — ﷺ — وصدر زيد بذلك الظلم المبين ، فما كان يحظر على قلب أن أقواما تنسو قلوبهم حتى يصبح تعذيب الأبرياء لعبيتهم التي تشرح الصدور .

وتحمل الرسول عليه السلام ومولاء عذاب الهون حتى خلفا الصميين اللذين اصطفا من الظالمين على جانبي الطريق ، فلم يقوريد على الوقوف فارتقى على الأرض يهت ويلتقط أنفاسه في جهد جهيد ، يبارف رسول الله — ﷺ — رأسه والدم يسيل من رجليه والعرق يتفصد من جبهه وقد امتزج بالتراب وراح يناجي ربه ويقول :

— اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس .. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بورك الذي أشرفت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك ، لك العتيبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك .

كان طريق الآلام ينتهي عند بستان لعبة بن ربيعة وأخيه شيبه ، وكانا في البستان يريان ما لقي أبو القاسم من سفهاء أهل الطائف فأشفقا عليه وطاقفتهما رافة ، فما ناله ابن عبد الله من إيذاء يرق أقسى القلوب ، إنه كان يوء من الجهد فتأني قسوة السفهاء إلا أن يأحدوا بعضديه ليقيموه حتى يستأنفوا دق رجليه بالحجارة وهم يصحكون ملء الأثداق ، وهو يرفع رجليه ويضعهما والدماء تبتق منهما لثروى الأرض .

وراح رسول الله — ﷺ — يعاون مولاه على النهوض ، حتى إذا ما

استطاع ريد أن يقيم صلبه راحا يتقدمان إلى البستان وهما يترنحان وقد راعت منهما العيون ، ويرفران ويشهقان في صوت مسموع ، حتى إذا ما بدعا شجرة راحا يستظلال بها وتمددا تحتها يلتقطان الأمان .  
وتحركت لأنى القاسم رجيمهما فدعوا غلاما لهما يقال له عداس فقالا له :

— حد قطعاً من هذا لعب مضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه .

ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ — ، ثم قال له :  
— كل .

ووضع زيد فيه يده ، فلما وضع رسول الله ﷺ — فيه يده قال :  
— باسم الله .

ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ثم قال :  
— والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد  
فقال له رسول الله ﷺ — :

— ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ؟ وما ديك ؟  
— أنا بصري ، وأنا رجل من أهل نيبوى .  
— من قرية الرجل الصالح يوس بن متى ؟  
فقال عداس في دهش :

— وما يدريك ما يوس بن متى ؟ والله لقد حرحت بها وما فيها عشرة  
يعرفون ما متى ، فمن أين عرفت أنت متى وأنت أمى وفي أمة أمية ؟  
— ذلك أخى ، كان نبيا وأنا نبى .

فأكب عداس على رسول الله ﷺ — يقبل رأسه ويديه وقدميه وزيد يظفر وقد اعرو رقت في عيه الدموع تأثراً .

رأى عتبة وشيبة ابنا ربيعة ما يفعل عداس بأبي القاسم فالتفت أحدهما إلى الآخر في عجب ثم قال :

— أما غلامك فقد أفسده عليك .

فلما جاءهما عداس قال لهما :

— وبلك يا عداس ! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟

— ما شأنك سجدت لحمد وقلت قدميه ولم ترك فعلته بأحدنا .

فقال عداس وقد أشرق وجهه بالإيمان :

— يا سيدي ، ما في الأرض شيء خير من هذا ، لقد أعلمني بأمر لا

يعلمه إلا نبي .

— ويحك يا عداس لا يصرفك عن دينك .

— لا يفتنك عن نصرانيتك فإنه رجل حذاع وديك خير من دينه

ويخس رسول الله ﷺ — من خير ثقيف فأنصرف من الطائف

راجعا إلى مكة وهو حزين ، ويريد بن حارثة يطلو معه يفكر فيما سيفعل

حبيه بعد أن أخرجه قومه من مكة وبعد أن لقي أبشع ألوان الاضطهاد في

الطائف .

وسارا صامتين على راحتيهما ، رسول الله ﷺ يستشعر أعماق آيات

الأمي ، فقد انقضت عشر سبب مد أوحى إليه أول مرة وما انتشر دين الله

في مكة ولم تستحب له القبائل ، وقد ردت الطائف ردا قاسيا غير كريم

إنه سأل القوم أن يكتموا عليه حشية أن يصل إلى قومه أبناء خذلان ثقيف

له ورفصهم دعوته فيزداد إيداء قريش له ، ولكن عتبة وشيبة ابني ربيعة

( عام الحزن )



كانا في بستانهما وقد رأيا ما فعل به سفهاء الطائف وما نالوا منه .  
 وكان يريد يمن أنينا مكتوما فوق الحجارة مه لا يزال يؤلمه . ولكن ألم  
 نفسه كان أقسى وأشد ، فما بال الناس يؤدون في ضراوة من يريد أن يفتح  
 عيونهم العمى وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور ؟ وما بال قريش قد  
 لحت في العداوة حتى إياها أخرجه من داره ؟ وكيف يعود رسول الله عليه  
 السلام إلى مكة بعد أن طرده أعداؤه منها ؟

ونزلا بوادي نخلة عن مسيرة ليلة من مكة ، وقام — ﷺ — في جوف  
 الليل يصلي ، فمر به نمر من الجن فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا  
 إلى قومهم مندريين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا .

وأقام رسول الله — ﷺ — بنخلة أياما ، فقال له ريد :

— كيف تدخل عليهم وهم أخرجوك ؟

— يا ريد . إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه

ومظهر نبيه .

لم يتزعزع إيمانه بنصر الله لحظة في أحلك أيام رسالته ، كان على يقين  
 من أن الله ناصر دينه ومظهر نبيه . فإن كان قد مكث في نخلة أياما فقد أقام  
 بها حتى يلتقط أنفاسه بعد مالقى من سفهاء ثقيف وإنه داخل على قومه  
 على الرغم من أنهم أخرجوه ليلع رسالات ربه ، فإن لم يفعل فإنه يكون  
 قد تقاعس عن تأدية رسالته وحاشا لله أن يكون من اصطفاه خوارا ، أو  
 أعجز من أن ينهض بأمراته .

وامتنطى رسول الله — ﷺ — راحلته وانطلق إلى مكة وزيد في رفقته  
 يستشعر خوفا على النبي عليه السلام ، وانتهت الرحلة عند غار حراء فنزل  
 به رسول الله ، ثم بعث إلى الأحس بن شريق ليحييه . كان الأحس

يعطى السبي — ﷺ — من طرف اللسان خلاوة وكان يطهر له الود ، فإذا ما انصرف الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وجلس إلى المشركين نال من أبي القاسم ، وعاد الرجل الذي بعثه محمد عليه السلام إلى الأحس فقال :

— إن الأخنس يعتذر بأنه حليف ، والحليف لا يحير .

فبعث — ﷺ — إلى سهيل بن عمرو فقال :

— إن بني عامر لا يحير على بني كعب .

وراح رسول الله — ﷺ — يفكر في شريف من أشرف قريش يحيره

فتذكر مطعم بن عدي وبلاءه في رفع الحصار عن بني هاشم لما حاصروهم أعداء الرسول في شعب أبي طالب فأرسل رجلا من حزاعة إليه يقول :

« أدخل في جوارك » .

وبلغ الخراعي مطعم بن عدي فقال له :

— إن محمدا يريد أن يدخل في جوارك .

فقال مطعم دون أن يتردد :

— نعم

ودعا بيته وقومه فقال :

— تلبسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت ، فإنني قد أجزت محمدا .

فدخل رسول الله — ﷺ — حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، مقام

مطعم بن عدي على راحلته فتنادى :

— يا معشر قريش ، إنني قد أجزت محمدا فلا يهجه أحد منكم .

فانتهى — ﷺ — إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين ، وانصرف إلى

بيته ومطعم وولده مطبقون به وفي أيديهم السيوف ، قد أجازوا رسول الله

من أعدائه وإن لم يدعخوا في دين الله .

وخفت فاطمة وأم كلثوم إلى أبيهما يقبلانه في وجد والدموع تهمر من أعينهما ، وهرع أسامة بن زيد إلى النبي فضمه إليه في حب ، ثم دخل عرفته التي أعدت لعبادته وشرده بدهنه فرأى بعين حيا له سفهاء ثقيف وهم يأخذون بعضديه ويرفعونه بينهم ليتصب واقفا بعد أن يكون قد قعد على الأرض من الإعياء ليتمكسوا من دق رجله بالحجارة في أثناء سيره وهم يتضاحكون ، كانت قسوتهم أليمة ولكن رفضهم لدعوته كان أقسى على قلبه من كل آلام يده وما حاق به من عذاب . وفيما هو مشارد حزين إذ أوحى إليه : قل أوحى إلى أنه استمع نقر من الخيل فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا \* يهدي إلى الرشدا فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا \* وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا \* وأنه كان يقول سمعنا على الله شططا \* وأنا طئنا أن لن نقول لئس والحن على الله كذبا \* وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا \* وأنهم طوا كما طنتم أن لن يبعث الله أحدا .

وفصم عه الوحي فرفت على شفقتيه ابتسامة عذبة وأحسن رضا ، فقد كان إسلام الجن بعد ما لاق من اصطهاد قريش وثقيف تسرية عنه وبارقة ضياء لمعت في الظلام ، فارداد بقيا على يقين أن الله متم بوره ولو كره الكافرون .

## تذييل

قال بعض الزنادقة وهم يحاورون جعفر الصادق منتقدين القرآن الكريم :

— طعننا في القرآن ، لو قال امرؤ القيس : قفانبك من ذكرى حبيب ومزل . وكرر ذلك أربع مرات في نسق أما كان عيبا ؟ فكيف وقع في القرآن : ﴿ قل يا أيها الكافرون \* لا أعبد ما تعبدون \* ولا أنتم عابدون ما أعبد \* ولا أنا عابد ما عبدتم \* ولا أنتم عابدون ما أعبد \* لكم ديككم ولى دين ﴾ <sup>(١)</sup> ؟ وهى مثل ذلك فقال جعفر الصادق :

— قال به المشركون : اعبد معنا آهتنا يوما بعد معك إهتك عشرة ، واعبد معنا آهتنا شهر النعد معك إهلك سنة . فنزلت إني لا أعبد ما تعبدون يوما ولا أنتم عابدون ما أعبد عشرة ، ولا أنا عابد ما عبدتم شهرا ولا أنتم عابدون ما أعبد سنة .

وقد تضمنت كتب التفسير بحوثا في تعليل سبب تكرار آية « ولا أنتم عابدون ما أعبد » فيرى بعضهم أنها ضرب من صروب التأكيد وبعضهم الآخر يرى أن واحدة مهما تشير للمستقبل والثانية تشير إلى الماضي .

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده :

— مفاد الجملتين الأوليين الاختلاف التام في المعبود ، ومفاد الجملتين

الأحرين تمام الاختلاف في العادة : فلا معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودي ذلك إله الواحد المنزه عن التد والشفيع ، المتعالى عن الظهور في شخص معين أو المخانة لشعب أو واحد بعينه والذى تعبدونه على خلاف ذلك .

وعبادتي مخلصه لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالعنة عن الله تعالى ، فلا تسمى على الحقيقة عبادة ، فأين هي من عبادتي ؟

وجاء في منتخب تفسير القرآن :

« قل يا محمد ، يأبى الكافرون المصرون على كفرهم . لا أعبد الذى تعبدون من دون الله . ولا أنتم عابدون الذى أعبدوه هو الله وحده . ولا أنا عابد مثل عبادتكم لأنكم مشركون . ولا أنتم عابدون مثل عبادتي لأنها التوحيد . لكم دينكم الذى اعتقدتموه ولى دينى الذى ارتضاه الله لى » .  
وأعتقد أن السورة تحمل كل هذه التفسيرات .

وقد حاول الزنادقة الطعن في القرآن والتشكيك في صدق رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام فوضعوا أحاديث نبوية لزعة ضعاف الإيمان ، وكان مما وضعوه حديث ما ألقى الشيطان في روع الرسول عليه السلام من كلمات لما أنزلت عليه سورة ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ <sup>(١)</sup> وقد أحد بعض الرواة والإخباريون المولعون بكل عريب هذا الحديث دون تححيص ودسوه في سيرة سيد المرسلين ، وإن كان بآدى الاختلاق .  
قال محمد بن سعد عن محمد بن عمرو بن واقد بسند يرفعه : لما رأى

رسول الله — ﷺ — من قومه كفأ عنه ، جلس خاليا فتمنى فقال :

— لبيته لا يرسل على شيء يفرهم عنى .

وقارب رسول الله — ﷺ — قومه ودنا منهم ودنوا منه ، فجلس يوما جلوسا في ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم : ﴿ والجم إذا هوى ﴾ حتى بلغ ﴿ أفرأيتم اللات والعزى \* ومائة الثالثة ﴾ <sup>(١)</sup> ألقى الشيطان على لسانه كلمتين . « تلك العرائق العلا . وإن شعاعتهن لترجي » ولما بلغ العرائق العلا قال الواقدي : فتكلم رسول الله — ﷺ — بهما ، ثم مضى فقرأ السورة كلها وسجد وسجد القوم جميعا ، ورفع المعيرة بن الوليد ترابا إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخا كبيرا لا يقدر على السجود . ويقال : إن أبا أحبيحة سعيد بن العاص أخذ ترابا إلى جبهته فسجد عليه — وكان شيخا كبيرا — فرضوا بما تكلم به رسول الله — ﷺ — وقالوا :

— قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشمع لنا عده ، فأما إد جعلت لها نصيبا عندك فحن معك .

فكبر ذلك على رسول الله — ﷺ — من قولهم حتى جلس في البيت ، فلما أمسى أتاه جبريل فعرض عليه السورة ، فقال جبريل .

— ما جفتك بهابن الكلمتين .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— قلت على الله ما لم يقل .

فأوحى الله إليها : ﴿ وإن كادوا ليفتنوك عن الذى أوحى إليك لتفتري

عبيدا غيره وإذا لا تعبدوك حليلا ﴿ إلى قوله . ﴿ ثم لا تعبد لك عليا نصيرا ﴿ (١) .

ففسخت تلك السجدة في الناس حتى بلغت أرض الحبشة ، فبيع أصحاب رسول الله — ﷺ — أن أهل مكة قد سجدوا فأسلموا ، حتى إن الوليد بن المغيرة وأبا أحيحة قد سجدوا خلف النبي — ﷺ — ، فقال القوم :

— فمن بقى بمكة إذا أسلم هؤلاء ! عشائركم أحب إلينا .

فخرجوا راجعين ، حتى إذا كانوا دون مكة ساعة من نهار لقوا ركبا من كنانة فسألوهم عن قريش وعن حاهم ، فقال الركب :

— ذكر محمد آهتهم بخير فتابعه المثلأ ، ثم ارتد عنها فعاد يشتم آهتهم وعادوا له بأنشر فتركاهم على ذلك فأنتم تقوم في الرجوع إلى أرض الحبشة . ثم قالوا : قد بلغنا مدحهم فصر ما فيه قريش ويحدث عهدا من أراد بأهله ثم نرجع .

فدخلوا مكة ولم يدخل أحد منهم إلا بخوار ، إلا ابن مسعود فإنه مكث يسيرا ثم رجع إلى أرض الحبشة ، فكان خروجهم في شهر رجب سنة خمس ، فأقاموا شعبان ورمضان وقدموا في شوال من السنة .

هذا الحديث الذي فيه العرائق العلاء وقع في كتب التفسير وبحوها ولم يدخله البخاري ولا مسلم ولا ذكره في عمه مصنف مشهور . والعربوق طائر طويل العنق وهو الكركي أو يشبهه ، ووجه الشبه بين الأصنام وتلك الطيور أن تلك الطيور تعمر وترتفع في السماء ، فالأصنام شبت بها في علو

القدر وارتفاعه ، وقبل أن أقول رأى في هذا الموضوع سأورد آراء من كذبوا ذلك الحديث أو سلموا به من السالفين .

قال القاضي عياض في كتابه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » :  
— اعلم أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما في توهين أصله ، والثاني على تسليمه .

أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا الحديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ، مع ضعف نقله واضطراب رواته وانقطاع إسناده واختلاف كماته ، فقايل يقول : إنه في الصلاة ، وآخر يقول : قالها في نادى قومه حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول : قالها وقد أخذته سنة . وآخر يقول : بل حدث نفسه فسها . وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه ، وأن السى — ﷺ — لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأئك . وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان أن السى — ﷺ — قرأها ، فلما بلغ النبي ذلك قال : « والله ما هكذا أنزلت » إلى غير ذلك من اختلاف الرواة .

ومن حُكيت عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين لم يسدها أحد منهم ولا دفعها إلى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية . والمرفوع فيها حديث شعبة عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما فيما أحسب . قال أبو بكر البرار . هذا الحديث لا يعلمه يروى عن النبى — ﷺ — بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا . ولم يسده عن شعبة إلا أمية بن خالد وغيره يرسله عن سعيد بن جبير وإما يعرف عن الكلبي عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وبه من الضعف



ما نُبِّه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه .

وأما حديث الكلبي مما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه كما أشار ابن زار إليه ، قال : ولذى منه في الصحيح أن النبي ﷺ — قرأ « والنجم » وهو بمكة ، فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإس .

هذا توهمه من طريق النقل ، والله أعلم بالصواب .

وأما من جهة المعنى : فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته — ﷺ — وبزاهته عن مثل هذه الرذيلة . أما من تنبيه أن يزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو يتصور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس به ، ويعتقد النبي ﷺ — أن من القرآن ما ليس به حتى يُنبّه جبريل عليهما السلام ، وذلك كله ممسوع في حقه — ﷺ — من قبل نفسه عمداً — وذلك كفر — أو سهواً ، وهو معصوم من هذا كله ، وقد تقرر بالبرهان وبالإجماع عصمته عليه السلام من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمداً ولا سهواً ، أو أن يتشبه عليه من يلقيه الملك مما يلقي الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل أو يتقول على الله لا عمداً ولا سهواً وقد قال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ﴾ (١) الآية . وقال : ﴿ إذا لأدقنك ضعف الحياة وضعف للمات ﴾ (٢) الآية .

ووجه ثان وهو استحالة هذه القصة بظننا وعرفنا ، وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ، ممتزج المدح بالدم ، متحاذل التأليف والعظم . ولما كان النبي ﷺ — ولا من

يحصره من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك — وهذا لا يخفى على أدنى متأمل ، فكيف بمن رجع حلمه واتسع في باب البيان معرفة فصيح الكلام علمه ١٢ .

ووجه ثالث ، أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاصدي المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين بمورهم لأو وهلة ، وتخليط العدو على السبي — ﷺ — لأقل فنة ، وتعييرهم المسلمين وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأقل شبهة ، ولم يَحْث أحد في هذه القصة شيئا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ، ولو كان ذلك لو جدت قریش بها على المسلمين الصولة ، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة كما فعلوا في قصة الإسراء وقصة القصية ، ولا فنة أعظم من هذه البلية لو وجدت ، ولا تشعب للمعادى حيث أشد من هذه الحادثة لو أمكت ، فما روى عن معاند فيها كلمة ولا عن مسلم يسبها بت شفة ، فدل على بطلها واجتاث أصلها .

قال القاصي عياض : ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس والجن هذا الحديث على بعض مغفل المحدثين ، ليأبس به على صعاف المسلمين . ووجه رابع ، ذكره الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ (١) الآيتين .

وهاتان الآيتان ترددان الحو الذي روه ، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لو لا أن ثبت لكاد يركن إليهم ، فمضمونه هذا .

(١) الإسراء ٧٣ ، ٧٤ .

ومفهومه أن الله عصمه من أن يفتري وثبته حتى لم يركس إليهم قليلا ، فكيف كثيرا ! وهم يروون في أحاديثهم لوأهية أنه راد على الركوع والافتراء مدح أهتهم ، وأنه قال عليه السلام « افترت على الله وقلت ما لم يقل » . وهذا ضد مفهوم الآية وهي تصعب الحديث لو صح فكيف ولا صحة له ؟ وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال . كل ما في القرآن كاد فهو ما لا يكون . قال الله تعالى . ﴿ يكاد سا برقه يذهب بالأبصار ﴾ <sup>(١)</sup> ولم يذهب .

قال القاصي القشيري : ولقد طالبه قريش وثقيف إذ مر بآلهم أن يقبل بوجهه إليها ووعده الإيما ن به إن فعل مما فعل ، وما كان ليفعل — ﷺ . وأما المأخذ الثاني — وهو منى على تسليم الحديث لو صح ، وقد أعادنا الله من صحته — فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة ذكرها القاصي عياض وصعب بعضها واستحسن بعض ، يذكر منها ما استحسسه وجوره إن شاء الله .

منها ما ذكره القاصي أبو بكر في أجوبته عن هذا الحديث قال . — لعل السى — ﷺ — قال ذلك في أثناء تلاوته على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار ، لقول إبراهيم عليه السلام ﴿ هذا رنى ﴾ <sup>(٢)</sup> على أحد التأويلات يريد أهد رنى ؟! ولقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ <sup>(٣)</sup> بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته ، وهذا ممكن مع بين الفصل وقربة تدل على إيراد وأنه ليس من المتلو .

(١) البور ٤٣

(٢) الأنعام ٧٦ .

(٣) الأنبياء ٦٣ .

قال القاضي عياض : ولا يعترض على هذا عما روى أنه كان في الصلاة ، فقد كان الكلام فيها قبل غير ممنوع . والذي يظهر ويترجح في تأويله عند القاضي أني بكر وعبد غيره من المحققين على تسليمه أن النبي — ﷺ — كان كما أمره ربه بترتيل القرآن تريلاً ، ويفصل الآية تفصيلاً في قراءته كما رواه الثقة عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك انسكبات ودسه فيها ما احتلقه من تلك الكلمات محاكياً لعمدة النبي — ﷺ — بحيث يسمعه من دنا منه من الكفار ، فظفوها من قور النبي — ﷺ — وأشاعوها ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين حفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله تعالى وتحققهم من حال النبي — ﷺ — من دم الأوثان وعيها ما عرف منه ، وقد حكى موسى بن عقبة في معاريفه نحو هذا وقال : إن المسلمين لم يسمعوها وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين وقلوبهم .

قال القاضي عياض ويكون ما روى من حزن النبي — ﷺ — هذه الإشاعة والشبهة وقد قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أميته ﴾ (١) الآية . فمعنى ( تمنى ) تلا . قال الله تعالى : ﴿ لا يعلمون الكتب إلا أماني ﴾ (٢) أى تلاوة ، وقوله : ﴿ فيسح الله ما يلقى الشيطان ﴾ (٣) أى يذهبه ويريل اللبس به ويحكم آياته .

ومما يظهر في تأويله أيضاً أن محمداً روى هذه القصة « والعريفة العلا » . فإن سلمنا القصة قلنا لا يبعد أن هذا كان قرآناً ، والمراد

بالعراقفة العلا ، وأن شفاعتهن لترتحنى : الملائكة على هذه الرواية ، وهذا  
 فسر الكلبي العراقفة بأنها الملائكة ، وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون  
 الأوثان والملائكة بنات الله كما حكى الله عنهم ورد عليهم في هذه السورة  
 بقوله : ﴿ أَلَكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴾ (١) فأنكر الله كل هذا من قولهم .  
 وقيل : إن السى — ﷺ — لما قرأ هذه السورة وبلغ إلى ذكر اللات  
 والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، خاف الكفار أن يأتي بشيء من دمها  
 فسقوا إلى مدحها تنكث الكهنتين ليخطبوا تلاوة النسي — ﷺ —  
 ويشعروا عليه على عادتهم قولهم : ﴿ لا نسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه  
 لنعذبكم تعذبون ﴾ (٢) وسبب هذا الفعل إلى الشيطان لحمله لهم عليه ،  
 وأشاعوا ذلك وأداعوه ، وأن السى — ﷺ — حزن لذلك من كذبهم  
 واقترائهم عليه فسلاه الله تعالى بقوله . ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ (٣)  
 الآية ، وبين لئلا الحق من ذلك من الباطل ، وحفظ القرآن وأحكم آياته  
 ودفع ما يسب به العدو ، كما ضمنه الله تعالى من قوله : ﴿ يا أيها  
 الذكور وإننا له لحافظون ﴾ (٤)

وقال الفخر الرازى . هذه القصة باطنة موضوعها لا يجوز القول بها ،  
 قال الله تعالى : ﴿ وما يطق عن أهوى ﴾ \* إن هو إلا وحي يوحى ﴿ (٥) .  
 وقال بصحتها جمع منهم الشهاب بن حجر وقال :  
 — رد عياض لا فائدة فيه ولا يعول عليه .

هذه جملة آراء السلف السابقين في حديث « العراقيق العلا »

(١) الحج ٥٢ . (٢) فصلت ٢٦ . (٣) الحج ٥٢ .

(٤) الحجر ٤٩ . (٥) النجم ٤٠٣ .

وعدى أنه موضوع قد أولع به المفسرون والمؤرخون المولعون بكل  
عريب ، فهو حديث لا يثبت لنقد . ومن عجب أن يلتقى الشيطان في  
روح رسول الله — ﷺ — بكلمتين في سورة يقول في صدرها علام  
العيوب . ﴿ والجهم إذا هوى ﴾ ما ضل صاحبكم وما غوى \* وما يطق  
عن الهوى \* إن هو إلا رحي يوحى \* علمه شديد القوى ﴿ (١) . أفكان  
عالم العيب ولشهادة لا يعلم أن الشيطان سيجتري أن يطق بشيء من  
الوحي ؟. إن كان سبحانه وتعالى يعلم مما كان يؤكد في صدر السورة أن  
رسوله لا يطق عن الهوى ، وإن كان لا يعلم — وحاشا لله ألا يعلم —  
فذلك نقيصة ينزه عنها رب العزة ، ألصقها بذاته العية كل من قال بصحة  
ذلك البهتان والزور .

ولو استشهدنا بتسلسل أحداث السيرة لا نهات هذه العرية من  
أساسها ، فالشهور أن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة المهجرة الأولى  
قد عادوا إلى مكة قبل حصار الكافرين لبني هاشم وبني المطلب في شعب  
أبي طالب ، وما لا حدال فيه أنهم عادوا بعد المهجرة الثانية إلى الحبشة .  
وسواء أكانت عودتهم أنهم قد بلغهم أن عظماء مكة قد سجدوا مع  
المسلمين لما قرأ الرسول عليه السلام سورة والجهم ، أى أن سورة  
« والجهم إذا هوى » كانت قد نزلت قبل عودة المسلمين من الحبشة ،  
ولكن أحداث التاريخ تكذب ذلك الرعم ، فسورة والجهم قد نزلت بعد  
أن أسرى به — ﷺ — ، وقد أسرى به بعد عودة المسلمين العودة الأولى  
من الحبشة ، وبعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته حديجة رضى الله عنها ،

وبعد خروجه إلى الطائف وما لقي به من عذاب ، فكل قول بأن سورة العجم قد قرئت أيام كان المسلمون الذين هاجروا المحرة الأولى في الحيشة قول خاطيء يكذبه الواقع التاريخي . فكيف يتحدث القرآن عن الإسراء والمعراج وما كان الإسراء قد وقع إلا حديث « العرايق العلاء » حديث موضوع دون مهارة ، فهو مصطبب الروايات متقطع الإسناد ، قد مرح المدح بالدم ، يكذبه الواقع التاريخي وتسلسل أحداث السيرة . ولو كان النبي — ﷺ — قد نطق بالشهادة لأصام قومه لظهر هذا الحدث الخطير في أقوال أعدائه الذين لم يكس لهم من حياتهم إلا مجادلته وإطهار جواب الضعف في دعوته .

وقد قيل فيما قيل من عث احديث أن الكلمتين اللتين ألقى الشيطان بهما في روع الرسول ، وحاشا لله أن يكون للشيطان عليه سلطان — قد سحنتا ، وهذا الرعم يجرنا إلى توصيح الناسح والمسوح في القرآن . والسح لغة إبطل الشيء ورفعته ، والمتكلمون عن السح في القرآن يجعلونه على ثلاثة أضرب (١) .

١ — ما نسخ خطه وحكمه ، ويروون في ذلك عن أنس أنه قال : « كنا نقرأ على عهد رسول الله — ﷺ — سورة تعدها سورة التوبة ، ما أحفظ منها غير آية واحدة » . ولولا أن لاس آدم واديين من ذهب لا يتعى إليها رابعا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب .

كما يروون عن ابن مسعود أنه قال . أقرأني رسول الله — ﷺ — آية

فحفظتها وكتبها في مصحفى ، فلما كان الليل رجعت إلى مصحفى فلم أرجع منه بشيء ، وعدوت على مصحفى فإذا الورقة بيضاء . فأحبرت النسي — صلى الله عليه وسلم — فقال لى ٥٠ يأس مسعود تلك رفعت النارحة ٥ .

وهذا عدى قسم يكاد سرده يدل عليه ويكشف عن سقوطه ، فما أجل الله حكيمًا عظيمًا ، وما كانت الرسالة تجربة بشرية يحور عليها تعديل أو الوقوع فيما سيقص بعد حين . ولقد كان الرسول يحدث المسلمين بحديثه ويقرأ عليهم وحى السماء . ولقد كان عليه السلام يعارضهم ما حملوه عنه على التوالى حرصًا على سلامة الوحي من أن يختلط به غيره . وكم من سامع حنط ما بين ما هو وحى وبين ما هو حديث للرسول ، ولكنه كان بعد حين قليل مردود إلى السلامة حين يلقى بما عده الرسول أو صحابيًا على بصيرة بما هو وحى وما هو حديث . وسرعان ما كانت تستقيم الأمور وسرعان ما كان يبين هذا من ذلك ، حتى إذا ما حان أن يقبض الله إليه رسوله كانت العرصة الأخيرة للقرآن وم تكن إلا هذا ومثله .

٢ — ما مسح خطه وبقي حكمه ، ويروون لهذا خبر عن عمر بن الخطاب يقول : « لولا أكره أن يقول الناس قد راد في القرآن ما ليس فيه لكنست آية الرحم وأثبتها ، فوالله لقد قرأناها على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، لا ترعبوا عن آباءكم فإن ذلك كفر بكم . الشيخ والشيخة إذا رباها راجعوهما ألثة بكالا من الله والله عزيز حكيم » .

وأحسب أن عمر لو صبح هذا عنه وأنه سمعه عن الرسول ما تحف عن أن يكتبها . ثم ألم يسمعها مع عمر غيره فيحصل منه شاهد ، إن كان عمر لا يرى أنه وحده مجرى ، اللهم إن هذا يقصص عليك ذلك التحرى في ( عام الخزل )



الجمع الذي قام به الصحابة ، ويقض عليها تلك المعارضات التي كانت تتم بين الرسول والقارئ ، ويقض عليها التفكير السليم ، وما يحب لمن يعالج ما يتصل بكتاب الله إلا أن يكون ذا تفكير سليم .

٣ — ما سح حكمه وبقي حظه . وهذا شيء يقتضيه التشريع والانتقال والتي انتهت بقوله يخاطب به ﴿ قول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ <sup>(١)</sup> وكانت قلها ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ومثل قوله تعالى : ﴿ إنما حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ فجاء قوله عليه الصلاة والسلام « أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والحراد ، والكبد والطحال » . يستثنى شيئاً من الميتة المذكورة في القرآن .

وقد عد الباطرون في هدايحوا من ١٤٤ ، منها : ثلاثون آية في البقرة : عشر آيات في آل عمران ، أربع وعشرون آية في النساء ، تسع آيات في المائدة ، خمس عشر آية في الأنعام ، آيتان في الأعراف ، ست آيات في الأنفال ، إحدى عشرة آية في التوبة ، ثمانى آيات في يونس ، أربع آيات في هود ، آيتان في الرعد ، آية في إبراهيم ، خمس آيات في الحجر ، أربع آيات في النحل ثلاث آيات في سى إسرائيل ، آية في الكهف ، خمس آيات في مريم ، ثلاث آيات في طه ، ثلاث آيات في الأنبياء ، ثلاث آيات في الحج ، آيتان في المؤمن ، سبع آيات في البور ، آيتان في الفرقان ، آية واحدة في النمل ، آية واحدة في القصص ، آية واحدة في العنكبوت ، آية واحدة في

الروم ، آية واحدة في السجدة ، آيتان في الأحزاب ، آية واحدة في سبأ ، آية واحدة في الملائكة ، أربع آيات في الصافات ، آيتان في ص ، ثلاث آيات في الزمر ، آيتان في حمم « المؤمن » ، آية واحدة في حمم « السجدة » ، سبع آيات في انشورى . آيتان في الزخرف ، آية واحدة في الدخان ، آيتان في الحاثية ، آيتان في الأحقاف ، آيتان في محمد ، آيتان في ق ، آيتان في الذاريات ، آيتان في الطور ، آيتان في النجم ، آية واحدة في القمر ، آية واحدة في المجادلة ، ثلاث آيات في الممتحنة ، آيتان في الفلم ، آيتان في المعارج ، ست آيات في المزل ، آيتان في الإنسان ، آية واحدة في عبس ، آية واحدة في التكويد ، آية واحدة في الطارق ، آية واحدة في الغاشية ، آية واحدة في التير ، آية واحدة في العصر ، آية واحدة في الكاهرون .

فهذا بيان الآيات التي فيها سح يستطيع أن يرجع إلى تفصيلها في كتب السخ مثل كتاب « السح والمسخ » لأبى القاسم هبة الله بن سلامة المتوفى سنة ٤١٠ هجرية ، ثم في كتب التفسير .

وسوف نرى أن كل ما يتصل بها هو ترتب أحكام اقتضاها التشريع السماوى ، الذى أملاه سرول القرآن محزعا وفق أحوال المسلمين وتدرجهم في الحياة .

هذا هو ما جاء في تاريخ القرآن للأستاذ إبراهيم الإييارى ، وإن أى عاقل يفهم مبادئ البلاغة يستطيع أن يجزم بأن ما رعم من أنه كان في القرآن ما نسخ حكمه وحطه . هو إلا من وضع من أرادوا الكيد لقرآن الله المحيد ، فما من كلمة أنزلت قد رفعت ، وإن ما استشهد به المؤلعون بتدليس الروايات ونسبتها إلى كبار الصحابة ليحمل في طياته دليل بطلان الدعوة .

أبصدق أى لبيب أو غير لبيب أن مثل هذا لقول المتهاافت الذى وضعه الواضعون : « ولولا أن لابس آدم واديس من ذهب وقصة لا تنفى إليها رابعا . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب » يمكن أن يكون من بيع القرآن العظيم ؟ إن هذا الزعم لا يزيد على أنه استخفاف بالعقول .

وما زعم من أن فى القرآن ما نسخ خطه وبفى حكمه ، فهو قول لا يستند إلى دليل ، بل إنه افتراء على الله ، فإذا كان مبدأ الرفع من القرآن معترفا به فلماذا بقيت الآيات التى قيل إنه نسخ حكمها .

إن بقاء الآيات التى قيل إن أحكامها سحخت فى القرآن لخير برهان على أن ما ينزله الله لا يرفع ، فما كان القرآن من عمل بشر يبدل ويعبر فيه ويرفع آيات وينزل آيات ، بل هو من لدن عليم حكيم حبير ، فليس فى القرآن ما نسخ خطه وحكمه وليس منه ما نسخ خطه وبفى حكمه .

بقى ما زعم أنه بقى خطه ونسخ وحكمه ، وفى رأى أن ليس فى القرآن ناسخ ولا منسوخ ، فإلى أنزه الله سبحانه وتعالى عن أن ينزل حكما ثم يسححه ، وإدما رجعا إلى الآيات الـ ١٤٤ التى زعم أنها سحخت لوجدنا أن أحكامها لا تزال قائمة ، فمن يستطيع أن يقول إن آية ﴿ فَأَيْنَا تُولَوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ (١) قد سحختها آية ﴿ قَوْلِ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (٢) إن آية ﴿ فَأَيْنَا تُولَوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ تقرر حقيقة ستظل حقيقة لا ريب فيها ما دامت الأرض والسموات . وهل يمكن أن يقال إن آية ﴿ لَيْسَ الرُّأْسُ تُولَوْا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الرُّءُوسَ مِنْ

آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والرسول ﴿١﴾ قد سححتها آية .  
﴿ هول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ ؟

إلى أعتقد في يقين أن ليس في القرآن ناسخ ولا مسوح في أى صورة من  
الصور التي رعم المتكلمون عن النسخ في القرآن أنها على ثلاثة أصرب ،  
فالقرآن قد برل من عد أحكم الحاكمين ، ولو أن الكافرين قد علموا  
بوقوع هذا السح لو جدوا حجه تؤيد رعمهم أن القرآن إن هو إلا من  
إملاء رسول الله ﷺ — .

قالوا فيما قيل إن آية : ﴿ ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ (٢) قد  
سححت ، فهل نزلت آية صرحت للمسلمين بأن يقربوا الصلاة وهم  
سكارى ؟ إنا لو استعرضنا جميع الآيات التي قيل إنها نسحت نجد أن  
حكمها لا يرال قائما ، وأعتقد أن بدعة الناسخ والمسوح قد شاعت بعد  
صدر الإسلام عندما شغل الناس بإحصاء عدد آيات القرآن وترتيب  
الآيات وترتيب السور والبحث عما هو مكى منها وما هو مدلى . وقد  
شجع بعض العلماء على الخوص في الناسخ والمسوح عدم فهمهم حقيقة  
تفسير : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما يرل قالوا إنما أنت مفتر بل  
أكثرهم لا يعلمون \* قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الدين  
آموا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ (٣) . فقد حسبوا أن التبديل إنما يقع  
على الآية القرآنية وهى طائفة من القرآن مقطعة عما قبلها وما بعدها ، بما  
المقصود بالآية ها المعجزة التي يقوم بها الأنبياء ، فالمراد أن معجزة عيسى

(١) البقرة ١٧٧ .

(٢) النساء ٤٣ .

(٣) النحل ١٠١ ، ١٠٢ .

كانت غير معجزة موسى ، فمعجزة عيسى عليه السلام كانت ، حياة الموتي ، بينما كانت معجزة موسى عليه السلام لما واحه فرعون بالسحرة أن ينقي عصاه فإذا هي حية تسعى ولما بعث الله محمداً — ﷺ — إن قوم اشتهروا بالبلادة والبيان بدل الله معجزة وأمر على رسوله عليه السلام القرآن ، ويؤيد هذا ما جاء في « المنتخب » في تفسير : « وإذا بدلنا آية .. » : ( وإذا جعلنا معجزة لك بدلاً من معجزة مساوية لسي سابق فحشاك بالقرآن معجزة ، رموك بالافتراء والكذب على الله ، والله وحده هو العليم علماً ليس فوقه علم مما يرون على رسله من المعجزات ، ولكن أكثرهم ليسوا من أهل النعم والمعرفة الصادقة ) .

ولقد مات رسول الله ( ﷺ ) والقرآن كله مكتوب على العُصْب ( جريد النخل ) واللحاف ( صمغ الحماة ) والرقاع والأديم والأكتاف ( عظام الأكتاف ) والأفتاب ( ما يوضع على ظهور الإبل ، كما كان محموطاً في صدور الرجال يحفظه حفظه من المسلمين )

وكان رسول الله — ﷺ — يقرأ القرآن على جبريل عليه السلام مرة في شهر رمضان ، فلما جاءت السنة التي مات فيها قرأه عليه مرتين في رمضان ، فراح رسول الله — ﷺ — يعرض ما أنزله عليه ربه بسوره وآياته على ما حفظه عنه حفظة المسلمين ، فكان في صدور الحفظة صورة مما كان في صدر الرسول .

وبعد موت الرسول — ﷺ — ارتدت بعض الفئات عن الإسلام فأعس أبو بكر الصديق الحرب عليها ، وقد اشتد اقتل يوم اليمامة نقرأ القرآن فخف عمر بن الخطاب إلى أبي بكر يعرض عليه جمع القرآن قبل أن يذهب من الصدور . وراح أبو بكر يهكر فيما عرّضه عليه عمر فاقنع

بضرورة جمع القرآن ، فأرسل إلى ريد بن ثابت وكان من كتاب الوحي في المدينة ، وحضر ريد مجلس أبي بكر وعمر وسمع منهما ما هما فيه فإذا هو معهما في الرأي ، وإذا أبو بكر حين يحد من ريد حسن الاستحابة يتحده إليه ويقول :

— إنك شاب عاقل لا تهملك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ، فتتبع القرآن أحسنه .

فراح ريد بن ثابت يتتبع القرآن يجمعه وما كان ذلك أمر عسيراً ، فقد كان هناك حفصة من المسلمين . ولو أردنا اليوم أن نجمع القرآن مرة أخرى دون أن نرجع إلى المصحف فما أيسر ذلك لو حثنا بعشرة من القراء الحافظين .

وفي أيام عثمان رضى الله عنه عاد حذيفة بن ليثان من حرب أرمينية وأدريجان ودخل على أمير المؤمنين فرعا من اختلاف المسلمين في قراءة القرآن ، وراح يقول لعثمان :

— أدرك الأمة قبل أن يختلفوا .

أرسل عثمان يطلب المصحف من عند حفصة بنت عمر روح النبي عليه السلام ، وأرسلت حفصة بالمصحف إلى عثمان ، وجمع عثمان إليه بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن أعاص وعبد الله بن الحارث بن هشام وكلهم من كتاب الوحي ، وأمرهم بنسخ هذه المصحف بعد أن وقف يحط بالناس يمشدهم أن يأتوه بما معهم من كتاب الله ، وكان عندهم بالناس عليه السلام قريبا ، إذ لم يكن مصفى على وفاته أكثر من ثلاث عشرة سنة ، فراح الرجال يأتونه بالورقة والأديم فيه القرآن ولم يكتب عثمان بذلك بل دعاهم رجلا رجلا يسألهم عما إذا كان

رسول الله — ﷺ — قد أملاه عليه ، فيقول الرجل نعم ، حتى إذا فرغ من ذلك قال :

— من أكتب الناس ؟

فقال الناس :

— كاتب رسول الله يريد بن ثابت .

قال عثمان :

— فأى الناس أعرب ؟

— سعيد بن العاص .

وكان سعيد أشبههم لمحة برسول الله عليه السلام ، قال عثمان :

— فليمل سعيد ويكتب زيد .

وتم جمع مصحف عثمان ، ولما قورن بالمصحف الذى جمعه أبو بكر رضى الله عنه وشارك فيه عمر وجد أنه هو الذى جمعه عثمان ثانية واستحلف الناس عليه . وأرسل عثمان ستا من هذه المصاحف إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وخمس مصححا بالمدينة ، وأمر عثمان بحرق ما كان مخالفا لمصحفه .

ويقول ر . ف . بودلى فى كتاب « الرسول : حياة محمد » عن القرآن : « إنه لمن العريب أن تلاحظ دون أسباب ثابتة وصيدة أن هناك سوء فهم عام لمحمد ﷺ أكثر من أى مؤسس آخر من مؤسسى الديانات العظيمة . إننا لا نجد ما دونه معاصرو مومى أو كوفوشيويس أو بودا ولا يعرف إلا بعض شذرات عن حياة المسيح بعد رسالته ولا يعرف شيئا عن الثلاثين سنة التى مهدت الطريق للسوات الثلاث التى بلغ فيها أوجهه ، ولكننا نجد أن قصة محمد — عليه السلام — واضحة كل

الوصوح . ففى سيرة محمد محمد بن التارخ بدل الطلال والعموص ، ويعرف الشىء الكثير عنه ، كما يعرف ذلك عن رجال عاشوا فى زمان أكثر قربا من زماننا ، وما كان تاريخه الخارجى وشبابه وأقاربه وعاداته حرافة من الحرافات ولا شائعة من الشائعات ، وما كان تاريخه الداخلى وقد وصح بعد رسالته برواية مبهمة لمبشر عامض أو مشوش ، ففى أيدينا الآن كتاب معاصر فريد فى أصالته وفى سلامه لم يشك فى صحته كما أرسل أى شك . وهذا الكتاب هو القرآن ، وهو اليوم كما كان يوم كتب لأول مرة تحت إشراف محمد . ولو أن الأفكار قد دوت فى الرقاع وسعف النحل والعظام فى لحظات غريبة ، فالسور والآيات الأصلية قد حفظت ، وما كان هذا هو الحال فى العهد القديم والعهد الجديد ( التوراة والإنجيل ) بعد قرون أو حتى عشرات السنين بعد موت الرسول ، فإن أبا بكر خليفة محمد ﷺ — قد جمع الرقاع التى دون فيها القرآن وسسخها حرفيا ، وحفظت هذه النسخة عند حفصة إحدى زوجات محمد ( عليه السلام ) .

وفى عام ٦٤٦ بعد الميلاد ، أى بعد موت محمد — صلوات الله عليه وسلامه — بأربع عشرة سنة ، أحرق عثمان خليفة محمد الثالث وصديق محمد ومعاصره جميع نسخ القرآن التى كتبها الأنباغ المتحمسون من الذاكرة ولم يبق إلا مصحف حفصة ، وقد نسخ عنه جميع المصاحف الأخرى ، ومنذ ذلك الوقت لم يصف إلى القرآن شىء ولم يهدف منه شىء .

وهذا رأى لكاتب أمريكى آخر فى القرآن وإعجازه<sup>(١)</sup> ، قال : « إن

(١) المستشرقون والإسلام للأستاذ المهندس ركريا هاشم ركريا



كل من يجب أن يأتي برهان عن طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته ، وهذا البرهان يسمى بالمعجزة . وهو يختلف عما يأتي به الأولياء ، ويسمى كرامة ، والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة ، فإن حاله الأدنى العائق وقوته النورية لا يزالان إلى اليوم لعرا ، وهما يصعدان من يلو . ولو كان أقل الناس تقوى في حالة خاصة من الحماسة

لقد تحدى محمد الإنس والجن أن يأتوا بمثله وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل . ولم يكن الأمر في القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية فإن محمداً كان يحتقر الشعر ودفع عن نفسه أن يكون واحداً من الشعراء .. ولكن الأمر يتعلق بشيء آخر غير هذه القيمة وهو الفرق بين وحى الإله وإلهام الشياطين .

وقد عكف كبار الكتاب العرب على قراءة القرآن وقد تأثر به كثير منهم . فقد قرأ حوته القرآن في ترجمة أدبية أجراها يومئذ أحد أباء بلده ( فرانكفورت ) المستشرق العلامة مرحولين ( ١٧٧٢ م ) . حتى إذا ما فرغ منها عكف بعدها على تلاوة القرآن في ترجمة لانيية سابقة لها طبعها في مدينة ( بادوا ) في الشمال الشرق من إيطاليا لنقص الحروف في ( مارانشي ) Marracci عام ١٦٩٨ م ، وأعيد طبعها عام ١٧٢١ بمدينة لينز الألمانية .

وما أن أتم حوته تلاوة القرآن في الترجمتين حتى اقتبس بعض الآيات القرآنية نقلاً عن الترجمة الألمانية . ونحن نعرف اليوم ما اقتبس الشاعر الألماني من الآيات بعصل طبعها بعد ذلك في مجلد للمرة الأولى معرفة شول Sholl عام ١٨٤٦ م وهذه الآيات قوله تعالى .

﴿ يلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف

عليهم ولا هم يحزنون ﴿١﴾ .

﴿ والله المشرق والمغرب فأبما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع  
عليم ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي  
تحرك في البحر مما يصنع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به  
الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب  
المسحور بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ ﴿٣﴾

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء  
صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ ﴿٤﴾ .

﴿ ليس الرأ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن الر من آمن  
بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى  
القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام  
الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء  
والأصراء وحين الناس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ ﴿٥﴾  
وكلها من سورة البقرة . ثم من سورة آل عمران قوله تعالى ﴿ وما محمد  
إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم  
ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ ﴿٦﴾

﴿ وما كان الله ليطلعكم على العيب ولكن الله يخفى من رسله من يشاء

(١) البقرة ١١٢ . (٢) البقرة ١١٥ . (٣) البقرة ١٦٤ .

(٤) البقرة ١٧١ . (٥) البقرة ١٧٧ . (٦) آل عمران ١٤٤ .

فآمنوا بالله ورسوله وإن تؤمنوا وتتفوا عليكم أحر عظيم ﴿١﴾ .  
 ومن سورة النساء : ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء  
 ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾ (٢) .  
 ومن سورة المائدة : ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكرهنا عنهم  
 سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ﴾ \* ولو أنهم أقاموا التوراة والإصحاح وما  
 أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة  
 وكثير منهم ساء ما يعلمون ﴿ (٣) .  
 ﴿ يأتيها الدين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا  
 عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حلیم ﴾ \* قد سألتها قوم  
 من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴿ (٤) .  
 ومن سورة الأنعام : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات  
 والأرض وليكون من الموقنين ﴾ (٥) .  
 ومن سورة يونس : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها  
 سلام ﴾ (٦) .  
 . ومن سورة يوسف : ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا ما  
 ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ (٧) .  
 ومن سورة طه : ﴿ قال رب اشرح لي صدري ﴾ (٨) .  
 ومن سورة العنكبوت : ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق ، وإن

(١) آل عمران ١٧٩ .	(٢) النساء ١٤٣ .	(٣) المائدة ٦٥ ، ٦٦ .
(٤) المائدة ١٠١ ، ١٠٢ .	(٥) الأنعام ٧٥ .	(٦) يونس ١٠ .
(٧) يوسف ٨ .	(٨) طه ٢٥ .	

في ذلك لاية للمؤمنين ﴿١﴾ . ﴿٢﴾ وما كنت تتبو من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك إدا لا رتاب المبطلون ﴿٣﴾ .

﴿٤﴾ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنا أنا نذير مبين ﴿٥﴾

وقد ظل جوته طويلا يمعن في دراسة القرآن إمعان الباحثين وهو يقول : إيا القارئ الأحسى ببله لأول قراءته ، ولكيه يعود فيجذب إليه ، وفي النهاية يروعه ويلزمه الإكبار والتعظيم . ويستشهد حوته في كلامه عن القرآن الكريم وما جاء به من تعاليم الدين بهذه الآيات :

﴿٦﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين \* الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما ررقاهم يعقون \* والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبما آخرة هم يوقون \* أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المصحون \* إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون \* حتم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴿٧﴾

ويقول جوته إن القرآن يردد قواعد هذه التعاليم ويكرر الشئير والنذير سورة بعد سورة . وهو لا يرى في هذا التردد والتكرار ما يراه البقاد الغربيون لأن محمدا لم يرسل برسالة شاعر للتفنن في القول والتسويق في صروب الكلام وعرض الصور المزوقة من الخيلة والأوهام لاستحداث للدة وإدخال الطرب . بل هو بص انقرآن بعيد عن هذا الوصف ، وإما

(٢) العنكبوت ٤٨ .

البقرة ٢ — ٧ .

(١) العنكبوت ٤٤ .

(٣) العنكبوت ٥٠ .

محمد سبي مرسل لعرض مقدر مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق ، وهذا الغرض هو إعلال الشريعة وجمع الأئم حولها لينضووا تحت لوائها ، فالكتاب المرسل على محمد إنما بعث به إلى الناس ليقتضيه القوت والإيمان ، ومن ثمة نراه إذا ما عرّض للقصص الديني لم يعرضه معرض التاريخ والأخبار بل يقتصر منه على مكان الحكمة ومضرب الأمثال ومواضع الاعتبار .

ويظهر في شعر جوته الأخير الذي أسماه « الديوان الشرق للمؤلف العربي » تأثره بالقرآن في روحه وعباراته .. فالقارئ المسلم لا يسعه إلا أن يذكر من الآيات القرآنة أكثر من واحدة حين يقرأ المقطوعة التالية لحوته : لله المشرق والله المغرب وفي راحته الشمال والجنوب جميعا ، هو الحق وما يشاء بعاده فهو الحق سبحانه له الأسماء الحسنى وتبارك اسم الحق وتعالى علوا كبيرا ، آمين . يباذعي وسواس العي وأت المقيد من شر الوسواس الخناس ، فالحلم اهتدى في الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم ، ومهما زيت الزعات والشهوات فالتمس لا تذهب شعاعا ولا تضع صياغا ولا تلبث بما أودع فيها من الحفاط والإباء تطلق عارحة إلى أوج العلا .

« وللناس في ترديد نفاسهم يتان من الشهيق والرفير . هذا يفعم الصدر وهذا يهرج عنه كذلك الحياة عجيبة التركيب ، فاشكر ربك إذا بليت ، واشكر ربك إذا عوفيت » .

ويعمد جوته أحيانا إلى التضمين الصريح ومن ذلك تصميمه لآية الكرمة : « إن الله لا يستحي أن يصر مثلا ما يعوضة فما فوقها » فيقول في مقطوعة له بعنوان التشبيه : « م لا أصطنع من التشاييه ما أشاء ، والله

لا يستحي أن يضرب مثلا للحياة بعبوضة ٢ « لم لا أصطع من التشابه ما أشاء ، والله يجلو في حمال عيسى الحبيبة لحة من حماله رائعة عجينة » ويقول جوته في بعض أشعار الحكمة من ديوانه : « من حماقة الإنسان في ديباه .. أن يتعصب كل منا لما يراه . وإذا الإسلام كان معناه التسليم لله فإننا أجمعين نحيا ونموت مسلمين » .

\*\*\*

هاجم كثير من المستشرقين والمهتمين بالدين الإسلامي من كتاب العريين نبي الإسلام والقرآن ، فمنهم من زعم أن محمدا عليه السلام قد ادعى النبوة وأنه قد وضع القرآن مستمدا أسس دينه من التوراة والإنجيل ، وقد سمع ي فيهما أثناء رحلاته إلى الشام ، ولم يأت هؤلاء النقاد بجديد فمعاصرو السبي صلوات الله وسلامه عليه من الكافرين كانوا يقولون افتراه ، وأن القرآن يتلى عليه ، وأن بعض النصارى يعلمونه ما يقول ، وقد رد القرآن الكريم على هذه الافتراءات .

إن محمدا عليه السلام تحمل أفدح ألوان الاصطهاد وصبر صبر أولى العزم من الرسل ، ولو كان مدعيا للنبوة في سبيل مغنم أرضى لقبول ما عرض عليه من جاه وسلطان وأموال ، أو لنصب من نفسه ملكا على جزيرة العرب بعد أن دانت له المدن والقائل بالولاء ، ولما عاش عيشة الكفاف التي اختارها لنفسه .

وقد سبق في التذييلات السابقة أن دفعت افتراء الزعم بأن محمدا عليه السلام قد أخذ من التوراة والإنجيل ما جاء به من تشريعات ، وقلت إن الديانات كلها قد عرفت منذ بدء الخليقة بالإسلام ، وأنه كلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم ودخلت الأساطير في الديانات بعث الله الرسل

ليعيدوا لإسلام نفيا كما كان . وإن التشابه بين ما في القرآن وما في التوراة وما في الإنجيل فإيما مصدره أن التبع الروحي الذي استمدت منه كل الديانات السماوية واحد . ولو عثر على صحف إبراهيم وإدريس فمن تفرق في قليل ولا كثير عن القرآن ، والتوراة قبل أن يعاد كتابتها في أرض السبي ، وإنجيل السيد المسيح الذي لم يصل إليها ، فالإنجيل الأربعة التي اعتمدت في مجمع بيقية إن هي روايات يفترض أن بعض الحواريين قد كتبوها ولم يقل أحد أنها مرلة من عند الله .

القرآن معجزة الإسلام ، وقد تحدى الله سبحانه وتعالى الإنس والجن على أن يأتيوا بآية من مثله فمحجزوا على مر العصور . إن ما فيه من علوم يفوق كل ما كانت تعرف البشرية في ذلك الوقت ، مما يالك بعلوم محمد ابن عبد الله ، ولا تزال الكشوف الحديثة تلقي أصواء على تفسير بعض ما فيه من آيات اليوم والعد ، وقد صدق الإمام على كرم الله وجهه ما قال : « القرآن حمال معان » .

إذا كانت التوراة قبل أن يعتورها التبديل من عند الله ، وإذا كان الإنجيل قد نزل على عيسى عليه السلام من السماء ، فمادام لا يوحى الله سبحانه وتعالى إلى عبده محمد بن عبد الله عليه السلام ؟ الحقيقة لا يمكن تخزئتها ، وإيما وحي أو لا وحي ، فإن الله يكلم رسله وحيا أو من وراء حجاب أو يبعث رسولا ، فقد أوحى الله إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه قرآنه ، وقد قال جل شأنه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> فكلما مر يوم والقرآن يقرأ في الأرض كان ذلك تأكيدا على صدق محمد عليه

السلام ، وأنه لا يطلق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .  
وقد خالف الإسلام اليهودية والنصرانية في كثير من الأصول والعقائد  
والعبادات ، وأقول اليهودية والنصرانية ولا أقول إسلام موسى وإسلام  
عيسى ، فاليهودية والنصرانية إنما تطلقان على ما طرأ على إسلام موسى  
وعيسى من تبديل وتحوير . ومخالفة الإسلام لليهودية والنصرانية إنما هي  
إعادة تشريعات الديانتين السابقتين إلى الحق الذى كانتا عليه قبل أن تخضعا  
لأهواء حكماء صهيون والمجالس المسكونية والمؤتمرات الدينية التى كانت  
تسحر الدين لخدمة الأباطرة والحكام .

زعم اليهود أن عزير ابن الله ، وقال الصارى المسح ابن الله أو الله أو  
ثالث ثلاثة ، يضايعون قول الذين من قبلهم . وما من دين سماوى إلا وقد  
جاء ليؤكد وحدانية الله ، فنوح كان يدعو إلى عبادة الله وحده ، وإدريس  
من قبله وإبراهيم من بعده وموسى وعيسى والحواريون لم يعبدوا إلا الله  
وحده . فجاء الإسلام ليعيد هذه الحقيقة الأثرية ويمحو الشرك من  
الأديان .

وراح اليهود يعبدون أنفسهم غرورا ويزعمون أنهم شعب الله المختار  
وأنهم الناس ومن عداهم أمم ، كما فعل من قبلهم اليونان والرومان والفرس  
ومن بعدهم العرب فى الجاهلية ثم الإنجليز والألمان وكل الدول التى ظنت  
أنها عظمى فى العصر الحديث . وجاء الإسلام ليعيد إلى البشرية كرامتها  
وليؤكد أن الناس إخوة وأن كلكم لآدم وآدم من تراب ، وأن لا فضل  
لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وراح اليهود عباد المال يفترون على الله ويحلمون الربا ، وما من دين  
سماوى قد أباح الربا ، وقد جاء الإسلام ليقول للناس إن الله يحق الربا  
( عام الحزن )



ويرى الصدقات .

وقد عبث الفريسيون والصدوقيون ومن قبلهم من المشطمين في الدين اليهودي في العقيدة والتشريع ، فجاء الإسلام ليصحح العبث في الميراث وليعيد للمرأة حقوقها وإنسانيتها وكرامتها التي أهدرت على أيدي تجار الدين ، الذين قالوا إنها نجس وحرموها من الميراث إذا كان لها أخ ، فإذا لم يكن لها أخ ، فعليها أن تتزوج رجلا من عشيرتها ليكون لها حق في الميراث ، أما إذا مات عنها زوجها فلا حق لها في ماله ، وكانت إذا ما جاءها الحيض تطرد من الدار طرد الكلاب .

جاء الإسلام معترفا بكل الأديان السماوية التي سبقتها ، مطهرا لها من كل ما لحق بها من شوائب وما دخل عليها من أساطير الأولين ، معترفا بالوحي الذي ينزل على الأنبياء جميعا ، لا فرق بين نبي من بني إسرائيل أو نبي من الأمم ، فلم يتناقض مع نفسه ولم يتحزب لبني دون بني كما فعل معتنقو الأديان التي سبقتها : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْفَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نَفْرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

كان كتاب أوروبا في العصور الوسطى يعتقدون أن الإسلام دين وثني ، فكانوا يصورون محمدا عليه السلام عابدا أو ثانا ، ويسجون حول شخصيته الكريمة مزاعم وأوهاما تحط من شأنه ، ولكن قام بعض المستشرقين في القرن العشرين بعدة محاولات لتقديم محمد عليه السلام في صورة مقبولة ولا أقول صحيحة ف فيما يكتبون بعض الثغرات إما لأنهم

لا يؤمنون بالوحي إصلافاً ، وإما عن سوء قصد مبررين منعناهم بأنهم يتبعون الأسلوب العسكى الذى لا يؤمن إلا بالتحليل وأنبوبة الاختبار !

وقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية Encyclopaedia Britanica الطبعة الحادية عشرة : كان « محمد » أشهر الشخصيات الدينية العظيمة وأكثرها نجاحاً وتوفيقاً . ظهر النبى فى وقت كان العرب فيه قد هبوا إلى الخصيصة ، مما كانت لهم تعاليم دينية محترمة ، ولا مبادئ مدنية أو سياسية أو اجتماعية ، ولم يكن لهم ما يفخرون به من الفس أو العلوم ، وما كانوا على اتصال بالعالم الخارجى وكانوا بممكنين لا رابط بينهم . كل قبيلة وحدة مستقلة ، وكل منها فى قتال مع الأخرى ، وحاولت اليهودية أن تهديم فما استطاعت ، وباعت محاولات المسيحية بالحية كما خابت جميع المحاولات السابقة للإصلاح ، وبكى ظهر النبى « محمد » الذى أرسل هدى للعالمين فاستطاع فى سوات معدودات أن يقتنع جميع العادات الفاسدة من جزيرة العرب ، وأن يرفعها من الوثنية المخطمة إلى التوحيد ، وحول أبناء العرب الذين كانوا أنصاف برابرة إلى طريق الهدى والرفق فأصبحوا دعاة هدى ورشاد بعد ما كانوا دعاة وثنية وفساد ، وانتشروا فى الأرض يعملون على رفع كلمة الله ، وعبدوا الله حق العبادة حتى فاقوا النساك والزاهدين . ولكنهم كانوا يأخذون من الدنيا ، فإذا ما أدن للصلاة تركوا التجارة والبيع وتوجهوا إلى الله رب العالمين ، وكانوا يقصون القسم الأكبر من الليل فى عبادة وتسبيح . وكانوا خاشعين لله حتى فاقوا النساك المقطعين فى الصوامع للتعب ، فسموا بفعل الإسلام إلى ذروة السمو الخلقى . وكانت أعمالهم فى دنياهم مصداقاً لتقواهم ، فاحتلوا مكاناً مرموقاً بين غرة العالم العظام . لقد ذابت الإمبراطوريات العظمى تحت حرارة إيمانهم كما ينوب الحديد تحت حرارة الشمس اللافتحة . ولم يكتفوا بفرو الأقطار

الشماسة بل أقاموا أركان دولة عظيمة دامت أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، قوية عزيزة الجانب بغض النظر عن الأجيال التي تصعقت أخيراً . لقد وصل المسلمون إلى ذروة السمو الروحي والرحاء الاقتصادي وثقفوا بعلوم الإسلام التي فاص حورها على العالم أجمع في ذلك الوقت ، والتي تغفل ضوؤها ليدد دباحير الجهل المتفشى في كل مكان ، وإنه لعجيب حقاً أن يتم هذا في عشرين عاماً فقط . إذن لقد كانت تعاليم النبي منهلة من الميسور الأخذ بها وباجعة قاصية على جميع العلل الاجتماعية والأمراض الخلقية . وليس الطبيب البارع من يدعى أنه الطبيب الأول ، بل الطبيب البارع من يشفى أكبر عدد من الحالات المستعصية ، كذلك المصلح الناجح ليس من يدعى أنه المصلح الأول ، بل من يقوم بإصلاح العالم فيهدية الصراط المستقيم .

ويرر هنا تساؤل : لماذا صعقت الدول الإسلامية أخيراً ؟ السبب أن الدول الإسلامية وقعت فريسة للاستعمار الأوروبي المسيحي في القرن التاسع عشر ، وكانت الدول المسيحية قد أعلنت الثورة على الدين ، ولما كان الضعفاء يحاولون دائماً تقليد الأقوياء دون تفكير ، فقد سرت موجة من الإلحاد في العالم الإسلامي ونخرت فيه ، على الرغم من أن ثورة المفكرين الأوروبيين على الكنيسة كان لها مبرراتها ولم يكن هناك أى مبرر للثورة على الإسلام ، ولكنه التقليد .

لما اعتنق بولص المسيحية راح يقيم أركانه على مبادئ لم يأت به السيد المسيح ، قال إن السيد المسيح هو الله وهو ابن الله ، فنشأت نظرية لاهوت السيد المسيح وناسوته ؛ وقال إن السيد المسيح قد جاء ليظهر البشرية من خطيئة آدم التي ورثها أبائوه على مر السنين ، وأن السيد المسيح إنما قبل أن

يصلب تطهيرا للبشر من تلك الخطيئة . وقد قبضت الكنيسة على رفاق العباد لا يفكرون إلا بوحى منها ، وأن يسخر العلم لخدمتها ، وكل من قال برأى يخالف رأيها يقتل أو يحرق أو يطرد من رحمة الله .

رأى نيتشة أن الله قد تجسد ومشى في الأسواق وانتصر عليه أعداؤه وتمكنوا من صلبه ، فلم يستطع عقله أن يتصور جسدا يبقى دون أن يفسى ، فقال إن الله قد مات . وله عذره في ذلك التصور ففسى على الأرض لا بد أن يموت . ووجد أن فكرة الخطيئة الموروثة فكرة تتناهى مع العدل الإلهي ، وعجب كيف أن الله يسقط صلال الخطيئة على براءة الأرض ، فكفر بذلك الإله الظالم وآمن بالحس الأرضي وقال أن لا بد للمؤمنين بالحس الأرضي من أن يهوا عما وُهم على تلك الفكرة ويهتم : « طوبى لأنقياء القلب لأنهم لا يعاينون الله » ، ويعنى بذلك أن المعرفة الحقة إنما هي تلك المعرفة الفرحة المنتشية التي تنبعث من صميم الإحساس الأرضي .

ولو أمعنا الفكر لوجدنا أن نيتشة قد ثار على الله الذي تصوره فكر بولص الرسول ، على الله الذي تجسد وأكل الطعام ومشى في الأسواق . ولو عرف نيتشة الله الرحيم الغفور الودود الكريم الذي لا يزر واررة وزر أخرى ، ماثار نيتشة ولما جرؤ أن يقول إن الله قد مات ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

وقد عبر ماركس عن نزعة الإلحاد المتطرفة حينما كتب : « إن أى موجود كائنا من كان لا يمكن أن يكون مستقلا في عيني نفسه إلا إذا كان مستكفيا بذاته ، وهو لا يمكن أن يكفى نفسه بنفسه إلا إذا كان لا يدين بوجوده لأحد سواه . أما الإنسان الذي يحيا بمجدد من إنسان آخر يكون له الفضل عليه فإنه لا بد من أن يشعر في نفسه بأنه مخلوق مستعبد

حاصع مفتقر ، وأنا أشعر بأننى أحيأ تماما على حساب موجود آخر أو بفضل نعمة ذلك الموجود الآخر ، ليس فقط حيأا أكون مدبنا له بقاءى والحفاظة على حياىى ، وإنما أيضا حيأا يكون هو الذى وهبنى الحياة باعتبارة مصدر كل الحياة ، ولا بد من مصدر حياىى من أن يكون بالضرورة خارجا عنى ، حينما لا تكون حياىى من حلقى أنا . وهذا هو السبب فى أنه قد يكون من العسير بمكان أن نطرد فكرة « الخلق » من أذهان العامة .. وأما نظر الرجل الاشتراكى — على العكس من ذلك — فإن تاريخ الكون بأسره ليس شيئا آخر سوى عملية خلق الإنسان ، بفضل الإنساج البشرى ، أعنى عمدة التحكم فى مصير الطبيعة بمفضل تدحل الإنسان ، ومن ثم فإن الإنسان الاشتراكى إنما يملك الدليل الواضح الذى لا سبيل إلى دحضه على خلقه بمسه بنفسه ، أو على عملية إبداعه لمصيره الذاتى .

وكان ماركس ضحية أخرى من ضحايا تعاليم بولص وسجن الكنيسة للأفكار المنحررة ، كما كان كل اعلامة المحدثين الذين ناقصوا أنفسهم باستمرار مع تتابع مذهبهم ، والذين أوضحت مذهبهم فى جلاء أنهم جميعا حاصعون لثورة جنون قتل الإخوة ، فلا يهدأ لهم بال حتى يحطموا كل مناس بطالب بارتقاء عرش الحقيقة .

وراح سارتر يقرر أن الإنسان حر ، يعنى بذلك أن « الله غير موجود » وأن الموجود البشرى إنما يسرع إلى شيء واحد فقط ألا وهو « الوجود » ، أى أن الإنسان ينزع إلى أن يكون إله .

تعقيد وترديد وتجريد وتسكع دهى لا طائل تحته ، وينور تبدر فى الصحراء ، ومحارث تحرث فى لماء ، وبعد عن الإنسانية وإفكارها بهدم تراثها الروحى كنز انبشرية ما داموا يريدون أن يروا كل شيء بالحواس

وعن الخواص عشاوة ، وما داموا لا يعرفون وهم في حصم الصياح بين النار والنور .

إن كان لهم العذر أن يثوروا على ما حاءهم بولص من أوهام فعلى ماذا يحثون ؟ هل قال لنا الإسلام إسا ورثنا خطيئة آدم ظلما . لقد كان الله أرفأ بعباده من بولص فقال حل شأنه . ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ (١) ، هل قال الإسلام إن الله سبحانه وتعالى برل إلى الأرض وأكل الطعام ومشى فى الأسواق وأد له طبيعتين إلهية وإمسية ؟ لقد حرص الإسلام على تربية الله تعالى عن التجسيد فكيف يخطر على ذهن مسلم يعرف حقيقة ديه أن الله قد مات أو أن العلم قد انتصر على الله . هل وقف الدين الإسلامى فى سبيل حرية التفكير والكشف والاختراع ؟ لقد كان الإسلام يدفع أتباعه على الدوام إلى التدبر فى الكون والسير فى مساكب الأرض وجعل طلب العلم فريضة ، هن كان فى الإسلام رجال دين وكنيسة تعرض آراءها على الجميع وتطرد المعارضين من رحمة الله ؟ لم يعرف الإسلام وظيفة رجل الدين ولم يعرف الوساطة بين الخالق والمخلوق ، بل كان يصر على تأكيد الصلة المباشرة بين العبد وربه . فعلى أى شىء تثورون أيها المثثرون ؟ أثثورون على جهلكم يا عبيد الاستعمار المكبرى ؟ ولم تشككون ؟ وما الذى يدفعكم إلى العردة الذهبية والطريق واضح والسبيل مستقيم ؟ وكيف يرصى أصحاب العقول السليمة أن يستدلوا بالآلى والدرر بالماس المنصوع وإن بدا للعيون تألقه وبريقه ؟ ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ (٢) .

أين كانت فلسفة العرب يا أصحاب العقول قبل عصر النهضة في أوروبا ، ومن أين جاءت هذه النهضة التي يتغنى بها صحايا الاستعمار الفكرى من المسلمين ؟ يقول الأستاذ أحمد أمين والدكتور ركنى نجيب محمود في كتابهما « قصة الفلسفة الحديثة » . اتصل الأوروبيون بالمسلمين في الأندلس اتصالا وثيقا واتخذ علماءهم فلاسفة المسلمين أساتذة يتعلمون منهم ويدرسون عليهم ، ونشطت حركة واسعة النطاق لنقل أهم المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية وهى لغة الأدباء والعلماء في القرون الوسطى ، حتى إن كثيرا مما بقى من مؤلفات « ابن رشد » حفظت إلى الآن باللغة اللاتينية ولا نجد لها أصلا بالعربية . وفي القرن الثالث عشر كانت كل « كتب ابن رشد » تقريبا قد ترجمت إلى اللاتينية ما عدا كتباً قليلة منها كتاب « تهافت التهافت » الذى رده على « تهافت الفلاسفة » للغزالي ، فقد ترجمت في القرن الرابع عشر .

ورجال النهضة الحديثة الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية كاسوا بدرسون على هذه الكتب أو يتلمذون لمن درسوا عليها ، « هروجر بيكون » الذى سبق أهل رمنه في معارفه وطريقة بحثه أحد ثقافته العلمية من الأندلس ودرس فلسفة ابن رشد .

والقسم الخامس من كتاب في البصريات Optics مستمد ومساير كتاب « ابن الهيثم » في « هذا الموضوع نفسه » .

إن فلاسفة الإسلام هم الذين فتحوا أعين فلاسفة العرب على ما في أقوال بولص من تناقض مع المذهب السليم والعدل الإلهي ، فهم أصحاب الفصل في تحريرهم من رقي الكنيسة ومن أن السلطة الكنيسية هي وحدها مصدر الحقيقة !

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه « التفكير الفلسفي في الإسلام » الجزء الثاني « على أن الله قد رفق رجالا متعصبين من العرب لرد هجمات لتعصب والهوى الصادرة من بني وطهم ، ونكرر القول بأنهم ليسوا من المستشرقين ولا من أدناب الاستعمار ، ومن أمثلة ذلك : الأستاذ كاردانوس وهو فيلسوف ورياضي إيطالي يقول عن « الكندي » إنه واحد من بين الاني عشر המתارين في العالم .  
ويقول الأستاذ فلنت عن ابن خلدون : « إن أفلاطون وأرسطو وأوجستين ليسوا بظراء لابس خلدون ، وكل من عداهم غير جدير بأن يذكر إلى جانبه » .

ويقول الدكتور محمد إقبال في كتابه : « تجديد التفكير الديني في الإسلام » ترجمة الأستاذ عباس محمود : « لقد كانت أوروبا بطيئة — نوعا ما — في إدراك الأصل الإسلامي لمهجها العلمي . وأخيرا جاء الاعتراف بهذه الحقيقة » .

ويقول بريغولت في كتابه « بقاء الإنسانية » : إن « روجر بيكون » درس اللغة العربية والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد على حلفاء معلميه لعرب في الأندلس ، وليس « لروجر بيكون » ولا لسميه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفصل في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة ، والمناقشات التي دارت حول واصعي المنهج التجريبي هي طرف من التحريف اهائل لأصول الحصاراة الأوروبية .



وقد كان المذهب التحريبي العربي في عصر يكون قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس — في هدف — على تحصيله و ربوع أوروبا .  
لقد كان العلم أهم ما حادث به الحصار العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج

إن العبرية التي ولدتها ثقافة العرب في إسبانيا لم تهص في عفوانها ، لا بعد مضي وقت طويل على احتفاء تلك الحصار وراء سحب الطلام ، ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوروبا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية .

فيه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوروبي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة متميزة ثابتة ، وفي المصدر القوى لازدهاره ، أي في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي .

إن ما يدين به عمما لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مذهشة لنظريات مبتكرة محسب ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم لقديم — كما رأيناه — لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم المجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أحسية استحلوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم في يوم من الأيام فتمترح امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية .

وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات ، ولكن أساليب البحث في دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ،

والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبي ،  
كل ذلك كان عربيا تماما عن المراح اليوناني . و لم يقارب البحث العلمي  
نشأته في العالم القديم إلا في الإسكندرية في عهدها الهلنسي .  
أما ما تدعوه العلم فقد طهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة  
ولطرق من الاستقصاء مستحدثة : لطرق التحرية والملاحظة والمقاييس  
ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح وتلك  
المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوروي « :  
ومن يشأ الاستزادة في معرفة فصل العرب على الفلسفة الغربية الحديثة  
فليرجع إلى كتاب الفلسفة الحديثة في الميراث لفضيلة الدكتور محمد فتح الله  
بدران .

هذه بعض الحقائق نضعها أمام المفتونين بكل ما تأتى به الحضارة  
الأوروبية من إلحاد وإحلال وتفكك . راجين أن يعودوا إلى كتابهم الكريم  
لينتدبروا ما فيه من سمو ورفعة ، وإلى تراث المفكرين الإسلاميين السابقين  
ليعلموا أى سع غرير قد سهل منه المفكرون العربيون .  
وفقنا الله وإياكم إلى ما فيه الصواب .

القاهرة في ١٦ / ٥ / ١٩٦٨ .

## المراجع

- |  |                               |
|--|-------------------------------|
|  | القرآن الكريم                 |
|  | الكتاب المقدس                 |
|  | صحيح البخارى                  |
| لابن هشام                              | السيرة النبوية                |
| لعلى برهان الدين الحلبي                | السيرة الخلية                 |
| للمويرى                                | نهاية الأرب في فنون الأدب     |
| للألويسى                               | بلوغ الأرب                    |
| المهندس ركزيا هاشم ركزيا               | المستشرقون والإسلام           |
| أحمد أمين وركى نجيب محمود              | قصة الفلسفة الحديثة           |
| الدكتور محمد بن فتح الله بدر           | الفلسفة الحديثة في الميزان    |
| بودلى                                  | الرسول - حياة محمد            |
| ترجمة محمد محمد هرج وعبد الحميد السحار |                               |
| لأبى القرج الأصمهاى                    | الأغانى                       |
| للمهودى                                | وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى |
| الدكتور أحمد الحوقى                    | تحت راية الإسلام              |
| للربير بن بكار                         | جمهرة نسب قريش وأخبارها       |
| للدكتور ركزيا إبراهيم                  | مشكلة الحرية                  |
| للدكتور ركزيا إبراهيم                  | مشكلة الإنسان                 |
| لكريسييس — ترجمة يحيى الخشاب           | إيران في عهد الساسانيين       |

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

A Literary History of the Arab By Ntchilson .

Muslim Institutions By Maurice Gaudet - Demombynes .

العقد الفريد

لابن عبد ربه

تاريخ القرآن

لابراهيم الأبياري

أسباب النزول

للنيسابوري

١ - ابراهيم ابو الانبياء	٢ - بنو اسماعيل
٢ - هاجر المصرية أم العرب	٤ - العدنانيون
٥ - قريش	١٢ - غزوة اهد
٦ - مولد الرسول	١٤ - غزوة الخندق
٧ - الفتييم	١٥ - صلح الحديبية
٨ - خبيجة بنت خويلد	١٦ - فتح مكة
٩ - دعوة ابراهيم	١٧ - غزوة تبوك
١٠ - عام الحزن	١٨ - عام الوفود
١١ - الهجرة	١٩ - حجة الوداع
١٢ - غزوة بدر	٢٠ - وفاة الرسول

## محمد رسول الله والذين معه

( في عشرين جزءا )

### للمستاذ عبد الحميد جوده السحار

ثمة الاسلام منذ ايام ابراهيم الخليل الى ان لحق محمد  
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الاعلى . وقد كتب  
المؤلف الحقائق التاريخية في أسلوب قصصى اخاذ .

وفي هذه الأجزاء يستقصي المؤلف تاريخ العرب قبل  
الاسلام ، وكتب لأول مرة تاريخ العرب ما بين ابراهيم ونشأة  
العذناتيين ، معتمدا على ما كشفت عنه الحفريات الأخيرة في  
بلاد العراق وسورية وارض العرب ، وهي حقبة لم يتعرض  
لها الاخباريون ولا المؤرخون الاسلاميون .

وسر المؤلف التاريخ تفسيراً روحياً من خلال مرءة  
الحقائق التاريخية . انها موسوعة عربية اسلامية بخل فيها  
الجهد الكثير .

**دار مصر للطباعة**  
**سعيد جودة السحار وشركاه**

رقم الإيداع ٣٩٧٠  
الترقيم الدولي ٧ - ١٦١ - ٣١٦ - ٩٧٧

